مصطفى أمين

أل ٢٠٠ فكرة



العصر الحديث
للنشر والتوزيع

أصلي في أي مكان!

أؤمن أن العمل عبادة، ولا يهمني أين أصلي. الذي يهمني أن أجد شبراً من الأرض أصلي فيه لربي ووطني. وسواء أديت صلاتي في مسجد كبير أو زاوية صغيرة. سواء كانت صلاتي في مسجد في القاهرة أو مكة أو دمشق أو لندن. إن الذي يهمني أن أجد مكاناً أقوم فيه بعبادتي.

فأنا عندما أكتب أحس برهبة وكأنني أؤدي صلاتي. وأحرص أن أتوضأ بماء الحب والحق والإيمان. وأحاول أن أتجرد من أطماعي وشهواتي، من أحلامي ومخاوفي، من صداقاتي وخصوماتي: وعندما أقف أمام شعب الوطن العربي أحس بخشوع غريب كأنني أقف في حضرة إمام عظيم.

وكلما أتطلع إلى جريدة عربية جديدة تبدأ خطواتها الأولى أشعر أنني أتطلع إلى شبابي. أحس أن لي طوبة في هذا البناء. كل بناء كهذا سكبت فيه دمي وعرقي، وأحرقت أعصابي وفكري، وأعطيت جهدي وحياتي. في مثل هذا الحلم الجميل أمضيت أجمل سنوات عمري. هنا مشيت أحبو خطواتي الأولى في طريق طويل. هنا نبتت أحلامي وآمالي. هنا ولدت هزائمي وانتصاراتي. هنا حاربت معاركي العذراء. هنا تمرنت يدي على حمل السيف، لتشتد مع الأيام لتحمل المدفع. هنا رسمت أول صورة لحلم الصحافة العظيمة التي أتمناها لبلادي، أي جريدة عربية حرة هي جريدتي وحبيبتي وقطعة من قلبي!

وعندما أمشي في دهاليز أي جريدة عربية جديدة أبحث عن شبابي. أحس أن فيها بعض نفسي وبعض أنفاسي. أتطلع إلى الأحجار الجديدة والوجوه الجديدة فأرى نفسي في كل حجر وفي كل وجه، عندما يتطلع الإنسان إلى نفسه في مرايا الزجاج لا يلحظ تغييراً أو تبديلاً، ولكن عندما يتطلع إلى نفسه في وجوه الناس يعرف أنه تغير. تذهله التجاعيد التي هي إمضاءات الزمن. تدهشه الشعرات البيضاء التي تشبه الأكشاك الصغيرة التي يجلس فيها «المحولجي» في طريق السكة الحديد، والتي تعلن أننا اقتربنا من محطة الوصول! السعداء هم الذين تنبت الشعرات البيضاء في رؤوسهم، وتظهر التجاعيد على وجوههم لا على قلوبهم!

ولا أشعر اليوم أن قلمي أحيل إلى المعاش، بل أشعر أنه ولد من جديد، وهذه هي شهادة الميلاد! ولا أشعر أن روحي شاخت، أو أن قلبي أحس بالعجز، على العكس أشعر أنني ما زلت في شبابي، ما زلت أحلم بصحافة عظيمة في بلادي، أحلم أن يصل الصوت العربي إلى كل أنحاء العالم. إن أحلامي لم تتبدل ولم تتغير. ولم تنقص ولم تذبل. لم تتراجع ولم تصب بالشيخوخة. إنها تكبر ولا تصغر. تقف ولا تركع. تتقدم ولا تتأخر. تثبت ولا تترنح!

كل ما حدث أنني غيرت المكان الذي أصلي فيه لربي ووطني..

ولكنني لم ولن أغير ربي الذي أعبد، ولا الوطن الذي أحبه وأفتديه وأعشقه وأهواه!

الحب ثلاث مرات في اليوم!

كانت سعيدة بالنجاح الذي حققته في البلد العربي، وبالمنصب الممتاز، وبالمرتب الكبير وبالشقة الفاخرة التي أثثتها على آخر طراز، أيضاً بالسيارة الفارهة التي آقتنتها.. ثم قابلته، وكان يصغرها بعشر سنوات.

وأقنعها أن الجنة التي تعيش فيها هي الجحيم، كل هذه الرفاهية لا تساوي شيئاً بجانب الحب. ودعاها لأن تعود إلى بلادها، حيث تفطر حباً وتتغدى حباً وتتعشى حباً!

واستقالت من منصبها، ورفست مرتبها، وباعت شقتها وأسرعت خلف الحب وتزوجته وبدأت تفطر حباً وتتغدى حباً وتتعشى حباً! ثم آقتصر الحب على الإفطار والعشاء! ثم أصبح الحب إفطاراً فقط بلا عشاء! ثم آختفى الحب من الإفطار والغداء والعشاء مع آخر قرش بقي من ثمن الشقة وتحويشة العمر!

وعجيب أمر هذه السيدة العاقلة التي توهمت أن الحب يمكن أن يكون ثلاث وجبات في اليوم! فالحب لا يقدم على صينية، ولا يوضع على مائدة وإنما هو يحتاج إلى جهد مشترك ليعيش وينمو ويكبر ويستمر! وكل هذه الزيجات الناجحة احتاجت إلى عمل وجهد وكفاح وتضحية وتعب كأن هذه العاطفة الجميلة مشروع صناعي ضخم لا يكفي فيه

اتفاق المساهمين، وإنما يحتاج إلى عمل ضخم متواصل وإلَّا تعرض للضياع والإفلاس!

لقد جلست هذه السيدة في بيتها تنتظر أن يجيء الحب لها على صينية الحبيب! واهمة أن الحب هو طعام جاهز ليس في حاجة إلى إعداد! ناسية أنه حتى الأطعمة في حاجة إلى أن نضعها فوق النار لتسخن، وليصبح لها مذاق شائق.

ولقد التقيت بزوجة سعيدة كانت تحتفل بمرور خمسين عاماً على زواجها وسألتها عن سر سعادتها فقالت إنه يعاملني كأنه لم يتزوجني بعد، كأنه آستمر يخطبني لمدة خمسين سنة! وفي الخطبة يحاول كل من الشاب والشابة أن يظهر للآخر أجمل ما فيه، ويخفي عيوبه!

ومن الصعب جداً أن تستطيع أن تخفي عيوبك خمسين سنة!! ولكن هذا هو ثمن السعادة الزوجية!

أعداء العرب

إذا أردنا أن نبحث عن أعداء العرب فيجب ألا نتعب أنفسنا في البحث والتنقيب. يكفي أن ننظر في المرآة لنرى أعدى أعداء العرب. . نحن دون سوانا أكبر أعداء أنفسنا، ونحن الذين نجعل العالم يستهين بنا، ويقف موقف العاجز أمام خروج إسرائيل على كل عرف وقانون أو منطق أو قرار للأمم المتحدة أو مجلس الأمن. .

إذا نظر العالم نحونا وجد عجباً. . معارك بين العراقيين والفلسطينيين، معارك بين السوريين والمسيحيين في لبنان، معارك بين شمال اليمن وجنوب اليمن، معارك بين ليبيا ومصر، معارك بين الجزائر والمغرب، خلافات عنيفة بين بعض دول الإمارات. . ويفتح الأجنبي محطة التلفزيون فيرى صورة عربي يقتل عربياً في لندن، أو صورة عربي يقتل عربياً في باريس أو صورة عربي يقتل عربياً في كراتشي. . كأن متعتنا الكبرى أن نقتل بعضنا، ونهاجم بعضنا، ونشتم بعضنا. . نصف الدول العربية تقطع علاقاتها الديبلوسية مع نصف الدول العربية الأخرى، مؤتمراتنا تنقلب إلى قاعات للمبارزة بالسباب والاتهامات. . أغلب الشخصيات العربية موضوع في القائمة السوداء في دولة عربية أو أكثر من دولة عربية. . صحفنا تهاجمنا أكثر مما تهاجم إسرائيل وأمريكا وروسيا. .

ماذا جرى لنا؟؟ هل هي لعنة أصابتنا فانقسمنا وتبعثرنا. . ؟؟ هل

وقعنا في كمين دبرته لنا الدول الكبرى لتستطيع أن تبتلعنا بسهولة، بعد أن كان من الصعب عليها أن تأكلنا ونحن متضامنون متحدون؟؟

ماذا كسبنا من كل هذه الخلافات؟ هل آستطعنا أن نسترد شبراً واحداً من أرض فلسطين؟؟ هل أمكننا بهذه الشتائم والاتهامات لبعضنا أن نضعف العدو؟ ونزلزل أقدامه، ونعيده بضع خطوات إلى الوراء؟؟

إننا خرجنا من حرب اكتوبر ونحن القوة السادسة في العالم، وكان العالم يحسب لنا ألف حساب بسبب قوتنا الاقتصادية وبسبب نجاحنا في آستعمال سلاح البترول..

فهل قصدوا بهذه الانقسامات أن يحطموا هذا السلاح في أيدينا، أو يشلوا أيدينا فتعجز عن التلويح بهذا السلاح، أو أن يشغلونا بأنفسنا حتى لا نستطيع أن نضغط بالقوة الهائلة التي في أيدينا لننفذ قراراً أصدره مجلس الأمن من ١١ عاماً بالاجماع..

هل نحن الذين نضع أيدينا فوق عيوننا حتى لا نرى مصلحتنا، أم هي يد غريبة التي تمنع عيوننا من أن تبصر ما يجب أن نراه؟

ضحية طبق فول مدمس!

كان الزعيم الاقتصادي الكبير طلعت حرب يثق ثقة عمياء بالشاب أحمد سالم، وأسند إليه عدة مناصب كبيرة في شركات بنك مصر برغم صغر سنه، وقفز به فوق رؤوس كبار موظفي بنك مصر وشركاته وفيهم كفايات وعبقريات... وأصبح أحمد سالم صاحب أكبر مرتب وصل إليه رجل أعمال في مصر.

وفشلت كل محاولات أصدقاء طلعت حرب في زعزعة أحمد سالم عن العرش الذي كان يجلس عليه، ولم يصدق التقارير التي كتبت ضده، ولا المستندات التي حاولت النيل منه، ولا الدسائس التي حيكت حوله.

وذات يوم كان طلعت حرب مريضاً في بيته بحلوان، وذهب أحمد سالم للاستفسار عن صحته فقال له: أرجوك يا أحمد أن تحضر معك صباح غد (طبق فول مدمس) من محل التابعي.. وكان التابعي هذا أشهر صانع فول مدمس في مصر في ذلك الحين..

وذهب أحمد سالم إلى عمله، ثم سهر سهرة حمراء مع أصدقائه، وفي الصباح ذهب أحمد سالم كعادته إلى حلوان لعيادة طلعت حرب، وقد نسي كل شيء عن طبق الفول المدمس المطلوب.. وفوجىء أحمد سالم بطلعت حرب باشا يقول له: هل نسيت طبق الفول المدمس؟؟ وفوجىء أحمد سالم بسؤال طلعت حرب وآضطر أن يكذب ويقول له أنه لم ينس،

وأدعى أنه ذهب في الصباح إلى محل التابعي فوجده مغلقاً لوفاة أخيه. وسكت طلعت حرب، ولم يقل شيئاً.

وبعد انصراف أحمد سالم استقل طلعت حرب سيارة وذهب إلى محل التابعي، ووجد المحل مفتوحاً، ودخل وجلس إلى إحدى الموائد واستدعى الحاج التابعي صاحب المحل وقال له: البقية في حياتك.. وفتح الحاج التابعي عينيه دهشة، فسأله طلعت حرب ألم يمت شقيقك؟ وقال الحاج التابعي لا.. وعاد يسأله ألم يمت أحد من أقاربك؟؟ قال الحاج التابعي لا.. وسأله هل تأخرت في فتح محلك؟؟ قال الحاج التابعي لا.. فتحت المحل في الساعة الخامسة صباحاً كعادتي كل يوم..

وقام طلعت حرب باشا، واتجه إلى مكتبه في بنك مصر وأصدر قراراً بفصل أحمد سالم من جميع مناصبه في الشركات والمؤسسات التابعة لبنك مصر...

وسألت طلعت حرب باشا يومها: هل يساوي طبق الفول المدمس كل هذا العقاب الصارم؟؟

قال: نعم.. إن الرجل الذي يكذب علي في طبق الفول المدمس سيكذب علي في مليون جنيه.. إن هذه وظائف ثقة وما دام قد فقد ثقتي فهو لا يصلح للعمل معي..

إن طبق الفول المدمس أضاع أكبر إيراد حصل عليه شاب في مصر في تلك الأيام...

فقد الدنيا.. عندما فقد صديقاً!

دخل علي محطماً ممزقاً، في عينيه مأتم، على شفتيه نحيب مكتوم، سألته فزعاً ماذا جرى؟ قال: فقدت كل شيء في الحياة! سألته: هل ذهب مالك: قال: مالي كما هو. قلت: هل ضاع منصبك؟ قال: إنني باق في منصبي. سألته: هل فقدت ولدك؟ قال: بل إن ولدي بخير؟! سألته: ماذا حدث؟ قال: لقد فقدت صديقي كان صديقي هو عمودي الفقري الذي يقف خلفي عندما أواجه الأنواء! كان العصا التي أستند إليها! كان المنديل الذي يمسح دموعي! كان المرهم الذي إذا جرحت، كان هو الشمعة عندما تظلم الدنيا من حولي! ثم ذهب صديقي وشعرت لأول مرة أنني وحيد غريب في بلدي ضائع وسط الزحام. أحتار ولا أجد دليلي، أتوه في صحراء الدنيا ولا أجد راحتي. ما أشقى الإنسان عندما يتعذب ولا يجد من يشكو إليه ويتألم ولا يجد صدراً يحنو عليه. هذا الصديق هو صديق العمر كله. قاسى بجواره أحزانه وشاركه أفراحه. ضحك معه وبكى معه لم يبق من العمر سنوات ليصنع فيها صديقاً جديداً.

الصداقة لا تولد في يوم وليلة. إنها تمتحن في الشدائد وتظهر في المحن وتقوى في المواقف الصعبة. أصدقاء السلطان يعشقون السلطة فإذا ذهب الكرسي ذهبوا معه أما صديق المحنة فهو الذي وقف بجانبي عندما تخلى عني الناس، ثبت بجواري عندما هرب الأصدقاء، نطق باسمي عندما كان النطق باسمي جريمة، دافع عني عندما كان الدفاع عني خيانة

وصمد بجواري وهو ضعيف. هل غلطتي أنه كان لي في الدنيا صديق واحد وما ذنبي أنا إذا وجدت فصاً واحداً من الماس في جبل من الزجاج؟ إننا لا نستطيع أن نضع إعلاناً في الصحف نطلب صديقاً. الأصدقاء اليوم أصبحوا كالشقق الخالية بل أنت تستطيع لو كنت قادراً أن تدفع خلو رجل لشقة ولا تستطيع أن تدفع خلو رجل لصديق.

قلت له: الدنيا مليئة بالناس الطيبين. . . إنك لن تجد كل الصفات في رجل واحد قد تجد العقل في صاحب ولا تجد فيه خفة الدم وقد تجد المروءة في رجل ولا تجد فيه الصمود وقد تجد طيبة القلب في إنسان ولا تجد فيه شجاعة القلب، نحن نخطىء إذا طلبنا كل شيء في إنسان واحد ولهذا يجب أن نبحث عن كل ما نريد في كل الناس. .

إبحث يا صاحبي. . وقد تجد عشرة أصحاب يصنعون مجتمعين صديقاً واحداً.

أسباب الهزيمة!

سألني أحد أساتذة التاريخ عن رؤيتي في أسباب هزيمة ٥ يونيو، فهو يريد أن يضع كتاباً عن هذه الهزيمة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

قلت إن الهزيمة هي النتيجة الطبيعية والمنطقية لحكم الفرد. هي نفس سبب هزيمة هتلر في ألمانيا، وهزيمة موسوليني في إيطاليا وهزيمة توجو في اليابان.

والديموقراطية تفتح عيون الحكام والدكتاتورية تعمي هذه العيون. وعندما يطفىء الحاكم الفرد مصابيح الحرية يشتد الظلام في طريق الحكم، ويقود سيارة سلطان الحكم، في ليل حالك السواد، فلا يستطيع أن يتبين معالم الطريق. يسير على غير هدى. يفقد الرؤية. الشبح يراه رجلاً. والرجل يحسبه ألف رجل. والزهرة يظنها قنبلة. يصدم السيارات التي أمامه. يدهس المارة. يصعد فوق الرصيف. يدوس على البنزين متوهماً أنه الفرملة. ويدوس على الفرملة متخيلاً إنها البنزين. . ولهذا تنقلب السيارة وينتهي حكم الديكتاتور!

وأنا أتصور أن الظلام هو سبب هزيمة ٥ يونيو. فلو كانت هناك حريات لرأى الحاكم طريقه، وعرف أن الطريق الذي اختاره هو طريق الدمار، وتبين الحفر والمطبات والبكابورتات في الشارع الدولي. لو أن البلد كان فيه ديموقراطية لذهب إلى مجلس الشعب وعرض عليه الموقف، وسمع في جلسة سرية آراء النواب. فقد يجد في آرائهم رأياً ينفعه. أو

فكراً يفيده. أو نصيحة تنير له الطريق. ولو كانت هناك حرية صحافة لعرف الحاكم حقيقة ما يجري في قيادة الجيش، عندما أزيح القادة الأكفاء وحل مكانهم المحاسيب والندماء. ولولا الارهاب الذي كان يخرس الأفواه ويقطع الألسنة لعلم الحاكم أن الجيش أعدته مراكز القوى ليحرس الحاكم لا ليحرس الوطن، وليرهب الشعب لا ليحمي أبناء الشعب، ولاعترضت الصحافة الحرة على إبعاد الضباط الذين تعلموا في الاتحاد السوفيتي وأمريكا وإنجلترا إلى مناصب رؤساء مجالس الشركات والسفراء. وإلى كل وظيفة ما عدا الوظيفة التي درسوها وحصلوا على أعلى الشهادات فيها.. ولو كان الحاكم ديموقراطياً لاستشار أهل الخبرة وقالوا له أن الخائفين لا ينتصرون، وأن المقيدين بالسلاسل لا يقاتلون، وأن كل جندي في الجيش له أخ معتقل أو مشرد، أو مضطهد، أو تحت الحراسة، أو مفصول من عمله...

ولو كان كل هذا موجوداً في ٦ أكتوبر.. لما حدث ٦ أكتوبر أبداً!

الحصان يكسب أكثر من رئيس جمهورية أمريكا!

سألت مجلة أمريكية قارئتها، هل تريدين أن تصبحي مليونيرة؟؟؟

وأجابت إن أسرع طريق لتكون المرأة صاحبة ملايين أن تتزوج من محمد علي كلاي بطل العالم في الملاكمة، ثم تطلق منه، وبذلك تحصل على مليون دولار، كما فعلت زوجته السابقة.

والطريقة المثلى لتكون المرأة مليونيرة في أمريكا هي أن تتزوج من مليونير ولو لمدة ٢٤ ساعة، والقانون الأمريكي يعطي الزوجة المطلقة الحق في أن تقتسم مع الزوج نصف ما يملك، فإذا امتلك بيتاً تأخذ نصفه، وإذا امتلك ناطحة السحاب اقتسمتها معه بالنصف تماماً.

واطلعت على قائمة المرتبات في أمريكا فوجدت عجباً، أن إيراد شحاذة في مطار أوهارا بشيكاغو هو ألف دولار في الأسبوع أي ٢٨٠٠ جنيه مصري في الشهر، وإيراد الشحاذة الشهري هو أقل ألفاً من مرتب مستر بلومنتال وزير مالية أمريكا.

وإيراد الحصان نبولد فورس حصان السباق المشهور هو ٤٦٠ ألف دولار في العام وهو أكثر كثيراً من مرتب المستر كارتر رئيس جمهورية الولايات المتحدة، فأفضل لك أن تكون حصاناً في أمريكا على أن تكون رئيس جمهورية فيها، ومرتب اللاعب بيل برادلي قلب هجوم فريق كرة القدم في نيويورك هو ٣٢٥ ألف دولار في العام وهو أكبر خمس مرات من

مرتب قاضي قضاة مدينة نيويورك الذي يتقاضى ٦٣ ألف دولار في العام وأكبر أربع مرات ونصف مرة من مرتب قاضي قضاة المحكمة العليا في الولايات المتحدة.

والذين يقيمون الدنيا ويقعدونها للمبالغ التي توزع على لاعبي الأهلي والزمالك سوف يذهلون إذا علموا أن اللاعب جوليوس ليرفنج أحد أفراد هجوم فرقة فيلادلفيا لكرة القدم يبلغ إيراده السنوي ٦٠٠ ألف دولار أي ٤٢٠ ألف جنيه مصري فهو يتقاضى مرتباً أكبر من مجموع مرتبات مجلس وزراء أمريكا مجتمعاً.

ولكن الضرائب في أمريكا تقصم الظهر! إن محمد علي كلاي ربح في عام ١٩٧٥ مبلغ ثمانية ملايين ونصف مليون دولار وفي سنة ١٩٧٧ ربح مبلغ ١٤ مليوناً وثمانمائة ألف دولار وبعد أن دفع الضرائب اضطر أن يقترض ليدفع أتعاب المحامين.

حقاً إن الفقر حشمة.

البقية في حياتكم!

كان مدير إحدى الشركات يستأجر شقة في إحدى العمارات. ودهسته سيارة ومات على الفور. ونشرت الصحف نعيه وقالت إنه زوج فلانة... وأقيم المأتم في شقة المرحوم، وحرص صاحب العمارة وأسرته على حضور ليالي المأتم الثلاث. وكانوا أكثر المعزين دموعاً، وأعلاهم نحيباً، وكانوا يقطعون القلوب بحديثهم الدافىء عن الفقيد العزيز، ووفائه وإخلاصه، وحبهم له وصداقتهم له، وجمائله التي لا ينسونها، وفضائله التي لم يروا مثلها.

وفي أثناء هذا التأبين الحزين دخلت الشرطة ومندوب بيت المال، وطلب من الموجودين في المأتم أن يخلوا الشقة فوراً لأنهم سيغلقونها بالشمع الأحمر، فقد ثبت أن صاحب الشقة لا ورثة له لا زوجة ولا أخوات ولا أقارب، ولذلك فإن أثاث الشقة ينتقل فوراً إلى وزارة المالية، لأن بيت المال يرث من لا ورثة له. وأسرع الورثة إلى النيابة فوجدوا فيها بلاغاً يدعي هذه الدعوة الغريبة. وبحثوا عن مقدم البلاغ الكاذب فوجدوه صاحب العمارة نفسه الذي كان جالساً معهم يعزيهم، ويبكي الفقيد ويشيد بصداقته، وظهر أنه قدم هذا البلاغ ليأخذ الشقة ويؤجرها بإيجار ضخم...

وألغي القرار الباطل. ولكن كيف يبقى مثل هذا المجرم بغير عقاب.. إننا نطالب بتشجيع أصحاب العمارات على بناء العمارات.. ولكننا نرفض هذه الوسائل الدنيئة لكسب المال الحرام. نرفض أن يلجأ

بعض أصحاب العمارات الجشعين إلى بعض المحامين الذين لا ذمة لهم للكيد للمستأجرين، فيرفعوا القضايا الوهمية، ويختلقوا الحجج القانونية لطرد السكان إلى الشارع. بل لقد حدث أن صاحب بيت في الجيزة تعمد أن يعطي إحدى المستأجرات إيصالات لمدة عام بغير توقيعه. ولم تتصور المستأجرة أن الإمضاءات التي على الإيصالات مزيفة إلا عندما تلقت إنذاراً بأن تترك شقتها لأنها لم تدفع الإيجار لمدة عام كامل، واستدعت المحكمة البواب، وإذا بالرجل الفقير المسكين يشهد بأن صاحب العمارة كاذب، وأنه تسلم الإيجار لمدة عام من الساكنة وأنه سلم للساكنة الإيصال بنفسه.

مثل هذه التصرفات لا يكفي فيها رفض دعوى الإخلاء بل يجب أن يعاقب مثل صاحب العمارة الملفق، بالسجن أو بتعويض ضخم يساوي ما كان سوف يكسبه لو طرد هذه البريئة من بيتها وأجر شقتها مفروشة. . .

هذا الجشع يجب أن نقاومه، والقانون وحده هو الذي يحمي أصحاب العمارات الشرفاء وأصحاب الشقق الشرفاء من الجشعين والملفقين والمزيفين. . .

يجب مضاعفة عقوبة البلاغ الكاذب حماية للضعفاء. . . .

إرفع رأسك أيها الكاتب!

أنعم الرئيس عبد الناصر بقلادة النيل على الكاتب الكبير توفيق الحكيم وهذه القلادة لا ينعم بها إلا على الملوك ورؤساء الجمهوريات.

وقيل لتوفيق الحكيم إن رئيس الجمهورية يريد أن يقلده القلادة في احتفال علني، ورجا توفيق أن يتم في لقاء خاص، ليس فيه متفرجون ولا مصورون فإن من طبيعة توفيق أنه يكره الظهور في الاجتماعات الكبيرة والحفلات الرسمية.

ولكن الرئيس عبد الناصر قرر أن تكون المناسبة عامة، وارتدى توفيق أحسن بذلة عنده ووقف أمام المرآة ينظر إلى صورته في بذلة مقابلة الحكام والناس العظام.

وفجأة قالت له زوجته رحمها الله: إياك أن تنحني وأنت تصافح رئيس الجمهورية. قال توفيق في دهشة: لماذا لا أنحني! إنني أنحني وأنا أصافح أي مخلوق. . . .

قالت له زوجته: إنك عندي تساوي رئيس الجمهورية. . ورفضت زوجة توفيق الحكيم أن ينحني الأدب للسياسة!

وذهب توفيق إلى الحفلة ولم يحن رأسه وظهر فيلم سينمائي وقد وقف توفيق الحكيم رافعاً قامته وهو يتسلم قلادة النيل منتصب القامة كأنه ملك يتحدث إلى ملك!

ولقد قال لي مرة توفيق الحكيم إنه لم يحدث في يوم من الأيام أن تمنى أن يكون وزيراً فقد كان يرى أن مكانة الكاتب في أي بلد متحضر هي أكبر من مكانة الوزير وكان هذا شعور عباس العقاد أيضاً، أذكر أن أحداً من زواره قال له مرة كيف أن محمد محمود باشا اختار الدكتور محمد حسنين هيكل وزيراً للمعارف ولم يفكر النقراشي في اختيارك وزيراً للمعارف وضحك العقاد وقال: إن النقراشي يعلم أنه ينزل العقاد درجتين عندما يقترح تعيينه وزيراً للمعارف.

ولكن لم يكن كل الأدباء بهذا الرأي أذكر عندما أنعم الملك على الدكتور طه حسين برتبة الباشوية إنه اجتمع حوله أصدقاؤه يسألونه هل ينادونه يا دكتور. . . أم يا باشا وكانت السيدة قرينته موجودة فقالت: باشا وهكذا أصبح أصدقاؤه ينادونه يا باشا. . وذهبت الباشوية وبقي طه حسين أهم من ألف باشا.

وكانت أمنية أمير الشعراء أحمد شوقي أن ينال رتبة الباشوية قبل أن يموت وكان يشعر بإهانة إذا ناداه أحد بلقب «شوقي بك» وذات مرة قال له سعد زغلول: تأكد أن كلمة شوقي ستدخل وحدها التاريخ. . أما الباشوية فسوف تموت معك.

وفعلاً ماتت الباشوية. . وبقي شوقي.

العمل الكثير يصنع الرخاء الكبير!

لاحظ أحد خريجي كلية الزراعة في أمريكا حقلاً صغيراً في الوجه البحري يملكه الإصلاح الزراعي ويعمل فيه عشرة فلاحين. في أيام أجدادنا كان الفلاح المصري يبدأ عمله مع طلوع الشمس، أما الفلاحون العشرة فيبدأون عملهم الساعة التاسعة والنصف صباحاً. . مع أن الوزراء يبدأون عملهم الساعة التاسعة صباحاً. ولا يكون عدد العمال العاملين عشرة أبداً. إنهم ثمانية دائماً. فلاح ذهب ليشتري شيئاً، فلاح ذهب ليحضر ماء، فإذا حضر الاثنان تغيب اثنان آخران وهكذا. . وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً يتوقفون ليشربوا الشاي، ثم يستأنفون العمل بعد نصف ساعة ويستمرون إلى الساعة الثانية عشرة، والغريب أنهم لا يحملون ساعات ولكنهم في الظهر تماماً يتوقفون عن العمل، ويمكثون حتى منتصف الساعة الثالثة يتناولون الغداء. . وغداؤهم بسيط جداً ومع ذلك يستغرق ساعتين ونصف ساعة ثم يستأنفون العمل ثم يتوقفون في الساعة الرابعة. وخريج كلية الزراعة في أمريكا في عجب، من قلة الانتاج، ويقول أن فلاحاً واحداً أوروبياً أو أمريكياً يمكنه أن يزرع نفس الحقل، ولا بد أن نعمل شيئاً لنضاعف إنتاج العامل المصري والفلاح المصري، فقد قرأت إحصاء للأمم المتحدة يقول أن ما ينتجه أربعون عاملاً في مصر ينتجه عامل واحد في سويسرا. وقد يكون السبب في قلة الانتاج عدم كفاية التدريب المهني، أو سوء الآلات أو سوء حالة العمال، أو عدم صلاحية جو العمل أو تخلف النظام أو عدم ملاءمة جو العمل، ولكن مهما كان السبب فيجب

أن نقوم بثورة إنتاجية ترفع نسبة إنتاجنا عدة أضعاف، وبهذا وحده نستطيع أن نتغلب على أزمتنا الخانقة.

وسمعت أحد كبار الخبراء في الاقتصاد يقول: إن الحل هو أن تعمل مصر ٢٤ ساعة كل يوم، بمعنى أن تقسم فترات العمل على ثلاث دفعات، كل دفعة ثماني ساعات، أي أن أي وزارة أو مصنع أو مدرسة أو جامعة تعمل الأربع والعشرين ساعة كلها. ويمكن أن يختار كل موظف أو عامل الفترة التي يفضلها أو أن يعمل العامل أسبوعاً في الصباح وأسبوعاً في العصر وأسبوعاً في الليل، وهكذا نخفف الضغوط على المباني والمواصلات وعلى التليفونات وعلى الشوارع. وهكذا ينقص مثلاً سكان القاهره إلى الثلث، وهذه الطريقة يتبعها العمال الكوريون في البلاد التي يعملون بها، فهم يعملون ٢٤ ساعة كل يوم، فعمال ينامون في السراير ثماني ساعات، ويستيقظون فينام بدلهم ثماني ساعات أخرى، ويستيقظون ويحل مكانهم فريق ثالث ثماني ساعات، وهكذا يسبقون كل دول العالم في الإنشاء والتعمير، فكل ثلاثة عمال يحتاجون إلى سرير واحد، بينما كل عامل من أي بلد آخر يحتاج إلى سرير وحده وهم بهذا يختصرون وقت إتمام العمل، ويوفرون في كل الأدوات والسيارات والآلات.

وقد تحل هذه المشكلة مشكلة مئات الألوف من الموظفين الذين لا يجدون مكاتب لهم، وتساعد على سرعة إنجاز الورق في الحكومة، فلا تسمع كلمة تعال بكرة، بل تسمع بدلاً منها «تعال بعد الظهر» لماذا لا نبدأ هذه التجربة ولو في مصلحة واحدة...

يجب أن تدفع لتأخذ

بعض الناس لا يشترون ورقة اليانصيب. وينتظرون أن يكسبوا «البريمو»... أي الجائزة الأولى!

إنهم أشبه بالذين يريدون أن يصلوا إلى القمر، بغير أن يركبوا الصاروخ! لا بد من أن تدفع لتأخذ، ومن أن تتعب لتصل. وقد التقيت منذ أيام بشاب عربي، هاجر إلى الولايات المتحدة وفي جيبه أربعة دولارات! وبدأ كفاحه الطويل يغسل الصحون في مطعم صغير في بروكلين. وقد اختار هذا العمل الشاق المضني في المطعم لكي يأكل مجاناً! وبعد أن ينتهي من عمله في المطعم يذهب إلى كاراج ويغسل السيارات إلى الصباح، ثم ينام بضع ساعات ويذهب إلى المطبخ من جديد!

عام كامل لم يحصل فيه على إجازة، ولا عطلة أسبوعية. لم يذهب إلى السينما. لم يخرج مع فتاة في موعد غرام! ثم انتقل بعد ذلك إلى العمل بائعاً متجولاً، ثم مديراً لمحل تجاري، ثم أصبح من رجال الأعمال. يملك شقة أنيقة في المدينة وبيتاً في الضواحي فيه حوض سباحة وملعب تنس! وفي الكاراج ثلاث سيارات واحدة له، والثانية لزوجته والثالثة لولده!

والغريب إنه عندما اختار زوجته لم يختر فتاة عرفته وهو مليونير، وإنما اختار فتاة عرفته وهو يغسل الأطباق، وكانت هي تغسل الأطباق بجانبه في نفس المطعم، لتستطيع أن تدفع مصاريف الجامعة!

كان يحدثني عن أيام فقره بفخر، وكأنه يقرأ لي شجرة العائلة التي تنتهي إلى أكبر الأسر العريقة! قال لي أنه لم يكره عمله وهو يغسل الأطباق، بل عشق هذا العمل التافه، وكان يشعر بسعادة عندما يغسل أطباقاً أكثر من التي يغسلها زملاؤه، ولم يطلب يوماً من رئيسه علاوة، بل كانت العلاوات والمكافآت تنهال عليه. وكان حريصاً دائماً إذا استقال من عمل أن يخرج منه وهو على أحسن العلاقات مع صاحبه. . . وقد روى لي أنه تزوج في احتفال كبير أقامه في أكبر فندق في المدينة، وحضر القران عمدة المدينة، وحضره أيضاً صاحب المطعم الذي كان هو وزوجته يغسلان الصحون فيه، وقد حرصا على أن يقدما هذا الرجل إلى الضيوف كأنه كيوبيد، إله الحب الذي جمع بين العاشقين أمام حوض غسيل الأطباق!

كفاح الشاب أشبه بأوسمته ونياشينه. . ولهذا فهو يحرص أن يزين صدره بها في الحفلات الرسمية!

إن عرق المكافحين هو أجمل رائحة عطرية في الدنيا!

من حفر بئراً لأخيه...

عندما تمشي في شوارع مدينة القاهرة وتتكفىء على وجهك أو تقطم رقبتك أو تكسر عظامك، لا تغضب ولا تحتج، وحذار أن ترفع صوتك ولا بد أن صراخ الذي يقعون في حفر الشوارع هو المسؤول عن هذه الضوضاء التي تضايق سكان المدينة!

لا بد أن هناك نشاطاً أسطورياً ونهضة عظيمة تقوم بها مصلحة الآثار. في كل شارع وحارة وزقاق حفريات قائمة على قدم وساق للبحث عن آثار قدماء المصريين! وإذا نجحت عمليات التنقيب هذه فلا بد أنهم سيعثرون على كنوز أهم كثيراً من كنوز توت عنخ آمون. فإذا كانت مصلحة الآثار قليلة الذوق ونفت أنها المسؤولة عن هذه الحفر والمطبات فهذه مصيبة المصائب فلم يحدث أن رأينا في أي عاصمة في العالم هذا العدد الوفير من الحفر، منذ أن ولد المثل العربي القديم الذي يقول «من حفر بئراً لأخيه وقع فيها»!

ولا تصدق الذين يقولون أن المقاولين الذين يرصفون الشوارع هم الذين حفروا هذه الآبار لأخيهم الشعب المصري الكريم حتى يقع فيها عقاباً له على طول لسانه عندما يتساءل لماذا يعيش الأسفلت في شوارع العالم عشراً أو عشرين سنة ولا يعيش في بلادنا إلا بضعة أيام! لا يمكن أن يكون مقاولونا الأفاضل بهذه القسوة، ولا بد أنهم سمعوا أن الموضة الآن في المدن المترفة أن يكون أمام كل بيت حوض سباحة ولما

كانت لا توجد في مدننا مساحات كافية لإنشاء أحواض سباحة فقد تركوا هذه الحفر والنقر والمطبات تمتلىء بماء المجاري لتقوم بوظيفة أحواض السباحة خير قيام!

وهناك إشاعة تؤكد أن سر هذه الحفر المتعددة أن المسؤولين يبحثون في شوارع المدينة عن بترول، وقد نسمع قريباً أنهم وجدوا في هذه الحفر الذهب الأبيض، وبذلك نستطيع أن نحل مشاكلنا، ونأكل لأول مرة الخبز الأبيض الذي لم نذقه من ثلاثين عاماً ونجد بيوتاً في القاهرة لمليون مواطن الذين يعيشون داخل القبور!

ولكن كثرة الحفر والنقر في شارع ٢٦ يوليو وشارع طلعت حرب وشارع عدلي وشارع ثروت، وهي شوارع في وسط البلد تجمع أشهر المحلات التجارية، وتوصل إلى شارع الشواربي الذي يخرب بيوت الأزواج المصريين، كثرة الحفر بالذات في هذا المكان الاستراتيجي تثير ريبة النساء المصريات! قد يكون الأزواج في القاهرة هم الذين تآمروا مع المسؤولين، وحفروا في كل حفرة أكثر من «كمين» لتقع فيه الزوجات، وبذلك أرهبوا الزوجات القاهريات، وأصبحت كل واحدة منهن تفضل أن تلزم بيتها، على أن تخرج إلى الشارع فتكسر ساقها أو ذراعها إذ تقع في حفرة من الحفر!

لا بد أن هناك «حكمة» من ترك ألوف الحفر بلا ردم، رغم أنه في كل يوم يسقط ولد في حفرة ويغرق، أو تكسر ساق سيدة، أو يتحطم العمود الفقري لرجل!

ويعطي «الحكمة» لمن يشاء... كيف شاء؟؟

الطغيان يلد العنف!

العالم يشكو من عصابات العنف والاغتيال وسفك الدم. لم يعد أحد يشعر بالأمان. سواء اشتغل بالسياسة أو لم يشتغل فيها. قد يركب طائرة ويجيء من يخطفها. أو قد يركب سيارة أوتوبيس وتنسفها قطعة ديناميت، وقد يدخل داراً للسينما فيحرقها بعض الغاضبين بكل من فيها. وفي الماضي كان ضحايا الاغتيالات السياسية هم كبار المشتغلين بالسياسة، أما الآن فقد أصبح الرصاص أعمى يصيب الجالس على الكرسي والماشي في الشارع والنائم في فراش مستشفى!

والشيء العجيب أن أعنف عصابات العنف ولدت في بلاد قامت فيها ديكتاتوريات مستبدة في وقت من الأوقات، فلقد عاشت اليابان قبل الحرب العالمية الأخيرة في ديكتاتورية بطش وإرهاب وقمع وجبروت، وسقطت الدكتاتورية بهزيمة اليابان، ولكن ولدت أنقاض الديكتاتورية عصابة الجيش الأحمر الياباني التي ملأت اليابان رعباً وقتلاً وسفكاً للدماء!

وفي إيطاليا قامت ديكتاتورية موسوليني التي كممت الأفواه وسحقت المعارضة وقطعت الألسنة ثم سقطت الديكتاتورية مع هزيمة إيطاليا المروعة في الحرب العالمية الثانية، واعتنق الشعب الديموقراطية، وعادت الأحزاب البرلمانية، ولكن خرجت من أنقاض الديكتاتورية عصابات اليمين واليسار التي تقتل مخالفيها في الرأي، وتناقش الكلمة

بالرصاصة وتحاور الفكرة بالقنبلة! وسمعنا عن عصابة الألوية الحمراء، وهي نتيجة عبادة الحكام القتلة الطغاة!

وفي ألمانيا قامت ديكتاتورية النازي واستطاع هتلر أن يجعل نفسه إلهاً. ويجعل النازية ديناً، ويجعل كتاب «كفاحي» كتاباً مقدساً، ووضع خصومه في النار. . وكانت الأفران الكهربائية هي جهنم التي أعدها لمن يقول له «لا» ثم سقطت الدكتاتورية بعد أن تحولت ألمانيا إلى خراب ودمار وأكوام من التراب. . . وفجأة خرجت من هذه الأنقاض عصابات العنف والاغتيال، تقتل وتسفك الدماء وتخطف القضاة، وتغتال رجال الأعمال! وسمعنا عن عصابة بادر ماينهوف التي ألفها تلاميذ مدرسة الطغيان!

هذا العنف الذي يفسد طعم الحياة للناس الآمنين هو مولد شرعي للديكتاتورية، والاستبداد، عندما يجيء رجل وينجح في أن يخضع شعباً بأسره لمشيئته يتحكم فيه، ويستبد به. ويبيع فيه ويشتري، كأن الشعب الذي يحكمه قد مات، وأصبح هو وارثه الوحيد!

إننا عندما نقاوم الديكتاتورية إنما نحمي أولادنا وأحفادنا من الفيران التي تخرج من أنقاض الديكتاتوريات حاملة في أيديها مدافع ومسدسات.

عصر الفلوس

هل نحن الآن في عصر الفلوس؟

في الماضي كانت قيمة الإنسان بما في رأسه، فهل أصبحت قيمة الإنسان بما في جيبه.

وهل لو بعث اليوم العالم أينشتين والكاتب برنارد شو والمؤلف شكسبير ودخلوا إلى مطعم في لندن في نفس الوقت الذي يدخل أحد أصحاب الملايين. . فهل سيرحب «المتردوتيل» بالعالم والكاتب والمؤلف أم سيتركهم واقفين ينتظرون دورهم ويسرع يعد مائدة للمليونير العظيم؟

أعتقد أنه سيهمل شكسبير وسيحتفل بالشيخ شلفوط. فالشيخ شلفوط اليوم يستطيع أن يشتري المطعم بما فيه من أينشتين وبرنارد شو وشكسبير، وما ينفقه الشيخ شلفوط في ليلة واحدة أكثر مما كان يربحه شكسبير في عدة أعوام!

وفي الثلاثينات كان يوجد في الهند غاندي وآغا خان. . وكان غاندي يمشي في الشوارع شبه عار، وكان آغا خان من أغنى رجال العالم! وكانت أغلبية الشعب الهندي تسير خلف غاندي وتفضله ألف مرة على آغا خان! وكان غاندي يملك معزة، وكان آغا خان يوزن كل عام بالذهب أو بالماس يقدمه له أتباعه! ولكن كان العصر في تلك الأيام هو

عصر الروح والفلسفة والإيمان بالمبادىء. . . بالرغم من الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة التي كانت سبباً في ملايين العاطلين!

والدنيا الآن تغيرت، فأصبحت الشيكات أنفع من الدرجات العلمية، والرصيد في البنوك أكثر احتراماً من المؤلفات والمجلدات والأبحاث والفلسفات.

ولقد كان بعض أجدادنا يضيقون بما لديهم من فلسفات وروحانيات، وكان الفيلسوف أمين الريحاني يقول «أنا الشرق عندي فلسفات. . من يأخذها ويعطيني دبابات»! ولكن العالم لم يأخذ فلسفاتنا، بل أنه أعطانا مادياته، وأصبحت قلوبنا أكثر قسوة مما كانت.

وحدث أن عرض التلفزيون فيلم روميو وجولييت، وكان هذا الفيلم يبكينا ونحن شباب. وكانت مناديلنا تمتلىء بالدموع في مناظر اللوعة والفراق والعذاب. وقد عجبت وأنا أشهد شبان وشابات اليوم يستغرقون في الضحك وهم يشهدون هذه المأساة! لم يتصور أحد من الجالسين الشبان أنه من الممكن أن يعشقوا كما عشق روميو وأن يتعذبوا كما تعذبت جولييت!

الذي لا شك فيه أن القلب عندما يمتلىء بالعاطفة يكون أسعد ألف مرة من الجيب وهو يمتلىء بالأموال!

وسيجيء يوم نسمع فيه من يقول: يا رب خذ مليون دولار واعطني حباً عظيماً!

الحب العظيم ألذ من مليون دولار!

سعيد فريحة!

عندما أزور لندن أفتقد صديقي سعيد فريحة، كانت حياته في لندن غريبة يمضي أكثر نهاره وليله أمام برنامج التلفزيون مسحوراً مأخوذاً. إذا تكلمت لا يسمعك، وإذا سألته لا يجيب، وإذا قال أحد الجالسين نكتة أغرق في البكاء لأنه كان يتابع مشهداً درامياً تموت فيه البطلة بين ذراعي الحبيب!

ولا أظن أن سعيد رأى في السنوات الأخيرة شيئاً من معالم لندن. ولا زار متاجرها. ولا أمضى دقيقة واحدة في متاحفها، ولا أتعب نفسه بمقابلة أحد رؤساء التحرير فيها، فهو كان يفطر تلفزيون ويتغدى تلفزيون ويتعشى تلفزيون! وأغرب من هذا أنه كان لا يعرف اللغة الإنجليزية!

وقد سألني مرة أنه لا يكاد يذكر ماذا كان يفعله الأزواج في بيوتهم قبل اختراع التلفزيون!

وقد عرفت سعيد في بؤسه وسعادته، وفي فقره وفي غناه، وفي ساعات نحسه ولحظات حظه. وكان قادراً دائماً أن يحول بنكته الدمعة إلى ابتسامة، والمرارة إلى قطرات من الشهد! وكان يصل إلى قمة خفة الدم عندما يضحك من نفسه ويسخر من فشله ويهزأ من هزيمته!

وكانت له قدرة أعجب من أن يعشق من الذاكرة! بمعنى أنه يحب

من بعيد ويزهد من قرب. يعشق المرأة وهي فوق السحاب لا تستطيع ذراعه أن تصل إليها، فإذا نزلت هي إلى الأرض صعد هو إلى السماء وأصر أن يحبها حباً ملائكياً طاهراً! وأتصور أن أكثر النساء اللواتي قبلهن وعانقهن سعيد كن على صفحات الجعبة، وفي المقالات الممتعة التي كان ينشرها في الشبكة والصياد!

ولم يكن أحد يتصور أن سعيد الدون جوان أو كازانوفا هو في الحقيقة من هواة الحب الأفلاطوني. وهو أشبه برجل يركب طائرة في رحلة حول العالم ليصل إلى حديقة، ثم يتقدم في خشوع إلى زهور الحديقة، ويتجه إلى أجمل وردة فيها ويشمها من بعيد، بغير أن يقطفها أو يلمسها، وبعد ذلك يستدير، ويعود أدراجه إلى المطار، ويستقل الطائرة ويلف العالم عائداً إلى مكتبه وهو سعيد قرير بأنه شم من بعيد رائحة الوردة الجميلة!

ولا يكلف سعيد نفسه أن ينظر خلفه، ليرى أنه بعد أن ابتعد عن حوض الزهور جاء ثقيل الدم ثقيل الخطوات ومد يده وقطف الوردة الجميلة ووضعها في جيبه!

كان سعيد دائماً يحرص على ألّا ينظر خلفه ليرى مصير الوردة التي استنشق عبيرها من بعيد!

كان عاشقاً للجمال.

درية شفيق!

أنهت درية شفيق آخر سطر في ديوان أشعارها باللغة الفرنسية.

ثم وضعت القلم على المكتب، واتجهت إلى باب شرفة شقتها في الطابق السادس من عمارة وديع سعد بالزمالك، وفتحت باب الشرفة، ودخلت إلى الشرفة وأطلت حولها، ثم ألقت نفسها من الشرفة. وسقطت ميتة في حديقة العمارة.

وعندما رأيت جثتها ملقاة على الأرض ومغطاة بملاءة بيضاء، عجبت أن تكون هذه نهاية امرأة شجاعة خاضت المعارك، وتحدت الدكتاتوريات، وقادت المظاهرات، وهتفت بسقوط الطغاة، وأضربت عن الطعام حتى تنال المرأة المصرية حقها في الانتخاب!

وعندما نالت المرأة المصرية حقها في الانتخاب، كانت هي المرأة المصرية الوحيدة التي حرمت من حق الانتخاب!

تذكرتها عندما علمت أمس أن ابنتها تفاوض ناشرين في باريس لطبع آخر شعر كتبته بالفرنسية في ديوان خاص.

كانت الدكتورة درية شفيق جارتي في بيتي، وبقيت شقتها ٢٦ سنة تواجه شقتي. وكانت أول فتاة مصرية تحصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون في باريس. وانضمت إلى حركة السيدة هدى شعراوي المطالبة بحقوق المرأة وأصبحت صاحبة مجلات بنت النيل

والمرأة الجديدة ومجلة الكتكوت، وكـانت بنت النيل والمـرأة الجديـدة من أوسع مجلات المرأة انتشاراً في البلاد العربية. وكانت مجلة الكتكوت مجلة خاصة للأطفال، ثم أنشأت حزب بنت النيل وكانت رئيستـه، وتزعمت حركة المطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب، وكانت تهاجم الـوزراء ورؤساء الوزارات وتنتزع منهم التصريحات لتأييد مطالب المرأة.

وكـانت كتلة من الحيويـة والنشاط، تتلقى الضربـات بـابتسـامـة سـاحـرة، وتـواجـه الشـدائـد بقلب قـوي، تصمـد كـالجبـل وتـهـاجـم كالإعصار. كـانت أول إنسان في مصر هـاجم الديكتـاتوريـة بشجاعـة مذهلة، ودفعت الثمن غالياً فأغلقت مجـلاتها وألغي حـزبها، وحـددت إقامتها في بيتهـا، وطورد زوجهـا المحامي الكبـير في رزقـه، ووضـع في الاعتقال. ولم تتراجع ولم تحن رأسها، ولم تسترحم، ولم تطلب شفاعة من أحد! وكنت أراها في مصعد العمارة في أيامها الأخيرة، صاعـدة ونازلـة، وعلى شفتيها ابتسـامة حـزينة. كـانت تشكو الـوحدة المـريرة بعـد زواج ابنتيهـا وانفصال زوجهـا عنها. وكـانت لا تستقبـل أحـداً في بيتهـا، ولا تخرج من شقتها إلّا لتلقي خطابين في صندوق البوستة لابنتيها المقيمتـين في الخارج!

وقد مر حوالي العامين على وفاتها ولم تفكـر هيئة نسـائية في أي بلد عربي أن تؤبنها، أو تحيي ذكراها، أو تطلق اسمها على شارع أو حـارة أو زقاق! مع أن كل نائبة في أي برلمان عربي أو أي وزيـرة في وزارة عربيـة، أو أي امرأة عربية تتقلد منصباً كبيراً في بلدها مدينة لامـرأة اسمها دريـة شفيق!

سيقف لبنان على قدميه

عندما زرت لبنـان لأول مرة منـذ ٣٥ سنة وصفتـه بأنـه بلد صغير برجال كبار! ولا أعرف ماذا جرى للرجـال الكبار الـذين رأيتهم في تلك الأيام. بعضهم ماتوا، وبعضهم قتلناهم، وبعضهم انتحروا، وبعضهم ماتوا وهم على قيد الحياة، وبعضهم دفناهم أحياء!

نحن الجناة والمجني عليهم. القتلة والورثة. المسؤولون عن النكبة وضحيتها في نفس الوقت. وعندما يجيء أولادنا وأحفادنا ويقرأون تاريخ هذه الأيام سوف يتصورون أننا كنا أمة من المجانـين، نضرب رؤوسنا في الجدار، ونمشي إلى الخلف، ونفكر بأحذيتنـا، فلا يمكن لأصحـاب أجمل بيت في الشرق الأوسط أن يشعلوا فيه النار ويحولوه إلى خـراب، ويجعلوا من السطوح الدور السفلي، ومن الدور السفـلي الدور العلوي، لا يمكن أن يفعل أصحاب بيت كل هذا إلّا لسبب وجيه!

هل السبب أننا لم نكن نستحق هذا البلد الجميل. هل كان كثيـراً علينا أن يكون لدينا واحة للحرية في صحراء الاستبـداد؟ هل ضقنـا بأن يكون لدينا قطعة صغيرة من الأرض نتنفس فيها فلا تعد علينا أنفـاسنا، ونتحـرك فيها فـلا تقيد خـطواتنا، ونحلم فيهـا فلا تتحـول أحلامنـا إلى كابوس؟

كـانت ميزة أهـل لبنان أنهم إن غضبـوا أخرجـوا مسـدسـاتهم ثم أطلقوها في الهواء، أنهم يتبادلون أقذع الشتـائم وبعد لحظات يتعانقـون

ويتبادلون القبلات. أن جميع الطوائف والأديان اجتمعت فوق جبل من الحب؟ ماذا جرى؟ أين هم أهل لبنان الذين أعرفهم. هذه الوجوه الضاحكة. هذه القلوب البيضاء. هذه الشفاه التي تتغنى بأغاني الحب وقصائد شعراء الغزل. كيف تتحول أمة التعمير إلى أمة التدمير. بلد الحب إلى بلد البغض. شعب السلام إلى شعب الحرب والقتال!

من كان منا بلا خطيئة فليلق حجراً على شعب لبنان! ولكن كل دولة عربية مسؤولة عما جرى في لبنان. نحن الذين تباطأنا في إطفاء النار منذ اللحظة الأولى. تصورنا أن أهل لبنان يمزحون كعادتهم فإذا بهم يقتلون بعضهم بعضاً، ثم يستعينون بمن يقتل لهم من لم يستطيعوا قتلهم!

والغريب أن كل هذا الدمار لا يجعلني أيأس! إنني أتوقع أن يقف لبنان على قدميه كما كان. يعود جميلاً كما كان. يصبح سيداً حراً مستقلاً كما كان. لا يبقى فيه أي نفوذ أجنبي لأحد، ولا سلطان فيه إلّا سلطان شعب لبنان!

أتوقع أن كل هذا سوف يحدث في لبنان.. لأنني أعرف شعب لبنان.

العالم اللص!

هاجمت الصحف البريطانية والأميركية زعيم مصر. وأتهمته بالجهل ونكران الجميل وقلة الأدب وقلة الذوق!

وآشتركت صحف العالم الكبرى في هذا الهجوم القاسي على زعيم مصر الذي لا يحترم العلم والعلماء!

وكان زعيم مصر في تلك الأيام هو سعد زغلول الذي رأس أول وزارة برلمانية في تاريخ مصر منذ سبعة آلاف سنة. وكان مستر هوارد كارتر قد آكتشف في تلك الأيام مقبرة توت عنخ آمون، وأحدث الاكتشاف الخطير ضجة في كل أنحاء العالم ولاحظ رئيس الوزراء المصري أن المكتشف البريطاني يعامل المقبرة كأنها ملكه الخاص يفتحها حين يشاء، ويغلقها متى يشاء، وأرسل إليه الزعيم المصري ينبهه إلى أن هذه المقبرة ملك مصر، وأنه يجب أن تفتح في حضور مندوب الحكومة المصرية، وأنه يجب أن يخضع لتعليمات الحكومة المصرية. ورفض مستر كارتر هذه التعليمات وأبلغ سعد زغلول أنه حر يفتح المقبرة متى يشاء، ويدخل فيها متى يريد. وأصدر سعد زغلول أمراً بإغلاق المقبرة وتعيين حرس من الشرطة يمنع مستر كارتر من الدخول.

وقامت الدنيا وقعدت! وآحتج المندوب السامي البريطاني. وآحتجت الحكومة البريطانية. ونشرت الصحف البريطانية مقالات إفتتاحية تتهم سعد زغلول بالوقاحة في معاملة المكتشف البريطاني والعالم

الأثري العظيم! وصمد سعد زغلول، وأضطر مستر كارتر أن يخضع لتعليمات الحكومة وأن لا يفتح المقبرة إلاَّ في حضور مندوب الحكومة!

وقالت صحف أوروبا أن سعد زغلول أخطأ في تصرفه، فقد عامل المكتشف العظيم كأنه حرامي ولص من لصوص الآثار وهذا شيء لا يليق أن يحدث مع عالم كبير له هذا الاحترام الهائل في جميع دوائر العالم العلمية!

وبعد ٥٤ سنة ظهرت الحقيقة، فقد أعلنت صحف العالم أن توماس هوفنج مدير متحف المتروبوليتان في نيويورك سينشر في شهر فبراير القادم مذكراته، وفيها سيذيع سراً خطيراً وهو أن المكتشف العظيم هوارد كارتر سرق من المقبرة ٢٩ قطعة نادرة من آثار توت عنخ أمون، وأن هذه القطع موجودة في أربعة متاحف أمريكية، عشرون منها في متحف متروبوليتان وحده والباقي في متحف بروكلين ومتحف كانساس سيتي ومتحف سنسناتي ومتحف كليفلاند!

وهكذا تبين أن المكتشف البريطاني العظيم وعالم الآثار العظيم هو لص عظيم!..

هل ستراجع الصحف العالمية الكبرى أرشيفها، وتكتب معتذرة للزعيم المصري الذي ظلمته؟

لا أظن.

غياب الحرية هو المسؤول عن الشقاق

لولا غياب حرية الصحافة في البلاد العربية لما حدث كل هذا الشقاق والخلاف بين الأشقاء.

الأفواه المكممة لا تستطيع أن تتفق، والألسنة المقطوعة لا يمكن أن تغني نشيداً واحداً! الصحف الحرة تعبر عن الشعوب، والصحف المقيدة هي ألسنة الحكام، ومنذ أصبحت للحاكم أصبحت كل كلمة تنشر في جريدة عربية تحسب على الحاكم العربي الذي تصدر في بلده الجريدة وفي بعض الأحيان يكون الحاكم مظلوماً، وتكون الجريدة ملكية أكثر من الملك ولكن ما من حكومة في المنطقة العربية تتصور أن كلمة منشورة في أي جريدة عربية نشرت بغير أن تكون بإملاء أو بإيعاز أو بتحريض أو بتشجيع رئيس الدولة!

ومنذ أن أصبحت أغلب الصحف العربية مملوكة للحكومات ساءت العلاقات بين الحكومات واكفهر الجو بين الدول، وتضاعفت العداءات، وأصبحت كل حكومة متهمة عند الحكومة الأخرى بما قاله أو نشره محرر، مهما كان المحرر صغيراً، حتى ولو كانت الجريدة نشرت رسالة من قارىء عملاً بحرية النشر!

وغياب حرية الصحافة هو الذي أدى إلى ظهور هذا العدد الهائل من الصحف والمجلات خارج البلاد العربية، وقد كان من الممكن أن تستفيد البلاد العربية من هذا النشاط الصحفي الكبير لو كانت فيها

حرية صحافة، أو لو لم تكن هذه المحاجر الصحية في كل بلد عربي تمنع دخول جرائد عربية أخرى كما يمنع الحجر الصحي دخول الأوبئة والأمراض!

وهكذا أصبحنا نجد في بعض البلاد العربية صحف «القارىء الواحد» أي صحيفة تصدر من أجل قارىء واحد هو الحاكم، لا يهمها إلّا أن ترضيه، ولا تعبأ إلّا بما يهمه وتحذف من الأخبار ما يضايقه وتشطب من التعليقات ما يغضبه. وبعد أن كان الشعب الذي يختار كتابه، أصبحت الحكومات هي التي تختار الكتاب، وهكذا حدث نوع من الانفصال الشبكي بين الشعب العربي وصحافته!

وعندما تعم حرية الصحافة في كل البلاد العربية سوف تختفي كل هذه الخلافات وسوف يصبح الشعب العربي في كل بلد هو قوة ضاغطة تدعو إلى التفاهم والمحبة، وتصبح أي كلمة تنشرها جريدة تعبر عن رأي الجريدة لا عن الدولة ورئيس الدولة!

إن الحرية قادمة.. وسوف يجيء معها الحب والتفاهم بين الأصدقاء.

تريد أن تكون شيئاً!!

قالت: أريد أن أكون شيئاً!

قلت: أنت أشياء كثيرة!

قالت: أريد أن أكون الصورة، لا إطار الصورة! أريد أن أكون القصيدة، لا الشيطان الذي أهداها! أريد أن أكون النور لا الظل! الحقيقة لا الخيال! أريد أن أكون الكاتب العظيم، لا ملهمة الكاتب العظيم. أكرهكم عندما تقولون أن وراء كل رجل عظيم امرأة، أتمنى أن أكون أنا العظيمة وورائي رجل!

قلت: إنني أؤمن بأن في استطاعة المرأة في بلادنا أن تكون شيئاً عظيماً، بشرط ألّا تنسى أنها امرأة. أنا أكره المرأة المسترجلة كراهتي للرجل المخنث.

ولكن من عيوب المرأة في بلادنا أن تطلب المساواة وتصر أن نقف لها في الأتوبيس. وأن تزاحمنا في العمل، ثم تنتظر منا أن نفسح لها الطريق بأعتبارها من الجنس الضعيف. وأن تصل متأخرة إلى الاجتماع وتتوقع أن نقدم لها مقاعدنا التي حصلنا عليها عندما جئنا مبكرين!

ولا تزال نساء كثيرات في بلادنا يرفضن الجري وراء الأوتوبيس. وبعض النساء يعاملن الحياة كأنها أوتوبيس، لا تريد إحداهن أن تجري لتلحق به، ولا أن تتشعلق على السلم، وتتأفف أن تقف مع الواقفين،

وتطالب بأن نخصص أوتوبيسات للحريم.

وأنت يا ابنتي تريدين أن أقدم لك مقعداً في الحياة على شكل شيزلونج. بينما مقاعد الحياة لا توزع على الناس مجاناً. إنها تنتزع. الرجل العادي يبدأ حياته واقفاً على قدميه، ثم يجلس فوق المسامير، ثم ينتقل إلى كرسي مطبخ، ثم يصعد فوق كرسي خيزران برجل مكسورة، ثم بعد ذلك يجيء المقعد الوثير في الحياة!

لماذا تفضلين يا ابنتي الوظائف المريحة. أن تصبحي سكرتيرة أو مضيفة طيران. لماذا لا نرى فتيات يبعن الصحف. يشتغلن سائقات سيارات. كناسات في الشوارع. ساعيات في المكاتب.

المرأة العربية في حاجة إلى أن تعصرها الحياة، والصدمات والمتاعب سوف تعلمها كيف تصمد وكيف تشق طريقها في الصخور. الأصابع الملونة بالمانيكير لا تصلح لشق الصخور! والفساتين المجرجرة تعوق المرأة إذا أرادت أن تسابق الزمن وتلحق بقطار الحياة السريع!

ونظرت الفتاة إلى أصابعها المصبوغة بالمانيكير وإلى الفستان المجرجر وقالت إنها الآن أصبحت تفضل أن تكون المرأة التي تقف وراء الرجل العظيم!!

جربنا الاستبداد.. فلنجرب الحرية!

جربنا الاستبداد وحكم الفرد والرقابة على الصحف والمعتقلات وإعطاء القانون إجازة فلم نربح سوى الهزيمة ولم نكسب سوى التفرقة وكانت النتيجة: جهودنا صفراً. . . لماذا لا نجرب الديمقراطية والحرية وسيادة القانون.

اعطونا عشرين سنة من الحرية نعطكم النصر والرخاء. . .

في سنة ١٩٤٨ كانت الأحكام العرفية معلنة في مصر وسوريا والأردن والعراق وضاعت نصف فلسطين.

وفي سنة ١٩٦٧ كانت الأحكام العرفية معلنة في أغلب الدول العربية فضاعت كل فلسطين. . .

لم نكسب شبراً واحداً من فلسطين بتقييد حرية الصحافة وحرية التنقل وحرية القول ذلك أن المقيدين في السلاسل لا يكسبون الحروب. . .

وأنا في كل يوم أزداد إيماناً بأننا بالحرية نستطيع أن نستعيد ما فقدناه بالاستبداد.

وأننا بالديمقراطية نتفادى الأخطاء التي ارتكبناها في ظل حكم الفرد، وأننا بسيادة القانون سوف نكون أقوى ألف مرة منا بغير عدالة وبغير قانون.

ومن العجب أننا لم نستفد من دروس التاريخ. لقد كانت ألمانيا ديكتاتورية وخسرت الحرب.

وكانت إيطاليا ديكتاتورية وخسرت الحرب، وكانت اليابان ديكتاتورية فخسرت الحرب.. فماذا فعلت كل هذه الديكتاتوريات المهزومة.. أول ما فعلته هو أنها دفنت الديكتاتورية تحت أنقاض الهزيمة وأعتنقت الديمقراطية، وبالديمقراطية والحرية والعدالة عوضت خسائرها، وأصبحت ألمانيا واليابان أغنى دولتين في العالم، وتقرضان أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التي هزمتها في الحرب.

ماذا كان يحدث لهذه الدول لو كانت تمسكت بحكم الفرد وبالرأي الواحد وبالمعتقلات والسجون والمشانق؟

كانت ستبقى مهزومة محطمة مسحوقة، ترفع الشعارات، وتصدر الاحتجاجات، وتطلق التصريحات. ولكننا أعتبرنا المعتقلات والقيود والسلاسل مكاسب ثورية لا يجوز التفريط فيها.

هل أخذت أنديرا الدرس؟

أتمنى أن تنجح أنديرا غاندي في الانتخابات الفرعية للبرلمان الهندي التي ستجري في أوائل الشهر القادم.

وأتمنى أن تكون تعلمت درساً من سقوطها السياسي، عندما عاقبها الشعب الهندي على طغيانها وحكمها الاستبدادي لمدة ١٩ شهراً عندما أعلنت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف وملأت السجون بزعماء المعارضة وبكل صوت ارتفع يقول لا.. لا..!

لقد دفعت ثمن هذا أنها فقدت رئاسة الوزارة ورئاسة الحزب ودائرتها الانتخابية في البرلمان. لم ينفعها أنها حكمت الهند ١١ عاماً حكماً ديموقراطياً! هذه الشهور القليلة من الطغيان سودت كل تاريخها، وحولت أنصارها إلى خصوم وأصدقاءها إلى أعداء! الشعوب تغفر للحاكم أخطاءه ولا تغفر له طغيانه! تنسى كل سيئاته ولكنها تذكر إلى الأبد السياط التي ألهبت ظهورها.

وأخطأت أنديرا عندما أرادت أن تجعل من ابنها ولياً لعهدها فراح يبيع ويشتري في جمهورية الهند وكأنه ورثها عن أمه!

إن الفساد هو السوس الذي ينخر في الأنظمة، ويسقط القياصرة، ويدك القلاع! الشعب يتسامح مع الحكام الأغبياء، ولكن لا يتسامح مع

الحكام الذين يمدون أيديهم إلى جيوب شعوبهم ويأخذون ما فيها، أو يقاسمونهم رزقهم!

وأنا أعتقد أن أنديرا امرأة ذكية، والحاكم الذكي هو الذي يستفيد من أخطائه ولا يكررها، وهو الذي يبعد المشبوهين من أن يقتربوا منه أو يستفيدوا بنفوذه. ولهذا أتوقع أن أنديرا الجديدة سوف تكون أشد تمسكاً بالديموقراطية من أنديرا القديمة، وأكثر حرصاً على نزاهة الحكم من أنديرا القديمة. وسوف تفضل أن تتحمل سهام المعارضين ونقدهم وهجومهم على أن تقيدهم بالسلاسل والأغلال، وتكتشف في نهاية الأمر أن الذي يحاول أن يحفر للحرية قبراً يدفن فيه دائماً!

وإذا نجحت أنديرا فسوف تكون زعيمة المعارضة، وإن كان حزبها ضعيفاً نسبياً فلها الآن ٧٢ مقعداً في البرلمان في مقابل ٣٠٠ مقعد لحزب جاناتا الحاكم.

ولكن يكفي أن يعود صوتها من جديد إلى البرلمان بعد أن حرمت من دخوله عاماً كاملاً!

المهم أن تدخل البرلمان بعد أن تكون تعلمت درسها جيداً!

عيد الحب!

دعوت إلى عيد جديد في بلادي.. وهو عيد الحب.

واتفقنا على أن يكون العيد الأول في يوم السبت ٤ نوفمبر (تشرين الثاني)، في هذا اليوم سيبعث كل واحد منا تحية لمن يحب، قد تكون هذه التحية زهرة أو بطاقة أو خطاباً أو محادثة تليفونية!

إننا نريد أن نعيد الحب إلى بلادنا، نحب زوجاتنا وحبيباتنا. نحب أولادنا وبناتنا. نحب أصدقاءنا وجيراننا. نحب وطننا. نحب الناس جميعاً!

لقد تعلمنا كيف نكره سنوات طويلة. ونريد اليوم أن نتعلم كيف نحب، كيف نعفو، كيف نتسامح، كيف ننسى.

الحب يجعل الحياة حلوة. يجعل الزهور تتفتح. يجعل القلوب تصفو. يجعل الشمس تشرق.

والذين لا يعرفون الحب لا يعرفون الهناء. مساكين أصحاب القلوب السوداء. إنها تجعل حياتهم كئيبة قاتمة مقبضة. ومن تجاربي أن الذي لا يعرف كيف يحب لا يعرف كيف ينجح في الحياة، فلكي تنجح في الحياة يجب أن تفهم الناس، ولكي تفهم الناس يجب أن تحبهم. وعندما تكره إنساناً لا تستطيع أن تراه على حقيقته. تراه قصيراً وهو طويل. تراه ثقيل الدم وهو خفيف الدم. تراه لا يستحق أن تطمئن له،

بينما إنه رجل أمين يستحق أن تثق به وتعتمد عليه.

ويمكنك أن تبحث عن صاحب متجر يحب الناس، فتجد ابتسامته تجذب الناس، فتجد أن الناس بشعور غير إرادي تنفر منه، وتتعمد ألاَّ تدخل متجره، وهو لم يفتح فمه، ولم يقل لأحد أنه يكره الناس، ولكن في داخل كل واحد منا جهازاً عجيباً يعرف منه من يحبه ومن لا يحبه. وهو جهاز دقيق لا ينفع معه الخداع والكذب والنفاق. من الممكن أن يخدعك إنسان ويقول لك أنه يحبك، ولكن لا بد أن شيئاً في داخلك سوف يرشدك إلى حقيقة مكره وخداعه وتضليله!

عيد الحب سيكون عيد كل الناس ما عدا الذين لا يحبون إلاَّ أنفسهم!

توفيق الحكيم يبلغ الثمانين!

احتفل توفيق الحكيم ببلوغه سن الثمانين، وقد رأيت توفيق لأول مرة منذ ٤٨ سنة في منزل السيدة روز اليوسف، فقد جاء يهدي إليها قصة أهل الكهف، وكان رجلاً خجولاً متردداً، لا يثق بنفسه، وقال أنه لم يطبع من كتابه أكثر من مائتي نسخة لأنه لا يتصور أنه سيجد مائتي قارىء لكتابه. هذا الكتاب الذي أصبح يقرأه الملايين!

وسمعته يرجو الأستاذ التابعي ألاَّ يكتب عن الكتاب، فقد تصور أن النقاد سيهاجمون هذه القصة التي ترجمت بعد ذلك إلى عدة لغات ومثلت على مئات المسارح!

وكانت السيدة روز اليوسف تقول أن توفيق الحكيم رجل يسرح باستمرار! لقد حدث وهي بباريس أن ذهبت مع ابنتها الطفلة الصغيرة وتوفيق إلى غابة بولونيا، وطلبت من توفيق أن يأخذ باله من الطفلة الصغيرة حتى تذهب هي إلى عمل يهمها! وعادت روز اليوسف بعد ساعة ولم تجد الطفلة، وسألت توفيق أين هي فأشار إلى شجرة في الغابة وقال هذه هي الطفلة! وظهر أن توفيق مكث ساعة ينظر إلى الشجرة ويحسبها ابنة السيدة روز اليوسف ومكثت روز اليوسف ساعتين تجري في أنحاء الغابة حتى عثرت على طفلتها، ومن يومها توقعت السيدة روز اليوسف أن توفيق لن يكون له مستقبل ككاتب لأنه لا يمكن الاعتماد عليه في حراسة الأطفال!

وقد ورث توفيق عن أمه خفة دمها وعندما أرسله والده إلى فرنسا لينال الدكتوراه في الحقوق اتجه الإبن إلى الأدب والمسرح، وكان والده المستشار في محكمة الجنايات يكتب له يقول له أنه «ولد خائب» وأنه سيلوث اسم الأسرة باشتغاله بالأدب والفنون. ولكن أمه كانت فرحة باتجاه ولدها الفني، وقد قالت لي مرة أنها أحست من ملاحظات ابنها الغريبة وهو طفل أنه سيكون شيئاً مهماً، بينما كان الأب يقول أن شقيقه هو الذي سينبغ، أما توفيق فلن يصل إلى أكثر من وظيفة محضر أو كاتب في محكمة!

وعاشت الأيام حتى رأت ابنها كاتباً من أعظم كتاب الشرق، ولم يعش الأب ليعرف أن اسم «الأسرة» عاش بفضل توفيق الحكيم. . وأن أحداً لم يعرف أن توفيق الحكيم له أخ حتى الآن!

إذا فشل ابنك في الدراسة التي آخترتها فلا تجزع. . فقد يكون في بيتك عبقري. . وأنت لا تدري!

شيخ الأزهر

عرفت المغفور له الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر شجاعاً لا يخاف، جريئاً لا يتردد. عشت معه كثيراً من أزماته. رأيته يصطدم بالحكومات ويرفض أن يتراجع. ويقول رأيه ولا يهمه إذا أرضى أو أغضب. .

وكانت له آراء لا أوافق عليها، ولكنني كنت أحب فيه أنه لا ينحني ولا ينثني. .

وكان شديد الاعتزاز بكرامته، وكان يقول أنه قادر أن يتواضع بشخصه، ولكن المركز الديني الذي يشغله لا يستطيع أن يتواضع. .

ولقد رأى منصب شيخ الإسلام في مصر رجالاً أقوياء ورجالاً ضعفاء! أذكر أن واحداً من هؤلاء الشيوخ دعي لحضور حفلة لدى خديو مصر، وأراد العاهل المصري أن يجامل شيخ الأزهر فأرسل له عباءة ثمينة ليرتديها في الحفلة نظراً لأن شيخ الأزهر هذا كان معروفاً بالزهد يرتدي دائماً رث الثياب!

وأرسل شيخ الأزهر سكرتيره يحمل العباءة إلى الحفلة ومعها خطاب للخديو يقول فيه «أرسل إليكم عباءتكم لتحضر الحفلة بالنيابة عني»!

وأعرف شيخ إسلام آخر أبلغته الحكومة أنها خصصت له سيارة

ليركب فيها، وأعتذر عن ركوبها، وأرسل إلى رئيس الوزراء حسين رشدي باشا يقول «إن حماري أضمن. . . وأسرع! أقترح توزيع ثمن السيارة على فقراء المسلمين»!

وأعرف أن ثورة ١٩١٩ كانت تعتبر الجامع الأزهر قلعتها الثانية، وكان بيت سعد زغلول هو القلعة الأولى. وفوق منبر الأزهر وقف القسس يعانقون الشيوخ، ووقف القس سرجيوس يخطب في الناس ويقول أتعرفون لماذا وجه الإنجليز أحمر. . . إنه نتيجة شرب دم الشرقيين الذين يستعمرونهم ويذبحونهم!

في تاريخ الشرق ظهر رجال دين يحملون بيمينهم مشعل الدين وبيسارهم مشعل الحرية. فيهم مسيحيون وفيهم مسلمون. ولكن جمعهم الإيمان بأن حب الوطن هو جزء من حب الله، وأن الكفاح الوطني هو صلاة مقدسة مقبولة عند الله، وأن كل من يحرر شبراً واحداً من أرض الوطن يدخل جنات النعيم!

اللهم ادخلنا جميعاً الجنة!

لو كنت وزيراً جديداً!

قلت للوزير العربي الجديد: اعمل لوزارتك كأنك ستبقى وزيراً إلى الأبد، واعمل للشعب كأنك سوف تستقيل غداً!

عيب مقعد الوزير في بلادنا أنه مقعد مسحور، لا تكاد تجلس فوقه حتى تتصور أنك مخلد إلى الأبد. وفي كل يوم يرتفع بك المقعد إلى أعلى وينخفض الناس من أمامك، حتى يجيء يوم يعلو المقعد إلى علو شاهق فلا ترى الناس الذين أصبحوا تحت، ولا تسمع إلا صوت الذين يجلسون معك من فوق!

لو كان الأمر بيدي لجعلت مقاعد الوزراء كلها من النوع «الهزاز» حتى لا يشعر الوزير فوقه بالاستقرار، فلا يتنمر، ولا يتجبر، ولو كان الأمر بيدي لعلقت أمامه لافتة مكتوباً عليها بالخط الكبير «لو كانت دامت لغيرنا. . لما جاءت لنا»!

ولو كان الأمر بيدي لبدأت عملي الجديد بزيارة الوزير السابق وجميع الوزراء الذين سبقوني في تولي هذه الوزارة، وقلت لهم إنني جئت أتعلم منكم، وأن المثل الذي يقول «أن الوزير الذي هو أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة» هو مثل محترم في تاريخ الوزراء! كم من وزير أضاع نفسه وأضاع مستقبله عندما بدأ عمله بهدم ما عمله سلفه الوزير، وبالبحث عن أخطاء الذين سبقوه. . إن مهمة الوزير في كل بلاد العالم أن يكمل ما بدأه الوزير السابق لا أن يهدمه ويلغيه!

وبعض الوزراء يحرصون أن يكون معاونوهم من الأقزام أهل الثقة على أن يكونوا من العمالقة أهل الخبرة، وقد دفعت بلادنا كثيراً نتيجة الاعتماد على أهل الثقة ومطاردة أهل الخبرة، واحتضان الأقزام، وإعلان الحرب على كل موظف تصل قامته إلى قامة الوزير! وقد كانت النتيجة أن أصبح الوزراء أصغر كثيراً من الوزارات، مع أن المفروض أن يكون الوزير أكبر كثيراً من الوزارة التي يتولاها!

وأنصح كل وزير جديد أن يكون شجاعاً بالاعتراف بأخطائه، لا أن يكون جريئاً فيدافع عن الأخطاء والأغلاط ويعتبرها مفاخر يستحق من أجلها الأوسمة وحفلات التكريم!

وأخيراً أنصحه أن يعرف أنه خادم الشعب لا سيده!

إن الذين حاولوا أن يدوسوا الشعب بأقدامهم داستهم الأقدام!

الحرية تلد العبقرية!

في عصر حرية الكلمة ظهر عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسنين هيكل وابراهيم عبد القادر المازني ومصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد أمين ومحمد التابعي وفكري أباظة وتوفيق الحكيم وعبد القادر حمزة وتوفيق دياب وزكي مبارك ومصطفى صادق الرافعي وعشرات من كبار الكتاب..

وفي عصر الكلمة المقيدة لم يظهر كاتب كبير واحد، أشهر الكتاب والصحفيين الموجودين في مصر اليوم ظهروا قبل أن تقيد الأقلام، وعرفت أسماؤهم عندما كانت عقوبة الطعن في جميع ملوك أوروبا وملكاتها هو ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ وهو الحكم الذي صدر ضد الأستاذ التابعي في سنة ١٩٢٧، ويوم كان الحكم على عباس العقاد بتسعة أشهر بعد أن قال أنه سيحطم رأس الملك فؤاد كان يبدو عدواناً خطيراً على الحرية فأضربت مدارسنا ومشينا في مظاهرات تهتف بسقوط القضاة الظلمة!

وكنا في تلك الأيام نعتبر هذه الأحكام البسيطة طغياناً وجبروتاً وآستبداداً وعشنا بعد ذلك حتى رأينا كاتباً يشنق لأنه ألف كتاباً!

فإذا كانت الزهور والورود في حاجة إلى الهواء والشمس لتتفتح وتورد فإذا حرمناها من الشمس والهواء ذبلت وماتت، فكذلك الصحفي لا يمكن أن يكبر في الظلام ولا يمكن أن يبدع في القيود والأغلال.

بل أن الفن نفسه لا يمكن أن يتألف إلاَّ في ظل الحرية، إن أم كلثوم وعبد الوهاب وسيد درويش ظهروا في عصر الحرية، ونجيب الريحاني ويوسف وهبي. . بل إن المطربة فيروز لم تظهر إلاَّ في لبنان وهي حرة بلا قيود ولا أغلال!

ولا أتصور أنه ممكن أن تظهر مطربة كبيرة أو مطرب كبير في أي بلد في العالم إلاَّ إذا كانت له حرية الحركة وحرية التنقل وحرية الرأي. فالهواء الطلق هو الذي يساعد على توالد العبقريات ونموها وقضبان السجون تقتل العبقرية أو على الأقل تحد نموها وتمنع انطلاقها!

إذا فتحنا كل النوافذ في بلادنا فسنرى الابداع والخلق والابتكار في كل ميدان!

أما الظلام فلا يلد إلاَّ الأقزام!

الورثة لا يصنعون الملايين و إنما ينفقون الملايين!

بعض شبابنا يريد أن يبدأ كبيراً. لا يصدق الطبيعة التي تقول أن الإنسان يولد صغيراً ثم يكبر، وكذلك النبات والحيوان!

والذي يريد أن يبدأ بناء ناطحة سحاب من فوق سيجد نفسه على الأرض. أما الذي يبدأ من الأرض ومن تحت الأرض، ففي استطاعته أن يناطح السحاب!

من حقنا أن نحلم أحلاماً كبيرة، بشرط أن نعلم أن الأحلام الكبيرة تتحقق بعدد كبير من الأعمال الصغيرة!

رأيت في حياتي بعض الذين ورثوا الملايين وهم يبددونها، ورأيت أيضاً من بدأوا من الصفر، وأصبحوا أصحاب ملايين!

وأسعد لحظات الإنسان هي أيام البناء، وسنوات الضنى، وعمر العرق وهو يرى جهوده تبنى طابقاً فوق طابق، بعد أن رأى نفسه يضع طوبة فوق طوبة!

ولقد سمعت المرحوم عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي وهو يروي قصة كفاحه وضناه وتعبه وجوعه، وما تحمله في طريقه الطويل من ضربات وطعنات. ولم ييأس مرة واحدة. إذا سقط قام من

جديد. وإذا أفلس بدأ من جديد، وإذا فشل مائة مرة حاول للمرة الواحدة بعد المائة ونجح!

وكان يقول لي إن هذه الأيام الصعبة كانت أجمل سنوات حياته، كان سعيداً وهو يبني أضعاف سعادته عندما أتم البناء. كان فرحاً وهو يضع الريال الأول في جيبه أضعاف فرحه عندما حقق المليون الأول. كان يطير من الفرح عندما أنشأ البنك العربي صغيراً متواضعاً أضعاف فرحه عندما أصبحت فروع البنك كناطحات السحاب!

متعة إلقاء الحب وري الأرض ألذ ألف مرة من لحظات جني المحصول!

ولقد قال لي شاب أنه ينتظر أن يرث والده الغني ليبدأ عملاً كبيراً!

قلت: أعرف من بدأ عملاً كبيراً بنصف ريال! إن رأس المال المطلوب هو العرق والبذل والاستمرار!

الورثة لا يصنعون الملايين.. وإنما ينفقون الملايين!

ديون لم تسدد

أحس بضيق شديد، عندما أشعر أنني مدين لشخص بدين كبير وأنا عاجز عن السداد، كل يوم يمر تتضاعف فوائد الدين..

وفي العادة أن يهرب المدين من الدائن، ولكن الذي حدث لي أن المدينين هم الذين هربوا مني!

وأنا مدين لثلاثة أشخاص، أكتب إليهم فلا يردون. أبعث الرسل للبحث عنهم فلا يجدون لهم مقراً!

واحد منهم فلسطيني من غزة.

وإثنان منهم سوريان!.

وقد قابلتهم لأول مرة في حياتي في سجن ليمان طرة، ولم أكن أعرفهم من قبل، ولا هم يعرفونني. وكان محرماً على المسجونين أن يتصلوا بي أو يتحدثوا إلي، ولكنهم خرقوا القوانين وداسوا على اللوائح، وآستطاعوا أن يتصلوا بي! وكانت التعليمات ألاّ أكتب خطاباً ولا أتلقى خطاباً، وألاّ تدخل لي جريدة ولا كتاب! وآستطاع الثلاثة أن يخترقوا الحصار، فكانوا يهربون خطاباتي إلى الخارج، ويوصلون خطابات أصدقاء من خارج السجن إلى زنزانتي!

وآستمروا سنوات طويلة يقومون بهذا العمل الخطر بغير مقابل. ولم تستطع عيون الرقباء أن تكتشفهم، لقد كانوا مسجونين غير

سياسيين، والرقابة الصارمة تتركز على المسجون السياسي!

وكانت أعصابهم قوية، يحملون رسائلي ومقالاتي، ويخترقون بها صفوف الحراس صفاً وراء صف، بغير أن يبدو عليهم الاضطراب أو القلق أو الخوف! وكنت أنا الذي أحس باضطراب وقلق وخوف عليهم وأنا أطل عليهم من نافذة زنزانتي وأتتبعهم وهم يخترقون صفوف الحراس!

ولم يضبط واحد منهم مرة واحدة! ولكن بعد سنوات عديدة ضبط الحراس المسجون السوري ومعه ورقة فيها خطاب مني، وعندما حاولوا أن يفتشوه أكل الورقة! وضربوه وعذبوه وحبسوه في سجن التأديب يأكل خبزاً حافاً أربعين يوماً ورفض أن يفتح فمه ليعترف عن صاحب الخطاب الذي أكله!

تحية لكل واحد من هؤلاء أينما كانوا!

إنني لا أستطيع أن أنساهم كلما أمسكت قلماً في يدي.

وكتبت في دنيا الحرية!

إذا وجدتهم فابعث لي بعناوينهم!

دعاء في عيد الحب!

يا رب.

اعطني قلباً كبيراً يتسع لكل الناس، الصغير قبل الكبير، الضعيف قبل القوي، المحروم قبل القادر. . .

اعطني ذاكرتين. ذاكرة ضعيفة تنسى الإساءة. وذاكرة قوية تذكر الإحسان. اعطني القدرة على الجزاء ولا تعطني القدرة على العقاب. علمني كيف أعفو ولا تعلمني كيف أنتقم!

اعطني ابتسامة لا تغيب، فالوجه الضاحك يفتح أبواب الدنيا في وجوه الناس، والوجه المتجهم يغلق الأبواب في وجوه الناس.

اعطني لساناً يحمل الكلمة الطيبة. وليكون منديلاً يجفف الدموع. ومرهماً يخفف الجروح، وبلسماً يشفي الآلام!

اعطني قلماً حراً لا يخاف الأقوياء ويخاف الله. ولا يهتز أمام الطغاة بل يتحول إلى سيف أدافع به عن المظلومين. لا تجعله يمشي وراء المواكب، وإنما آجعله يتقدم معارك الحرية. .

اعطني أصدقاء يواجهونني بأخطائي، ولا تعطني أصدقاء يتملقونني ويدافعون عن أغلاطي ويبررون إساءاتي. . نحن في هذه الحياة لا نستطيع أن نمشي وحدنا بغير أصدقاء. إنهم العمود الفقري لظهورنا. والدروع لصدورنا. ورؤوسنا إذا لعبت رؤوسنا. وقناديلنا إذا

انتشر حولنا الظلام. اعطني أصدقاء يصمدون في الشدة ويختفون في الرخاء، يعطونني الحب ولا يعطونني النفاق. لقد علمتني الأيام أن الصديق الحقيقي أكثر فائدة من الرصيد في البنوك.. الرصيد تستطيع أن تنفقه في ليلة واحدة، ولكن الصديق الحقيقي يبقى معك العمر كله!

اعطني القناعة فإن المثل المصري الذي يقول «الطمع يقل ما جمع» هو مثل صحيح أثبتته الأيام. القانعون هم السعداء، والطماعون هم أشقى الأشقياء. الجنيه في جيب القانع يساوي مليوناً من الجنيهات، والمليون جنيه في جيب الطماع لا يزيد عن بضعة قروش! ولهذا فإن أفقر الفقراء هم الطماعون الجشعون!

يا رب املأ قلبي بالإيمان، فالإيمان يقويني فلا أضعف، ويسعدني فلا أشقى ويجعلني أحب الحياة!

هذا دعائي.. الذي سأقوله في عيد الحب.

يوم السبت ٤ نوفمبر!

قلعة وراء الحدود!

أفرح كلما رأيت عربياً يعمل في أوروبا وأمريكا. أشعر أن كل واحد من هؤلاء هو علم نرفعه وراء البحار! يجب أن نهتم به ونتتبع أخباره ونرعاه!

أسمع قصص نجاحهم وكفاحهم وكأنني أسمع أغاني أم كلثوم. عرفتهم أول ما عرفتهم وأنا طالب في الولايات المتحدة منذ أكثر من أربعين عاماً! ورأيت يومها رجلاً فلسطينياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد أصبح يملك أكبر ناطحات السحاب في واشنطن! وبدأ حياته في فلسطين طفلاً يتيماً يجري وراء حمار يركبه السياح. وأعجبت به سائحة أمريكية عجوز وعرضت عليه أن تأخذه معها إلى أمريكا فقبل. وركب الباخرة في الدرجة الثالثة يحلم ببلاد العجائب. وفي أثناء الرحلة ماتت السائحة العجوز، ووصل إلى نيويورك لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد، ولا يعرف كلمة من اللغة الإنجليزية. ومشى في الشوارع على غير هدى، وتوقف أمام عمال بناء يبنون بيتاً وتقدم لمساعدتهم دون أن يطلب أحد منهم المساعدة! وأعجبوا بنشاطه وذكائه وصبره وقوة احتماله فتركوه يعمل معهم وشاركهم طعامهم، وجاء الليل فنام على الأرض في برد الشتاء القارص في نيويورك. وقبل كل عمل عهدوا إليه به! كان يحمل الأحجار على ظهره، وكان يبني، وكان يحرس الطوب، ولم يكن يبني بيتاً فقط، كان بهذا الكفاح يبني شاباً ناجحاً، وأصبح رئيس عمال.. ثم انتقل إلى واشنطن ونافس المقاولين الأمريكيين وأصبح بعد سنوات كفاح مريرة

أكبر مقاول عمارات في واشنطن. كل ذلك وهو لا يقرأ ولا يكتب أو كما قال مرة لي أنه اكتشف أن الوقت الذي يلزمه لتعلم القراءة والكتابة يستطيع أن يبني فيه ثلاث عمارات! واليوم إذا أراد أن يوقع شيكاً كتب خطين فوق بعضهما بدلاً من الإمضاء! وبهذين الخطين المتشابكين يسحب من البنوك الملايين!

ولم ينس وطنه. تزوج فتاة فلسطينية. وعندما أغتنى بنى لأمه طابقاً في إحدى عماراته على الطريقة العربية بما فيها من مشربيات وطراز عربي في الحمامات، وذهب إلى فلسطين وأحضرها إلى هناك لتقيم في واشنطن وكأنها ما زالت في فلسطين!

وفي كل مشروع عربي يتقدم «هوي» مسرعاً للمساعدة فيه، سعيداً بأن يمد يده للذين يريدون أن يبدأوا من أول السلم!

وقد غير اسمه من هوي إلى هوارد.. ولكن قلبه لم يتغير أبداً!

كل واحد لنا من أمثال هذا الرجل هو قلعة لنا وراء الحدود!

الإنسانية.. والمسجون السياسي!

لا يوجد في بلد ديموقراطي حقيقة مسجون سياسي..

ولكن في بلاد عربية عديدة كثيراً من المسجونين السياسيين.

فإذا لم نستطع أن نلغي في الوقت الحاضر «المسجون السياسي» فلا أقل من أن نضع نظاماً لمعاملة مسجوني الرأي في البلاد العربية، فلا نضعهم في سجن واحد مع القتلة وقطاع الطرق واللصوص والنصابين والأفاقين!

وأول ما يجب أن نفعله للمسجون السياسي أن نسمح له بأن يلتقي بأسرته مرة كل يوم أو أربع مرات في الأسبوع، فقد قرأنا أن السلطات في أمريكا سمحت للقاتل جيمس إيرل راي أن يلتقي بزوجته ٤ مرات في الأسبوع.

هل تعلم أنه حدث في بعض الدول العربية أن حرم ألوف المسجونين السياسيين من رؤية أهلهم لمدة ثلاث سنوات، وحرموا من كتابة خطابات لزوجاتهم وأمهاتهم وأولادهم ثلاث سنوات!

إننا يجب أن نسمح للمسجون السياسي بالقلم وبالورق وبالجريدة وبالكتاب ولا نعتبر هذه من الممنوعات مثل الحشيش والأفيون!

ويجب أن نعامل المسجون السياسي بأنه سجين رأي. وقد أصبح

كثيرون من المسجونين السياسيين في العالم رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات!

ولكن الذين يضعون أنظمة السجون في بلادنا يجهلون أن أكبر عقاب للمسجون السياسي هو أن يحرم من حريته، ويحرم من إبداء رأيه، ويحرم من حقه في أن يقول بصوت عال لا!

هذه العقوبات تؤلم المسجون السياسي أكثر من ضرب السياط. فيكفي أن نعذبه كل هذا العذاب، ولا نضيف فوقه تعذيب أمه وزوجته وأولاده!

يكفي أن نعلم أن كثيراً من البيوت خربت، وكثيراً من الزيجات تهدمت بسبب وجود المسجون السياسي سنوات طويلة داخل السجن..

صحيح أن هناك بطلات صمدن وانتظرن وقاومن وضحين، وعشن في زنزانات خارج السجون في انتظار أحبائهن وأزواجهن داخل السجون ولكن عذابهن لا يحتمله كل البشر!

لماذا لا ندخل الإنسانية إلى السجون السياسية؟

ذل السيجارة

أقلعت عن التدخين ألف مرة، وعدت إليه ألف مرة ومرة!

وكنت أدخن مائة وعشرين سيجارة في اليوم، ولم أكن أستعمل عود الكبريت إلّا مرة أو مرتين في اليوم! وذات ليلة في شهر ديسمبر كانت الأمطار تسقط بغزارة في القاهرة وأصوات الرعد والبرق تهز فراشي، واستيقظت لأدخن سيجارة وفوجئت أن البيت ليس فيه سيجارة واحدة! وكانت الساعة الرابعة صباحاً فقمت من فراشي وارتديت ملابسي ووضعت حول عنقي كوفية من الصوف، وغطيت نفسي بمعطف ثقيل، ونزلت إلى الشارع أبحث عن دكان سجائر أشتري منه سجائر أو فاعل خير يمشي في الشارع أشحذ منه سيجارة، ووجدت كل الدكاكين مغلقة، ولم أجد أحداً في الشارع يدخن سيجارة وركبت سيارتي ومضيت أبحث عن محل سجائر مفتوح، وبعد نصف ساعة وجدت محلاً في ميدان التحرير اشتريت منه علبة سجائر!

وعدت إلى بيتي وفي فمي سيجارة وكنت أسعد رجل في العالم ولكن عدت ومعي برد شديد أبقاني في الفراش سبعة أيام!

إلى أن دخلت السجن، وفي السجن كانوا يضايقونني بالتحكم في عدد سجائري. مرة يسمحون لي بعشر سجائر في اليوم، وفي اليوم التالي يجعلونها سيجارة واحدة، ثم خمس سجائر ثم لا سجائر!

وشعرت بإذلال عجيب لم أعرف مثله طول حياتي. وأمسكت

سيجارة ودستها بقدمي ولم أدخن سيجارة واحدة بعد ذلك، ولم يكن الأمر سهلاً! كان يجب أن أجد شيئاً تلعب به أصابعي بدل السيجارة مثل وردة أو سلسلة مفاتيح!

ومضت سنوات طويلة لم أدخن حتى الآن سيجارة واحدة. ولكني أجد متعة في أن أرى الناس يدخنون. لا أتضايق من رائحة الدخان على العكس إنني أستنشقها من بعيد بلذة وكأنني أدخن! وكثيراً ما جلست أتناقش مع صديق لي، وتحتدم المناقشة، فأجد نفسي أقول له «ولع سيجارة» ويشعل سيجارته فأحس كأنها في فمي!

وقد استفدت من الإقلاع عن التدخين أنني كسبت ساعتين كل يوم، فقد اكتشفت أن المدخن يسرح دقيقة وهو يدخن، ويتابع دوائر الدخان، ولما كنت أدخن ١٢٠ سيجارة يومياً فقد وفرت كل يوم ١٢٠ دقيقة أمضيها في عمل جديد أو في قراءة جديدة!

وكنت في كل صباح أزار وأنا أسعل، كما كان يفعل سبع مترو جولدين ماير في مقدمة الأفلام، كنت أشعر أنني عبد للسيجارة، وعندما امتنعت عن التدخين أحسست أنني أصبحت حراً.

ما ألذ طعم الحرية!

وأصبحت أشعر أنني أصغر بـاثنتي عشرة سنة! أي عن كل عشر سجائر سنة!؟

ليس هذا قوة إرادة.

وإنما هو حب الحياة!

الصول يدير أخبار اليوم!!

في مثل الشهر القادم - نوفمبر أي تشرين الثاني - من ٣٤ سنة أصدرت أنا وعلي أمين العدد الأول من جريدة «أخبار اليوم»!

ويومها كان كل ما يهمنا أن نصدر عدداً واحداً نقول فيه كل ما منعت الرقابة العسكرية البريطانية نشره في مدة الحرب، ولم يكن يهمنا أن يصدر العدد الثاني أو لا يصدر!

ولهذا السبب طبعنا كل ما اشتريناه من ورق الطباعة ليكفينا لمدة شهر كامل في عدد واحد!

وما كاد يصدر العدد الأول ويباع كله، ونكتشف إننا أصبحنا أوسع جريدة في الشرق الأوسط حتى أغمي علينا، فقد اكتشفنا أن ليس لدينا فرخ واحد ورق لنطبع العدد الثاني!

وبدأنا نشتري الورق من السوق السوداء، عشنا في أزمات لا تنتهي وفي صراع لا يتوقف، نسقط على الأرض ثم نقف، لا نكاد ننتزع سهماً من صدورنا حتى تمتلىء صدورنا بسهام جديدة! الصحافة مهنة لذيذة شائقة ولكنها مهنة متعبة قاسية. تعطيك بقدر ما تعطيها! إذا أعطيتها شبابك أعطتك جريدة شابة! وإذا منحتها قلبك كافأتك بصحيفة مليئة بالحرارة. ولكنها لا تشبع أبداً. كلما قدمت لها طلبت المزيد، وهي تحول العرق إلى حبر، والأنفاس إلى كلمات، والأعصاب المحترقة إلى أعمدة.

ولا أنسى يوماً بعد تأميم الصحافة، عندما عينت الدولة أحد ضباط الثورة رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم»، ومنحته كل اختصاصات أعضاء مجلس الإدارة، وطردت مجلس الإدارة القديم وفيه محمد التابعي وجلال الحمامصي ومحمد زكي عبد القادر وأحمد بهاء الدين وعلي أمين ومصطفى أمين!

وإذا بالضابط الكبير يشعر أن دار «أخبار اليوم» لا تساوي أن يتفرغ لها بجانب أعماله الهامة في الدولة فيجيء بصاغ ضابط شاب ويعطيه كل سلطات الإدارة والتحرير!

ويشعر الضابط الصغير أن مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبرى، تصدر جريدة يومية وجريدة أسبوعية ومجلتين أسبوعيتين ومجلة شهرية، كل هذا لا يساوي أن يتفرغ له فيعين مكانه الصول أحمد زكي ليدير صحف المؤسسة! وكان رؤساء التحرير يتقدمون إلى حضرة الصول (وهو أعلى رتبة من الباشجاويش) بمقالاتهم ليحذف منها ويعدل كما يشاء في عناوينها، ويقرر نشرها أو عدم نشرها!

مسكينة الصحافة!

ما أعظمها وهي حرة.. وما أشقاها وهي في القيود!

نحن الذين نصنع الحظ!

دق الحظ على بابه فلم يسمعه!

كان مشغولاً بشتم الدنيا وسب الناس ولعن الزمان، فضاع صوت طرقات الحظ في هذه الضوضاء!

وانصرف الحظ، وجاء النحس يدق الباب، وسمع موسيقى فأطال البقاء! كان صاحب البيت يشتم ويسب ويلعن.. وهذه هي الموسيقى التي يطرب لها النحس ويرقص على أنغامها!

ودخل النحس، وكلما أراد أن يغادر البيت ارتفعت صيحات صاحب البيت يلعن الزمن، فيعود النحس ويجلس.. وهكذا استقر النحس ولم يغادر بيت صاحبي أبداً!

فالحظ هو ضيف يمر ببيوت الناس، إذا وجد السواد تشاءم، وإذا سمع عبارات السخط انقبض، وإذا رأى وجهاً متجهماً طفش منه، ووجوه الناس كالبيوت، وجوه مشرقة وكأنها أبواب مفتوحة، ووجوه مكفهرة وكأنها زنزانة سجن، فلا تلم الحظ إذا رفض أن يقترب من الوجه المغلق الكئيب، وأقبل على الوجه الباسم الضاحك المتفائل!

إنك تلاحظ في هذه الحياة شيئاً غريباً، الذين يشكون لا يزورهم الحظ والقانعون الراضون يزورهم الحظ عدة مرات، يضاعف نجاحهم، ويزيد ثرواتهم، ويبارك في أعمالهم!

وتجربتي في حياتي أن الطمع شيء غير الطموح! فالذي يطمع في مالك لن يصل إليك، لأنه يكتفي بأن يحسدك ويلعنك ويتمنى لك كل المصائب والنكبات ولكن الذي يطمح للوصول إلى مثل مكانتك، هو إنسان سوف يعمل ويكافح ويعرق لكي يصل إلى ما وصلت إليه. وهو لا يريد أن تنزل عليك صاعقة تسحقك ليصبح أطول منك! بل هو يريد أن يصعد السلم بكفايته وجده لتصل قامته إلى قامتك!

إنني أعرف ألوف الناجحين. لم أر واحداً منهم ساخطاً! فالسخط صفة الفاشلين! والذين يكرهون الدنيا تكرههم الدنيا، ويبدو أنها تسمع أصواتنا، فلهذا فهي تدير ظهرها لمن يلعنها، وتفتح ذراعيها لمن يحبها ويحب كل الناس فيها!

حب الناس هو الذي يفتح الأبواب للحظ، ويغلق الأبواب للفشل والنحس!

نحن الذين نصنع الحظ ونصنع النحس!

إنه صورتنا في المرآة!

سوف تشرق الشمس!

لا يكفي لضمان حرية الصحافة أن نسميها السلطة الرابعة فقط! كما أنه لا يكفي أن نضع على باب سجن ليمان طرة لافتة مكتوباً عليها «الجامعة المصرية» فيصدق الناس أن السجن تحول إلى جامعة، على الرغم مما فيه من زنازين وقيود وأغلال وحراس ومسجونين!

لا يمكن أن تكون الصحف حرة وهي مملوكة للحكومة، ولا وهي مملوكة للحزب الذي تتكون منه الحكومة. ولا يمكن أن يكون الصحفيون أحراراً، والحكومات تعينهم بقرارات وتفصلهم بقرارات!

معنى حرية الصحافة أن يكون من حق أي مواطن أن يصدر صحيفة حتى ولو كان عدد قرائها قارئاً واحداً! معناها أن الشعب هو الذي يختار كتابه، يرفعهم إذا أقبل على قراءتهم، ويهوي بهم إذا انصرف عنهم. لا أن تفرضهم عليه الحكومات ثم تحبسهم وتضربهم أو تضعهم في «خانة اليك» كما يحدث في لعبة الطاولة عادة . . والمحبوسة!

معنى حرية الصحافة أن تكون لسان الأمة لا لسان الحكومة. أن تقول للحاكم ما يريده الشعب، لا أن تكتفي بأن تقول للشعب ما يريده، الحاكم. معناها أن تسلط الأنوار على الحقائق لا أن تخفيها بستار من الأكاذيب. معناها ألا تخاف إلا الله، ولا ترهب أصحاب النفوذ والسلطان. معناها أن يشعر الكاتب أنه مسؤول أمام ضميره، وليس مسؤولاً أمام الحكام!

معنى حرية الصحافة ألا تملك الحكومات الصحف، وإنما يملكها الشعب في شركات مساهمة يساهم فيها عمالها ومحرروها وقراؤها. ولا يمكن أن تكون حرة وهي تابعة للدولة. لقد جربت دول كبيرة أن تملك الصحف ففقدت الرأي العام، فإن هذا الانفصال الشبكي بين الشعب وحكامه في الدول الديكتاتورية سببه الأصلي أن الشعوب المقيدة لا تصدق صحف الحكومة، وترتاب في كل كلمة، وتشك في كل رأي، وتعتقد أن مهمة الصحف المملوكة للحكومة أن تحرق البخور بين أيدي الحكام، وتهلل لهم إذا أخطأوا، وتطبل لهم إذا عاثوا في الأرض فساداً!

الصحف الحرة هي فوانيس النور فى شوارع الحكم. والصحف المقيدة هي الطبول والزمور في مواكب الطغاة والظالمين!

سوف تشرق الشمس على الشعوب العربية، يوم تفتح النوافذ والأبواب وتدخل منها أشعة الحرية!

قراءة الكف

أنا لا أؤمن بقراءة الكف، ولا بأن في استطاعة بشر أن يتنبأ بالمستقبل. ولا يعرف الغد إلاّ الله...

ولكن أذكر أنه ذات مرة أمر الرئيس عبد الناصر بإبعادي عن دار «أخبار اليوم»، وأمر بأن أبقى في بيتي ستة أشهر، ثم أمر بتعييني عضواً في مجلس إدارة دار «الهلال» ورئيساً لتحرير مجلة «المصور».

وما كدت أستقر في منصبي الجديد حتى استدعاني إلى بيته وأخبرني بأنه قرر تعييني رئيساً لمجلس إدارة «اخبار اليوم»، ولكن بشرط ألا يعرف إنسان بقراره، حتى يخبر أولاً كمال رفعت رئيس مجلس إدارة «أخبار اليوم» في ذلك الوقت. وسألته هل أخفي الخبر عن أخي علي أمين فقال: ولا... علي أمين!

وعدت إلى بيتي ولم أستطع أن أخفي الخبر عن أخي، وبقينا نتحدث ثم قررنا أن نذهب إلى مأتم والد صديقي الفنان كمال الطويل، وجلسنا في مقعدين متطرفين في أول السرادق بعيداً عن كبار المعزين.. وإذا بقارىء الكف المعروف محمد جعفر يجيء ويجلس إلى جانبي ويهمس في أذني قائلاً أنه لم يقرأ كفي منذ سنوات، وأنه يريد أن يقرأ كفي الآن! قلت له غير معقول أن تقرأ كفي في سرادق العزاء. قال: إنني أحمل جريدة المساء سأضعها أمام يدك وأقرأ كفك. ومددت يدي فإذا به يقول: غريبة! إنك ستعود إلى «أخبار اليوم»! وتمكنت في

ملامحي لأخفي ذهولي، والتفت إلى أخي وقلت له ساخراً: هذا العبيط يقول أنني سأعود «لأخبار اليوم» مع أن معلوماتي أنني لن أعود إليها أبداً. وتظاهر أخي بالسخرية من قارىء الكف، وإذا به يقول: أنا واثق أنك ستعود. مكتوب في كفك أن قرار عودتك إلى «أخبار اليوم» حدث اليوم!

وبعد شهرين صدر قرار الرئيس عبد الناصر بعودتي إلى «أخبار اليوم». وبعد يومين فوجئت بمحمد جعفر يقول في التلفزيون لأنيس منصور أنه قرأ كفي، وأنه أخبرني أنني سأعين رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم» قبل صدور القرار بشهرين!

وبعد دقائق دق جرس التليفون في مكتبي وإذا بالرئيس عبد الناصر يقول لي: هل اخبرت أحداً أنني سأعينك رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم» قبل أن يصدر القرار؟ قلت: أبداً! قال الرئيس: هل سمعت ما قاله محمد جعفر في التلفزيون؟ قلت: نعم! قال هل هذا صحيح؟ قلت نعم هذا هو ما قاله لي في مأتم والد كمال الطويل!

وسألني الرئيس عن عنوان قارىء الكف محمد جعفر ورقم تليفونه.

وعلمت أن الرئيس استدعاه لمقابلته..

ولكن لم أعرف ماذا قال محمد جعفر للرئيس!

لا الرئيس عبد الناصر أخبرني.

ولا قارىء الكف محمد جعفر.

ولا أنا جرؤت أن أسأل!

ترى ماذا قال له؟

كل سنة وانت تحبنا ونحن نحبك!

اليوم عيد الحب في مصر..

هل يجيء يوم قريب نحتفل فيه بعيد الحب في كل بلد عربي، كما احتفلنا بعيد الأم؟

أعتقد أن هذا اليوم لا بد أن يجيء. لا تستطيع الحدود ولا الحواجز ولا الخلافات السياسية أن تفرق بين ما وحده الله!

كل واحد منا له صديق أو حبيب أو أخ أو زميل في كل بلد عربي! درسنا معاً، أو كافحنا معاً، أو ضحكنا معاً، كل أسرة في كل بلد عربي لها في جميع البلاد العربية فروع، أو أشخاص يحملون نفس الأسماء! وكثيراً ما ألتقي بفلسطينيين وأتصور أنهم مصريون. أو ألتقي بسودانيين وأعتقد أنهم سعوديون. بل الأغرب من ذلك أنني رأيت ذات مرة في مدينة الموصل فلاحاً يشبه الأستاذ عباس محمود العقاد شبهاً غريباً. صوته وقامته ومشيته.. الفرق الوحيد أنه كان يجهل القراءة والكتابة! ورأيت مرة عندما زرت البحرين في عام ١٩٥٣ سيدة هي صورة طبق الأصل من أم كلثوم. عيناها. شفتاها. قامتها. طريقتها في لفتة رأسها.. واقتربت منها وأنا أتصور أن أم كلثوم سافرت إلى البحرين دون أن تعرف الصحف. وعندما أصبحت بحذائها وجدتها أطول قامة من أم كلثوم قليلاً، وحاولت أن أسمع صوت السيدة البحرينية ووجهت

إليها سؤالاً فأدارات ظهرها ولم ترد. إنك ستجد شبيهاً لك في كل بلد عربي. وسوف تجد أكثر من مواطن يحمل اسمك. ولا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. فلا بد أن هذا الشعب كان شعباً واحداً بأسماء مختلفة!

ولهذا أتمنى أن يجيء عيد الحب في العام القادم، ويعود الحب إلى قلوبنا، ونعلم أن من حقنا أن نختلف ولكن ليس من حقنا أن ننقسم. من حقنا أن نتناقش وليس من حقنا أن نتبادل التهم والسباب. لقد اختلفنا قبل الآن عشرات المرات، وكان خلافنا دائماً هو خلاف حكومات، لم يصعد أبداً مرة واحدة ليكون خلافاً بين الشعوب!

وسوف نمضي نحب بعضنا، ونعرف أن الرابطة التي تجمعنا ليست رابطة سياسية ولا هي رابطة اقتصادية ولا هي رابطة مصلحة مادية، وإنما هي أخوة، وهي دم واحد، ولسان واحد، وقلب واحد!

كل سنة وأنت طيب!

كل سنة وأنت تحبنا.. ونحن نحبك!

أيها المظلوم لا تخف!

أيها المظلوم.. لا تخف!

أنا أعرف أنك ضعيف هزيل، وظالمك عملاق جبار! وأعرف أنك مسحوق مطحون، وظالمك قادر أن يدوسك بقدميه. ولكنني أعرف أيضاً أنه إذا كان اليوم للظالم، فإن غداً للمظلوم!

لم يحدث في التاريخ كله أن استمر ظلم إلى الأبد، الشيء الخالد هو الحق، والشيء الزائل هو الباطل. وصدق من قال أن الظلم ساعة، والعدل إلى قيام الساعة!

كل ما هو مطلوب منك أن تثبت في مكانك، الثبات لا يقل شجاعة عن الإقدام، وعندما يصمد المظلوم أمام الظالم، يتراجع الظالم وينكمش، ويتقهقر إلى الوراء، أما إذا تراجع المظلوم وتضاءل وتهاون أمام الظالم، فإنه يشجع الطاغية أن يمعن في ظلمه، ويضاعف طغيانه واستبداده..

إذا كان الحق معك فالله معك. والله أكبر من كل قوى البغي والعدوان، وإذا رأيت الباطل ينتفخ ويكبر ويتضخم، فلا تنزعج. فإن شكة دبوس واحدة ممكن أن تحول عملاقاً من الضلال إلى هباء!

كم من طغاة صغار تصوروا أن الدنيا دانت لهم، وجدوا في الظلم متعة، وفي الجبروت لذة، وفي استبعاد الناس نشوة. واستيقظوا ذات

صباح فوجدوا أنفسهم تحت أقدام الذين أذلوهم وظلموهم واستبدوا بهم!

من غباء الظالم أن يتصور أنه قوي، ويتجاهل أن الله أقوى، ويتوهم أنه خالد، وينسى أن الله وحده هو الباقي، ويعتقد أنه قادر وحده أن يغني ويفقر ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، ويسعد ويشقي، غافلاً عن أن هذه صفات الله وليست صفات البشر!

أذكر أن موظفاً صغيراً جاء لي مرة وهو يقول أنه كاد يكفر بكل القيم والمبادىء! مدير الشركة يسرق ويترقى، وهو يحافظ على أموالها ويخصم من مرتبه، مدير الشركة يبدد أموالها فيتلقى خطابات ثناء من مجلس الإدارة، وهو يضاعف أرباح الشركة ويتلقى خطابات التوبيخ واللوم والإنذار والوعيد! مدير الشركة مسنود من الوزير. لا يقبل فيه شكوى، ويرفض أن يسمع أي كلمة نقد صغيرة من قريب أو بعيد!

قلت له: لا تكفر! المطلوب منك أن تزداد إيماناً!

سألني: هل أتراجع عن مبادئي؟

قلت: بل تمسك بها!

قال: أولادي في رقبتك.

قلت: أي ظلم لا يمكن أن يدوم!

وبعد ثلاث سنوات قابلته. وسألته: أين مدير الشركة!؟ قال: في السجن!!

البعض منا لا يريد أن يصبر ويثبت ثلاث دقائق!

الله مع المؤمنين الصابرين!

إعادة كتابة التاريخ

أتمنى أن نعيد كتابة تاريخنا على أساس جديد، وهو أن التاريخ هو تاريخ هذه الشعوب لا تاريخ الذين حكموها. إن الذين يكتبون التاريخ اعتادوا أن ينسبوا كل المفاخر إلى بضعة رجال، وأن ينسبوا كل المساوىء إلى عشرات الملايين. وهذا غير حقيقي. قد لا يكون كل الشعب أبطالاً، ولكن المؤكد أن البطل هو الشعب.. نعم إن ثلاثين فارساً بقيادة عبد العزيز بن سعود حرروا الجزيرة العربية. ولكنهم كانوا في الواقع طليعة الشعب السعودي كله. هم رأس الحربة التي تبعها الشعب كله. وإذا لم يكن الشعب السعودي في تلك الأيام في مستوى هذه البطولة لما استطاع عبد العزيز بن سعود أن يصنع كل هذه الأمجاد.

فالشعوب هي التي تصنع الأبطال، وليس صحيحاً أن الأبطال هم الذين يخلقون الشعوب. كان سعد زغلول يقول أنه كان يستمد كل قوته من الشعب، فإذا هب الشعب واقفاً على قدميه أحس أنه أقوى ألف مرة مما هو، وإذا تخاذل الشعب وضعف وتهاوى أحس أنه أضعف ألف مرة مما هو..

وفي أحيان كثيرة ننسى أن لبنان الصغير صمد للأمبراطورية الفرنسية وهزمها، وأن سوريا لم تحن رأسها عندما انهالت عليها قنابل الجيش الفرنسي، وأن مصر والعراق والسودان وفلسطين قادت حركات وطنية مشهورة ضد الاحتلال البريطاني!

ننسى أنه لم يحدث في أي منطقة من العالم أن وقع فيها ثورات بهذا العدد الضخم الذي حدث في بلادنا. ثورة المهدي في السودان، وثورة سعد زغلول في مصر، وثورة سلطان الأطرش في جبل الدروز، وثورة الأمير عبد الكريم في مراكش، وثورة عرابي وثورة ٢٣ يوليو وثورة ١٥ مايو في مصر، وثورة المليون شهيد في الجزائر، وثورة عمر المختار في ليبيا، وثورة الحبيب بورقيبة في تونس وثورة رشيد عالي الكيلاني وثورة ١٤ يوليو في العراق وعشرات غيرها من الثورات. الذين قاموا بهذه الثورات لا يمكن أن يكونوا عبيداً، ولا يقبلون أن يكونوا عبيداً، السلاسل لا تقيدهم. المشانق لا تؤدبهم. قطع الرؤوس لا يخيفهم. ولهذا فهم أحق الشعوب بالحرية، كل المحاولات التي بذلت على مدى التاريخ لإذلالهم لم تنجح في تنكيس رؤوسهم، ولا في إحناء ظهورهم، ولا في تكميم أفواههم.

هذه الشعوب تستحق دراسة خاصة، فقد ضربت أمثلة في الصمود والتضحية والفداء، وقاومت قوى جبارة، وأمبراطوريات ضخمة، وطغاة جبابرة، وما تراجعت إلا لتهاجم، وما استكانت إلا لتنقض، وما صمتت إلا لتزأر من جديد!

شعب كهذا لا يمكن أن يموت!

المساحيق لا تصنع الجمال!

تخطىء المرأة إذا اعتقدت أن المساحيق التي تضعها بكثرة إنما تزيدها جمالاً.. إنها تجعلها جميلة من بعيد، فإذا اقتربنا منها أصبحت تشبه البهلوان.

أجمل امرأة في الدنيا هي المرأة الطبيعية، أمقت المرأة المتصنعة التي تتكلف في حديثها وتبالغ في زينتها وتتصور أن الدنيا مسرح وأنه يجب أن تقوم بدور «البريمادونا» فوق الخشبة وقد تسلطت عليها الأضواء.

المرأة عندما تغسل وجهها تصبح أكثر فتنة منها وقد ملأت وجهها بالمساحيق حتى تصبح أشبه بقوس قزح.. وقد عرفت صفية زغلول أم المصريين وكانت قد وصلت إلى السبعين من عمرها ودهشت وأنا أتطلع إلى بشرتها فوجدتها تشبه بشرة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها.

وقالت أنها لم تضع بودرة أو مساحيق على وجهها طوال حياتها! خطبها سعد زغلول وعمرها سبعة عشر عاماً.

وجاءت أمها وقالت لها إن العريس مستشار في محكمة الاستئناف ويشترط ألا تضع العروس أية مساحيق على وجهها.. وخضعت صفية زغلول لأمر زوجها ولم تضع طلاء على وجهها حتى يوم زفافها.

واستمرت صفية زغلول طوال حياتها تنفذ الأمر بغير مناقشة ولم

تحاول مرة واحدة أن تقنع سعد بالعدول عن رأيه.

وكانت لصفية أختان وهما زكية وفهيمة.. وكانتا تضعان المساحيق فوق وجهيهما.. وبدت صفية أصغر منها أكثر من عشرين سنة.. مع أن الواقع أنها كانت أصغر من فهيمة بعامين.

ومن العجيب أن رأي أطباء التجميل أن الطلاء هو الذي يفسد بشرة المرأة ويزيد التجاعيد فيها.. ولكن شركات بيع مساحيق التجميل أعلى صوتاً من صوت الأطباء.

لم أعرف مستبداً عادلاً!

قال لي إن الديمقراطية لا تنفع في البلاد العربية.. نحن في حاجة إلى المستبد العادل.

قلت: لم أعرف مستبداً عادلاً، وعادلاً مستبداً.. حيث يكون الاستبداد يكون الظلم، وتداس العدالة بالأقدام..

قال: إننا شعوب غير متعلمة.

قلت: لقد بدأت الديمقراطية في إنجلترا عندما كان التعليم فيها أقل من التعليم في البلاد العربية الآن.

قال: للديمقراطية أخطاء..

قلت: وللديكتاتورية جرائم..

قال: لا نريد أن نقلد الغرب.

قلت: لا تقلدوا الغرب. إنما قلدوا الإسلام، فالإسلام يحض على الشورى، هل كان في أيام الخلفاء الراشدين معتقلات.. ومحاكم.. إستثنائية.. ورقابة صحفية.. كان البدوي يعارض ويناقش عمر بن الخطاب فلا يقطع لسانه، ولا يمنع من الكلام ولا يعلق على مشنقة..

قال: لماذا نتعجل الديمقراطية.

قلت: نحن الان في سنة ١٣٩٨ من الهجرة فكيف يكون عندنا شورى منذ ١٤٠٠ سنة تقريباً ولا يكون عندنا شورى الآن؟؟ هل تعلم مثلاً إن مصر كان فيها مجلس نواب يسقط الوزراء سنة ١٨٨١ قبل الاحتلال البريطاني بعام واحد، وأن الاحتلال هو الذي ألغى الديمقراطية في مصر التي كانت موجودة فيها قبل كثير من بلاد أوروبا..

أغرب ما حدث لنا إننا عندما كنا نصرخ بأعلى أصواتنا نطالب بالحرية، كان المقصود من مطالبتنا بالحرية هو حرية الحاكم أن يفعل كما يشاء، ويتصرف كما يريد، وليست حرية الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه..

أغرب ما حدث في أغلب دول العالم الثالث أنها ما كادت تستقل حتى ألغت حرية الأحزاب، وألغت حرية الصحافة، وألغت حقوق الإنسان.. كأننا كنا نرفض الظلم على يد الأجنبي ونقبله على يد الوطني..

إن الكرباج هو الكرباج سواء في يد أجنبي أو في يد وطني.

قال: لماذا أنت متحمس للحرية؟؟

قلت: لأنني ذقت طعم سياط الاستبداد..

كامل الشناوي

لو عاش الشاعر كامل الشناوي في عهد آلة التسجيل لكان من أصحاب الملايين! وكنت أقول له لو انه سجل كل كلمة يقولها خلال الأربع والعشرين ساعة لاستطاع أن يؤلف كتاباً ممتعاً مرة كل أسبوع.

كان كامل يحب أن يتكلم ويكره أن يكتب. إذا حضر مجلساً ملأه مرحاً وضحكاً، وإذا انفرد بنفسه بكى! فقد كان يحب الناس ولا يحب نفسه. يعشق أن يتطلع في وجوه الناس ويمقت أن ينظر إلى وجهه في المرآة، كان بديناً جداً، ولم يكن جميلاً، ولكنك تنسى بدانته لخفة ظله، ويخفي روحه الجميل عن الناس عدم جمال وجهه!

كان خطيباً ممتازاً ولكنه يخشى مواجهة الجماهير. وكان شاعراً رائعاً ولكنه لم يتم سوى ديوان واحد! وكان عضواً في مجلس النواب لمدة خمس سنوات ولم يسمعه النواب يتكلم سوى مرة واحدة فقد كان خجولاً، وكان لا يثق في قدرته على إقناع الجماهير، مع أنه كان من أقوى الرجال الذين عرفتهم فصاحة وبلاغة وفخامة أسلوب!

وكان بطيئاً في الكتابة. كنت أقفل عليه باب مكتبه عدة ساعات ثم أفتح الباب فأجده كتب ثلاثة أو أربعة أسطر! فهو ينحت الكلمات. لا يكتب حتى يشطب ما كتب، ويمزق الورقة ويبدأ الكتابة من جديد. يتردد في كل كلمة. ويتوقف أمام كل معنى. ويختار الجملة كأنه تاجر مجوهرات يختار فصوص الماس والياقوت!

وكان ينام النهار ويسهر الليل. يمقت أن ينام في فراشه كسائر الناس. هوايته أن ينام في سيارة تطوف به أنحاء المدينة عدة ساعات، وعندئذ فقط ينام نوماً عميقاً ولا يستيقظ إلا عندما تقف السيارة!

ولم يتزوج أبداً، ولا فكر في الزواج، ولكن ما من ملكة جمال إلا وأحبها، وما من نجمة سينمائية إلا وعشقها، وما من فاتنة إلا ونظم فيها قصيدة غزل! ولكنه لا يستطيع أن يحب امرأة واحدة أكثر من شهر، فهو يغير ويبدل وكأنه يختار الكلمات والمعاني في مقال يكتبه أو قصيدة ينظمها! عندما كان شاباً صغيراً أحب مجالس الرجال الكبار، وعندما أصبح رجلاً كبيراً عشق مجالس الشبان الصغار! . . عندما كان فقيراً معدماً كانت هوايته معرفة أصحاب الملايين، وعندما أصبح يتقاضى مرتباً ضخماً من الصحافة أصبحت هوايته مصاحبة الفقراء والبؤساء والمعدمين!

وكان قبل كل هذا إنساناً!

كيف تسقط الطاغية الصغير!

ذهب وزير الداخلية في إحدى الدول الديكتاتورية لمقابلة رئيس الدولة الحاكم الفرد. .

وقال الديكتاتور: إنني تلقيت مئات الشكاوى من المواطنين يلعنونك ويهاجمونك ويطالبون بإقالتك!

وفزع وزير الداخلية وقال: إنها شكاوى كيدية. . إنني أحسن معاملة الناس وأعدل بينهم!

قال له الديكتاتور: لا تفزع. . ما دام الناس يشكون منك فإنك باق مستقر في منصبك، أما إذا أجمع الناس على مديحك فسوف أطردك من هذا المنصب!

وهذه القصة ليست نكتة. إنها حادثة حقيقية رواها وزير الداخلية نفسه. ذلك الحاكم الفرد يفضل المرؤوسين المكروهين على المرؤوسين المحبوبين للناس. فهو يخشى إذا أحب الناس أحد معاونيه أن يضعوه مكانه أو أن يهدد مركزه، أو يصبح قوة خطرة عليه. الضعفاء هم الأعوان الطبيعيون للطاغية والمكروهون هم الحلفاء المطلوبون الذين لا خطر منهم على صاحب السلطان والجبروت!

ولذلك كان كل مواطن سوفييتي يكره ويمقت بيريا سفاح الاتحاد السوفييتي ووزير داخليته، والرجل الذي كان يحكم بإعدام الأبرياء

بنفس السهولة التي يشعل بها سيجارة!

وكانت هذه الكراهية تقربه من ستالين، وتجعله أكثر الزعماء حظوة لديه!

وفي كل تقرير من هذه التقارير يضاعف من قوة بيريا لدى الطاغية ويزيده نفوذاً وسلطاناً!

إذا سمعت عن وزير طاغية لدى ديكتاتور فحذار أن تهاجمه لدى الديكتاتور أو أن تشتمه.. أكتب خطاباً إلى الديكتاتور تغزل في وزيره السيء وامدحه واثن عليه..

وبذلك تكون أعددت له حبل المشنقة!

حقوق الإنسان العربي

هل يجيء يوم نضع فيه ميثاقاً لحقوق الإنسان العربي. يضمن لكل إنسان عربي حقه في الحرية، وحقه في الديموقراطية، وحقه في العدالة!؟

هل يمكن أن ينص هذا الميثاق مثلاً على منع المعتقلات والمحاكم الاستثنائية ويلزم الحكام باحترام القانون، فإذا خالف أي حاكم القانون وظلم أي إنسان عربي التجأ إلى المحكمة الدستورية العليا يطلب الحق والانصاف!

هل يمكن أن ينص في هذا الميثاق على منع مصادرة أموال المواطن العربي، أو فرض الحراسة عليه، ونحترم ملكية أي مواطن عربي احترامنا الملكية أي مواطن في بلادنا.

وهل يمكن أن ينص في هذا الميثاق ألا يشنق زعيم أو يسجن بلا محاكمة! إننا إذا نظرنا حولنا فسنجد أن كثيراً من رؤساء الدول العربية انتهى أمرهم إلى الاعتقال أو السجن أو الاغتيال!

اليمن الجنوبية مثلاً سجنت رئيس جمهوريتها الأول وأعدمت رئيس جمهوريتها الثاني. اليمن الشمالية نفت رئيس جمهورية واغتالت رئيس جمهورية! العراق أعدم رئيس جمهورية بلا محاكمة ونفى رئيس جمهورية إلى الخارج. الجزائر قبضت على رئيس الجمهورية ووضعته في

السجن منذ ١٤ سنة بلا محاكمة ولا استجواب. سوريا طردت عدداً لا حدَّ له من رؤساء الجمهوريات وقادة الانقلابات. وما من واحد من هؤلاء قدم إلى محاكمة علنية، عرف منها الناس الجريمة التي ارتكبها أو حيثيات الحكم الذي صدر عليه.

إن قدماء المصريين سبقوا الأمم المتحدة في إعلان حقوق الإنسان. أعلنوها في كتاب الموتى على لسان الروح وهي تقول للإله أوزيريس.

لم أظلم الفقراء.

لم أستبد بالعمال.

لم أهن أحداً.

لم أقتل أحداً.

لم أضر أحداً.

لم أحرم الأطفال من اللبن.

لم أحرم الجوعى من الطعام.

لم أغش في الموازين.

لم أضطهد خصومي.

لم أحاب أصدقائي!

بعد ألوف السنين نحتاج في البلاد العربية إلى ميثاق يقول: لم أعذب مسجوناً. لن أضرب خصماً بالكرباج. لن أعتقل كاتباً عارضني. لن أشنق رجلاً قال لي: لا. لن أهاجم أخوتي. لن ألفق التهم الكاذبة ضد أصدقائي السابقين.

لن أشتم دولة عربية في التلفزيون والراديو! لن أنهب أموال الذين يخالفونني في الرأي!!

غابت الشمس فاختفت النجوم!!

عندما كانت أم كلثوم على قيد الحياة كانت بعض المطربات يتهمنها بأنها السد العالي الذي يمنع المطربات من الشهرة والظهور.

وماتت أم كلثوم منذ سنوات ولم تشتهر مطربة واحدة مجهولة ولم تظهر مطربة واحدة مغمورة بل العكس هو الذي حدث فقد انكمش حجم بعض المطربات وتضاءل وكأن نور أم كلثوم هو الذي كان يسلط عليهن فيجعل هذه النجوم الصغيرة تتلألأ وتضيء.

وكذلك الحال مع المطربين الرجال. كم سمعت مطربين شباناً يشتكون أن المطرب عبد الحليم حافظ هو الذي يستغل نفوذه ويمنع محطات الإذاعة من أن تذيع أغانيهم التي يطلبها المستمعون! وكم سمعت أن فريد الأطرش له عملاء في كل إذاعة يتقاضون مرتبات سخية ليمنعوا أغاني المطربين الشبان.

ومات عبد الحليم حافظ ومات فريد الأطرش ولم يستطع واحد منهم أن يحتل مكان عبد الحليم أو فريد، أصبحت الساحة خالية من كبار المطربين المبدعين.

ذلك لأنه لا يمكن هدم موهبة ولا القضاء على صوت جميل. إن لدينا عشرات من محطات الإذاعة تبحث عن أصوات جديدة وعن خلفاء

لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش.

وقد حاول البعض «تكبير» بعض المطربين والمطربات بوسائل صناعية! ولا يمكن خلق مطربة كبيرة أو مطرب كبير بقرار جمهوري أو بمرسوم ملكي.. من الممكن القبض على ألف متفرج والزج بهم في قاعة مسرح ليصفقوا لمطربة ويقولوا «اللّه اللّه» ولا أظن أن هذا الأمر ليس بالسهل بعد إلغاء التعذيب في كثير من الدول العربية.

إن بناء مطربة جديدة يحتاج إلى عرق ومران.. يحتاج إلى علم وموهبة.. يحتاج إلى شخصية قوية.. يحتاج إلى عشق للموسيقى واستعداد للتضحية من أجل الفن.

هل توجد فتاة مستعدة لأن تركب حماراً وتطوف به مصر من أقصاها إلى أقصاها تغني في كل قرية من أسوان إلى الاسكندرية.

وهل يوجد الأستاذ الذي يضحي بوقته ويكرس كل جهده ليخلق مطربة عظيمة دون أن يتقاضى أجراً كما فعل الشيخ أبو العلا مع أم كلثوم! إذا وجدنا كل هذا وجدنا أم كلثوم.

«القبقاب» قصير العمر!

كان أحد أدوات الحاكم بأمره فى أحد البلاد العربية. كان يكلف بالأعمال القذرة، كان أحياناً السيف الذي يقطع به الرؤوس، وكان أحياناً السوط الذي يلهب الظهور، وكان أحياناً الحبل الذي يلتف حول عنق المشنوقين، وكان أحياناً اللسان الذي يدافع عن الظلم والظالمين.

وذات يوم استغنى الحاكم الفرد عن خدماته، وجن جنونه، لم يتصور أن الحاكم يستطيع أن يستغني عنه، أين يجد مثله سيفاً وسوطاً وحبلاً ولساناً! ورأيته حزيناً يائساً حائراً لا يعرف لماذا استغنى الحاكم عن خدماته، وكان ألزم له من ظله، وأخلص له من عبده، وأقرب له من رباط عنقه..

قلت له إنك كنت قبقاباً يستعمله الحاكم عندما يدخل الحمام حتى لا تبتل قدماه بمياه الحمام غير النظيفة، وهو يخلعك لأنه يريد الخروج من الحمام ويذهب إلى الصالون.. ومن غير المعقول أن يذهب إلى الصالون وفي قدميه قبقاب!.

قال: أين الوفاء؟

قلت له: في دنيا الأعمال القذرة لا توجد صفات نبيلة، ولا يوجد هناك وفاء ولا مروءة ولا صداقة ولا اعتراف بالجميل، فعندما يقبل

الإنسـان أن يكون قبقـاباً يجب أن يعـرف أن مكانـه تحت الأقدام وليس فوق الرؤوس.

أعرف «قباقيب» كانوا يفرحون إذا ترقوا وأصبحوا شباشب في قدم الحاكم، أو إذا ترقوا بعد ذلك وأصبحوا «أحذية» في أقدام الحاكم، وهم الذين اختاروا أماكنهم على الأرض وهذه الزواحف ليس لها كرامة وليس من حقهـا أن تغضب إذا ديست بـالأقـدام وليس من حقهـا أن تـطالب الناس بالأسف عليها إذا طردت أو الترحم عليها إذا خلعت.

الرؤوس المقطوعـة لا تحمل ذكـرى طيبة للسيـوف التي قطعتهـا، والظهور الملتهبة لا تفتقد السياط التي ألهبتها.

إنما نحن نحمل ذكرى طيبة لكل يد انتزعت سيفاً من يد طاغيـة، واقتلعت سوطاً من يد جلاد أو دكت حجراً في قلعة من قلاع الظالمين.

أعمار «القباقيب» قصيرة دائماً لأن الحكام لا يمضون طـول عمرهم في دورات المياه.

مهرج أعظم من فيلسوف

لم أرزق أولاداً ذكـوراً.. ولم يرزق أخي التـوأم عـلي أمين أولاداً ذكوراً، هو رزق بنتين، وأنا رزقت بنتين.

ولم يشعر واحد منا بأنه في حاجة إلى ولد! كنت أحس أن علي أمين ابني، وكان علي يحس أنـه أبي! وكان كـل واحد منـا سعيداً أن يـرى ابنه ولداً وشاباً ورجلاً وشيخاً!

ولم نحاول أن نجعل بناتنا يهوين مهنة الصحافة التي عشقنـاها.. لم أسمع واحدة منهن قـالت مرة أنها تتمنى لـو كانت صحفيـة أو كاتبـة. وأعتقد أنني أفهم السبب فقد رأت كـل واحدة منهن في طفـولتها أهـوال الصحـافة من اعتقـال وحبس وتعذيـب ومصـادرة وحـراسـة ومن وضـع أسمـائهن في القـوائم السـوداء، والواحـدة منهن لم تتجـاوز الخـامسـة من عمـرهـا! فـالـذين يـولـدون في ميـادين القتـال ويـرون حـولهم الجثث والأشلاء، لا يتمنون أن يكونوا ضباطاً وعساكر! فهذه لعبة لا يلعبهـا إلا الذين لم يروا قنبلة حقيقية ولم يسمعوا طلقات مدفع حقيقي!

وقليلون هم الآبـاء السعداء الـذين استطاعـوا أن يجعلوا أولادهم يرثون هوايتهم. وقد رأيت توفيق الحكيم يضيق بابنـه المرحـوم اسماعيـل الحكيم عنـدما عشق المـوسيقى وفضل أن يكـون عازفـاً عـلى أن يكـون فيلسوفاً...



وكان المرحوم عبد الله وهبي باشا مهندساً كبيراً، وكان يشيع جنازة في أحد شوارع القاهرة، ورأى على الجدران اسم ابنه يوسف وهبي يشترك في تمثيل رواية مسرحية وأجهش في البكاء. وسأله المشيعون: هل الميت قريبك؟ قال: بل الميت ابني! وأشار إلى اسم ابنه يوسف وهبي! وأصبح يوسف وهبي الممثل أعظم ألف مرة من عبد الله باشا وهبي المهندس!

وروى الفيلسوف المعروف أمين الريحاني أنه كان في جمرك القاهرة يتسلم بعض حقائبه، وما كاد موظف الجمرك يقرأ جواز سفره حتى انهال عليه تقبيلاً وعناقاً، وأخبر زملاءه باسمه فتركوا أعمالهم مهللين وصافحوه بإجلال واحترام. وسألهم الفيلسوف أمين الريحاني هل قرأتم كتبي؟ قالوا له: لا . . ولكن فهمنا أنك قريب نجيب الريحاني الممثل الهزلي المشهور!

ولم يكن أمين الريحاني قريباً لنجيب الريحاني، وكان أحياناً يخجل أنه يحمل اسم نفس عائلة المهرج! ولكنه عرف لأول مرة أن هذا المهرج أعظم مئات المرات من الفيلسوف العظيم أمين الريحاني! والشيء الذي لم يعرفه أمين الريحاني يومئذ أن نجيب الريحاني هذا كان فيلسوفاً!

النصاب . . . والطماع!

سألني صاحبي لماذا زاد عدد النصابين في هذه الأيام؟

قلت بسبب زيادة كثرة الطماعين في هذه الأيام!

فالنصاب لا ينجح إلاّ مع طماع. ولهذا فإن النصاب لا يقترب أبداً من إنسان قانع، وإنما يبحث عن الإنسان الطماع الجشع، الذي يعميه جشعه وطمعه عن رؤية فخ النصب الذي ينصب له!

إذا كنت تريد أن تربح ربحاً حلالاً معقولاً فتأكد أن النصاب لن يحوم حولك، إنه يبحث دائماً عن إنسان يريد أن يربح ربحاً طائلاً ويحلم بأن يضاعف ثروته عشرات المرات بغير جهد وبغير عرق وبغير فكر . . .

كنت أعرف أسرة اشتهر أفرادها بالطمع، واكتشف نصاب نقطة الضعف فيهم وجاء إليهم يقول أن عنده مشروعاً اسمه «مؤسسة القناعة كنز لا يفنى»، تدفع مائة جنيه فتأخذ كل شهر عشرة جنيهات. . أي أن الربح يزيد عن مائة في المائة في العام الواحد!

وفرح عميد الأسرة ودفع عشرة آلاف جنيه. . . وأسرع أفراد الأسرة يدفعون مئات الجنيهات . .

وفي الشهر الأول دفع النصاب ألف جنيه لعميد الأسرة. . وفي الشهر الثاني دفع ألف جنيه أخرى لعميد الأسرة. . وفرح الباشا الطماع! وجاء بعشرين ألف جنيه وأعطاها للنصاب!

وأخذ النصاب هذا المبلغ الطائل ومبالغ أفراد الأسرة واختفى!

وعثرت الشرطة عليه بعد بضع سنوات، ولم تجد معه مليماً واحداً من المبالغ التي استولى عليها! وتبين أن النصاب في خلال هذه السنوات تزوج من أربع سيدات نصب عليهن جميعاً واستولى على كل ما يملكن من عقار ومجوهرات. وكنت أعرف سيدة منهن كانت متزوجة من رجل طيب يكسب خمسين جنيهاً في الشهر، فأقنعها أن تطلق زوجها، وتتزوج منه لأنه رجل مليونير يربح عشرة آلاف جنيه في الشهر. وصدقت الزوجة هذه الأكذوبة وطلقت زوجها وتزوجت النصاب الذي طمعت في أمواله.. وإذا به يسلبها كل ما تملك، ولم يتركها إلا وهي لا تملك قوت يومها!

ومن الغريب أنك لا تجد النصابين في المجتمع فقط.. إنك تجدهم في السياسة أيضاً!

الكتب التي ألفتها

سألتني القارئة م. م. م من جدة كم كتاباً ألفت؟

الغريب أنني لا أذكر عدد الكتب التي ألفتها! وبعض هذه الكتب نفد، وليس لدي كتاب منها حتى أعيد طبعها! وأذكر أنني ألفت في شبابي كتاباً اسمه «أمريكا الضاحكة» عن حياتي كطالب مفلس في أمريكا بلاد الملايين في تلك الأيام. وألفت كتاباً سياسياً اسمه «عمالقة وأقزام» عن السياسيين المصريين وبعض السياسيين العرب. وألفت كتاباً من جزءين عن قصة فاروق. وألفت قصة «معبودة الجماهير» التي مثلها عبد الحليم حافظ وشادية في السينما، وألفت قصة فاطمة التي مثلتها أم كلثوم وأنور وجدي في السينما. والظريف أنني لم أستطع أن أعثر على هذه القصة بحوارها لأعيد طبعها. وأظرف من ذلك أنه عندما سجنت اشترطت وزارة الثقافة شطب اسمي كمؤلف لتعرض هذه الأفلام في السينما والتلفزيون. وبعد خروجي بدأ اسمي يظهر من جديد على الأفلام!

وعندما خرجت من السجن أصدرت كتاب سنة أولى سجن وسنة ثانية سجن وسنة ثالثة سجن، وأتمنى أن أتم السلسلة لو كتب الله لي عمراً إلى «سنة تاسعة» سجن!

وأصدرت الكتاب الممنوع وهو عن الجهاز السري لثورة ١٩١٩، وكتاب من واحد لعشرة، وكتاب «ست الحسن» وهو مجموعة قصص صغيرة، وقصة لا، وقصة سنة أولى حب، وكتاب صاحبة الجلالة في

الزنزانة وهو عن معارك الصحافة. وأغلب هذه الكتب كتبتها وأنا داخل الزنزانة، وكنت أهرب صفحاتها إلى الخارج صفحة بعد صفحة.. وبعد أن خرجت من السجن حاولت أن أؤلف كتاباً واحداً فلم أستطع! واضطررت في هذا العام أن أسافر إلى لندن وأبقى بها ثلاثة أسابيع خصيصاً لأستطيع أن أؤلف كتاباً جديداً..

ولدي مواد جاهزة لعشرين كتاباً جديداً، ولكن مصيبتي أنني لا أجد وقتاً لأراجع أوراقي لأعد كتبي. ولا أظن أنني كاتب كسلان، فأنا أعمل ١٨ ساعة كل يوم، وليس عندي عطلة أسبوعية. لم أتوقف عن الكتابة والعمل في عطلة العيد. بل ذهبت إلى مكتبي في الصباح وفي المساء كالمعتاد. ولا ينقصني إلاّ «سكرتير» يرتب أوراقي، ويخرج لي كل عام ثلاثة أو أربعة كتب ولكن عيبي أنني سكرتير نفسي! وعندما أستخدم سكرتيراً أجد أنني أشتغل سكرتيراً للسكرتير!

وأنا مثلاً أريد أن أكتب بقية مذكراتي من عشرة لعشرين، ومن عشرين لثلاثين، ومن ثلاثين لأربعين، ومن أربعين لخمسين.. وهكذا.. وكلما نظرت إلى العدد الكبير من الكتب التي يجب أن أكتبها يقف ما بقي من شعر رأسي هلعاً!

والحل الوحيد أن أعيش ألف سنة لأكتب كل ما أتمنى أن أكتب!

ولما كان دواء أكسير الشباب لم يكتشف بعد، فالحل الأخير أن يتم تلاميذي كتابة كل هذه الكتب.. إذا أعجبتهم!

زملاء الدراسة

زارني زميل في الدراسة، وأعطاني صورتي مع زملائي تلاميذ سنة أولى في المدرسة الثانوية!

وتأملت صورة زملائي في الدراسة لأعرف أين هم الآن ورأيت صورة أكثر تلاميذ الفصل أناقة، ولم يصل المسكين إلاّ إلى وظيفة كونستابل في البوليس! ووجدت أن أكثر تلاميذ الفصل بهدلة أصبح الآن صاحب ملايين! ورأيت زميلاً لي كانت مطامعه وأحلامه لا حدود لها، وكان يؤكد لنا أنه سيكون رئيس وزارة مصر، وأقصى ما وصل إليه المسكين أن تزوج سيدة غنية أكبر منه سناً بثلاثين سنة وورثها! ورأيت زميلاً آخر وقد وصل إلى رتبة قائد بحري، وزميلاً غيره أصبح قائد الطيران في مصر أثناء هزيمة ٥ يونيو. وزميلاً وصل إلى منصب لواء في الشرطة!

ودهشت أن أحداً من زملائي الذين كانوا يحصلون على عشرة على عشرة في الإنشاء العربي لم يعمل في الصحافة أو الأدب.. وإن أول دفعتنا وكان الألفة اشتغل باشمحضر في محكمة.

وكثير من الزملاء أصبحوا محامين ومهندسين وأطباء وأساتذة في الجامعة ومستشارين. ولكن العجب أنني لم أجد أحداً من «النوابغ» الذين كنا نغبطهم على تفوقهم الدائم في الامتحانات، وعلى إجاباتهم على كل سؤال للمدرس، وعلى حفظهم الدروس ظهراً عن قلب.. لم

أجد واحداً منهم في الصف الأول من الحياة!

وأغلب الظن أن امتحانات الحياة أصعب من امتحانات الدراسة، وأننا نحتاج في الحياة إلى ذكاء وفكر وابتكار أكثر مما نحتاج إلى حفظ قواعد اللغة الإنكليزية وتصريف الأفعال باللغة الفرنسية. . وأنه لا يكفي أن نعرف نظريات الهندسة عن ظهر قلب لنعرف نظريات الحياة الأكثر صعوبة والأكثر تعقيداً!

وأذكر أنني منذ سنوات كنت أزور أحد الوزراء في مكتبه، واستقبلني ساعي عجوز يرتدي بذلة صفراء رثة، وصافحني بحرارة، وصافحته، ثم سألني: هل تتذكرني؟ قلت: أتذكر وجهك! قال أنا فلان كنت تلميذاً معك في مدرسة رقي المعارف الثانوية بشبرا!

وتذكرته. . وتذكرت اسمه. . وتذكرت أنه كان أول الفصل في الهندسة والجبر والحساب! وتذكرت أنه كان يحل المسائل الهندسية التي كنا جميعاً نعجز عن حلها!

وصعقت لأنه يعمل فراشاً!

وأخبرت الوزير بقصته وكان وزيراً كريماً هو عبد المجيد ابراهيم صالح باشا ونقله كاتباً!

سبحان من قسم الحظوظ!

لا يمكن أن نخلق أم كلثوم بقرار!

كما أنه لا يمكن أن نخلق مطربة عظيمة كأم كلثوم بمرسوم ملكي أو قرار جمهوري، فكذلك لا يمكن أن نصنع زعيماً بمرسوم ملكي أو قرار جمهوري!

الزعيم هو قصة كفاح طويل، وجهد رائع، وسجون ومعتقلات، وصمود وثبات، وتجاوب مع الجماهير، وإحساس بالناس، وتفان في خدمة الرأي الذي يؤمن به.

إنه أشبه بقطعة من الماس، نضعها في النار لنخلصها من الشوائب والتراب، ونصقلها لنحاول أن نعطيها اللمعان والبريق الذي يبهر الأبصار.

أما الزعيم الذي نعينه بقرار، فهو زعيم من قش، لا تكاد تمسه النار حتى يحرق ويتحول إلى رماد!

إن غاندي لم تعينه الحكومة الهندية بقرار زعيماً للهند! إن قرار تعيينه صدر بسنوات كفاحه من أجل الهنود، بالسجون التي دخلها، بالمحاكمات التي تعرض لها، بصيامه الطويل احتجاجاً على الإستعمار البريطاني، بسيره عارياً في الشوارع مقاوماً حكام ولايات الهند الذين كانوا يملكون الملايين، ويرتدون الملابس الموشاة بالأحجار الكريمة من ماس وياقوت ولؤلؤ. كان الواحد من هؤلاء أشبه بدكان مجوهرات في

شكل إنسان. وكان يقف أمامهم هذا العاري الجائع، واستطاع أن يقهرهم جميعاً ويقضي عليهم جميعاً! لقد رأيت غاندي في عام ١٩٣١ وهو في طريقه إلى لندن وقد لف جسمه العاري بشال أبيض صغير لم يستطع أن يغطي في البرد ساقيه ولا قدميه ولا ظهره، وكانت بجانبه معزة صغيرة يعيش على لبنها. وكان يومها يبدو للدنيا أكبر وأعظم وأقوى من الملك جورج الخامس أمبراطور الهند وملك إنكلترا الذي كان في طريقه لمقابلته! كانت مع الملك الجيوش والأساطيل وعظمة بريطانيا، وكان مع غاندي شعب الهند المغلوب المسحوق المضروب بالسياط! واستطاع الزعيم أن ينتصر على أقوى امبراطورية في العالم، ويهزها، ويهددها بالإفلاس...

ولو كان غاندي زعيماً معيناً بمرسوم لما حسبت له بريطانيا حساباً، ولعزلوه بمرسوم كما عينوه بمرسوم! وقد حاولت بريطانيا أن تخرس صوته الضعيف فوضعته في زنزانة في السجن، وإذا بصوت الشعب يزأر، فيهز جدران قصر نائب الملك في دلهي، ويهز عرش الإمبراطور في لندن... ذلك أن الزعيم كان لسان الأمة، وكان قلبها... وليس في استطاعة جيوش الدنيا كلها أن تقطع لسان ٤٠٠ مليون إنسان.. وهذا كان عدد سكان الهند في عهد غاندي!

الزعيم يخلق من تحت.. ولا يصنع من فوق!

أسئلة وأجوبة

حضرت إحدى الندوات، وقام شيوعي يسألني: ما فائدة الحب الذي تدعو إليه؟ هل سيبني لنا بيوتاً نسكن فيها؟ هل سيجد لنا مكاناً في الأوتوبيسات المزدحمة بالركاب؟ هل سيخفض الأسعار ويقضي على الغلاء؟

قلت له: لك حق! فلنجرب الكراهية. فهي التي ستبني لنا بيوتاً نسكن فيها، وستجد لنا أماكن في الأوتوبيس.. وستخفض الأسعار!

وفي ندوة ثانية قام سائل يسألني: لماذا تتكلم عن أخطاء الطغاة في الماضي، ولا تنفذ الحكمة التي تقول اذكروا محاسن موتاكم؟

قلت له: إن القرآن الكريم والكتب المقدسة لم تحذف قصص الذين طغوا وبغوا واستبدوا، بل تلعنهم في كل صفحاتها.. ولو انها اكتفت بذكر محاسن الموتى لحذفت كل ما جاء عن فرعون والطاغوت وأبي لهب وامرأته حمالة الحطب!

وفي ندوة ثالثة سألني سائل: متى أعتزل الكتابة؟

قلت: إنني أريد أن أموت والقلم في يدي! فأنا أكتب كما أتنفس..

إنني أتوقف عن الكتابة عندما أتوقف عن التنفس!

وسألتني شابة صغيرة: وهل معنى ذلك أنك ستكتب دائماً؟



قلت: سأستمر أكتب إلى أن يقصف قلمي! وعندما لا تجدين مقالي فاعلمي أني أما مت.. أو ماتت الحرية في بلادي!

وسألتني تلميذة في مدرسة ثانوية: ما هو النجاح؟

قلت: قصة حب!

وسألتني تلميذة أخرى: لماذا تنتصر لقضية المرأة؟

قلت لها: لأنني أحببت أمي.. ومن أجلها أحببت كل نساء العالم!

وسألتني تلميذة ثالثة: ما هو أملك في الحياة؟

قلت: ديمقراطية وحرية وعدالة.. في كل بلد عربي!

مؤامرة ضد كاتب حر!

ظهر في إحدى دول أمريكا اللاتينية إقطاعي جشع لا يشبع! كلما ازداد غنى ازداد جشعاً. اشترى النفوذ والسلطان. اقتلع كل رجل يقف في طريقه. إذا هاجمته محطة إذاعية اشتراها. وإذا انتقدته جريدة استولى عليها. وإذا تعذر عليه شراء الجريدة اشترى المطبعة التي تطبعها. وملأ بأمواله كل فم فأخرسه. ومضى يسرق وينهب ويستغل نفوذه كما يشاء ويريد.. ولكن كاتباً واحداً عجز أن يشتريه! وأعلن عليه الحرب العلنية والخفية فلم يخضع ولم يركع ولم يقتنع أن السكوت من ذهب!

وجن جنون الإقطاعي. لقد استسلم الجميع له، وسقطت كل القلاع بين يديه. أصبح هو الذي يعين الوزراء ويعين القضاة ويعين المحققين.. ويعين أعضاء البرلمان.. أصبح هو الحاكم الحقيقي وراء الستار، هو الإله الصغير الذي يغني من يشاء ويفلس من يشاء، ويرفع من يريد ويخفض من يريد! فمن هو هذا الكاتب الحقير ليقف في طريقه، ويفضح سرقاته، ويحكي للشعب عما سلب ونهب! كل الأقلام تشيد بعظمة الإقطاعي وقلم واحد خرج عن الإجماع، وجرؤ أن يقول ما لا يقال، ورفض أن يسير في موكب المنتفعين المصفقين للص الأول!

وفشلت كل محاولات الإطاحة بالكاتب الشجاع. أحرقوا سيارته متوهمين أنه في داخلها ولكنه لم يكن في سيارته. وضعوا قنبلة في مكتبه فانفجرت ولم تصبه. أطلقوا الرصاص عليه فأخطأه الرصاص. وخطر

ببال مساعدي الإقطاعي أن يقتلوا الكاتب بواسطة زوجته. وفشلوا في أن يشتروها. وفشلوا في أن يجعلوها تسقط في حبائل أحد الشبان المتخصصين في اصطياد النساء.. وعندما فشلت كل محاولاتهم قرروا أن يلجأوا إلى أن يثيروا غيرة زوجة الكاتب، فكانوا يتصلون بها كل يوم بواسطة غانيات ليقولوا لها أن الكاتب يخونها، ويدعونها إلى أن تذهب لتضبطه مع عشيقته. وتصوروا أنهم إذا أدخلوا الغيرة إلى قلب الزوجة فسيشعلون النار في البيت، فيحولونه إلى جحيم من الشك، وسوف يحطمون أعصاب الزوجة وأعصاب الزوج، ويقضون عليه فلا يصمد في مقاومة الإقطاعي، فالرجل التعيس في بيته لا يستطيع أن يخوض المعارك الكبرى. والرجل الذي يمضي ليلته وهو يدافع عن نفسه أمام زوجته لا يستطيع أن يدافع في الصباح عن حقوق الشعب المغتصبة!

ولكن الزوجة الباسلة اكتشفت حيلهم وأبلغت بها زوجها.

وصمد الإثنان في المعركة العجيبة.. واستطاع الكاتب الشجاع أن يعري اللص الأول أمام الشعب، وقدم إلى القضاء ودخل السجن، وعاد المال المسروق إلى الشعب!

الفضل في ذلك «لعقل» امرأة!

ممنوع دخول النساء!

كلما مررت بميدان طلعت حرب في القاهرة، وتطلعت إلى تمثاله، تذكرت شخصية زعيم مصر الاقتصادي طلعت حرب. كان رجلاً يسبق زمنه في الاقتصاد، وانتهز ثورة ١٩١٩ ودعا المصريين إلى الاكتتاب في إنشاء أول بنك مصري.

واستدعاه المستشار المالي البريطاني وقال له:

ـ هل جننت؟

قال طلعت حرب: لماذا؟

ـ كنت أظن أنك رجل عاقل، ولكن يظهر أنك أصبت بعدوى الجنون التي نشرها سعد زغلول في هذا البلد؟ هل تتصور أن المصريين يستطيعون إدارة بنك؟ أنتم لا تصلحون لإدارة دكان! العرب جميعاً لم يخلقوا لإدارة البنوك! هذه صناعة الخواجات فقط.. وأنا أنصحك أن تعدل عن إنشاء البنك وإلا فسيفلس البنك بعد شهور وتوضع في السجن!

وأصر طلعت حرب على أن المصريين يستطيعون إنشاء البنوك وأنها ليست مهنة الخواجات وحدهم! وأصبح العرب الآن يملكون البنوك في أمريكا نفسها!

ولكن هذا الرجل الذي كان يؤمن بقدرة الرجل العربي، كان لا يؤمن أبداً بقدرة المرأة العربية! وعندما ألف قاسم أمين كتابه الذي دعا فيه إلى سفور المرأة المصرية انبرى له طلعت حرب، وألف كتاباً هاجم فيه سفور المرأة وطالب باستمرار الحجاب.

وحدث أنني قلت له مرة: إنك أنشأت بنك مصر في أبريل سنة ١٩٢٠ ونحن الآن في أبريل سنة ١٩٣٨، وأنا ألاحظ أنه لا توجد امرأة واحدة بين موظفي البنك!

وقال طلعت حرب وهو يضحك: إن امرأة واحدة قادرة على أن تخرب بنك مصر كله!

وترك طلعت حرب بنك مصر في عام ١٩٣٩ وليس فيه امرأة واحدة، والآن تجد في البنوك المصرية مئات النساء والفتيات، توجد بعض سيدات مصريات في مراكز رئيسية في بعض البنوك المصرية!

ولم تصدق نبوءة طلعت حرب بأن امرأة واحدة يمكن أن تخرب بنك مصر كله!

إن من الممكن أن يكون العبقري متقدماً في فن.. ورجعياً في فن آخر وهذا لا يقلل من قيمته أبداً.

الحرية المظلومة

بعض الناس يكرهون الحرية لله في لله!

يلومون الحرية على كل ما يحدث في الماضي، وعلى كل ما سوف يحدث في المستقبل. إذا اضطرب الأمن العام لاموا الحرية، وإذا انتشر الانحلال لاموا الحرية، وإذا كثرت الجرائم لاموا الحرية، وإذا اشتد الغلاء اتهموا الحرية!

كأن الاستبداد هو الذي يؤدي إلى استتباب الأمن واستقرار النظام، وكأن الطغيان هو الذي يساعد على انتشار الآداب العامة وحسن السير والسلوك، وكأن في عهد هتلر لم تقع جريمة واحدة، وفي عصر هولاكو الطاغية كان الناس كلهم ملائكة أطهاراً وقديسين!

أكبر دليل على أن القيود لا تمنع الجرائم كثرة حوادث القتل والعنف داخل السجون! فلو كانت الأسوار والأغلال والسلاسل تؤدب الناس لتحول المسجونون جميعاً إلى ملائكة أبرار، ولكن كل الخبراء يقولون أن المجرم الصغير يدخل السجن فيخرج مجرماً كبيراً!

ولو أجرينا إحصاء في عهود الديموقراطية وعهود الديكتاتورية في أي بلد في العالم لوجدنا أن جرائم الاختلاس والسرقة والاغتصاب تتضاعف في ظلام الديكتاتورية وتتضاءل في نور الحرية..

ولكن أعداء الحرية يعتبرون المناقشات الحرة ضوضاء، ويعتبرون

الهمس الخائف المرتعش موسيقى! الظلام يساعدهم على الرؤية، والنور يعمي عيونهم. الجنة في رأيهم هي صحف مقيدة، وبرلمانات مكممة، ومعتقلات مزدحمة، وأبواب مغلقة ونوافذ مقفلة.. والجحيم في نظرهم هي صحف تنتقد، وبرلمانات تهاجم. وأبواب مفتوحة وأنوار مضاءة!

ولهذا فهم يتهمون الحرية بأنها سبب أزمة المجاري، وسبب تعطل التليفونات وسبب قلة المساكن، وسبب الحفر في الطريق، وسبب تأخر الخطابات والتلغرافات وزحام القطارات!

وإذا انتشرت الأنفلونزا فستكون الحرية هي السبب!

نعم قد تكون النوافذ المفتوحة سبب انتشار الأنفلونزا، ولكن النوافذ المغلقة والأبواب المغلقة والمجتمعات المغلقة هي سبب الالتهاب الرئوي!

لا أعطي أبداً صفراً لتلميذ!

عندي ضعف شديد تجاه المعلمين. فأنا مدين بكثير لكل الذين علموني. وأعرف متاعب التدريس ومشاقه وعذابه، فقد كنت أستاذاً للصحافة في كلية الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لمدة أربع سنوات، وكنت أستاذاً للصحافة بكلية الآداب بالجامعة المصرية لتسع سنوات. وكنت أحرص على حضور كل درس برغم كثرة مشاغلي، وعندما كنت أضطر للتغيب كنت أبعث أخي التوأم علي أمين ليحاضر مكاني، ولم يعرف أغلب الطلبة الفرق بيننا لشدة الشبه العجيب بيني وبينه!

وأذكر أنني أخذت تلامذتي في الجامعة الأمريكية وأصدرت بهم «أخبار اليوم» التي استمدت حيويتها وشبابها من حيويتهم وشبابهم..

ولم أكن أستاذاً صعباً في تصحيح أوراق الامتحانات. فقد كابدت بنفسي عذاب الامتحانات ووصلت إلى نتيجة أن الامتحان ليس مقياساً صحيحاً لعلم الطالب أو جهله.. فكم من الطلبة الذين حصلوا على أعلى الدرجات في الصحافة كانوا أجهل الناس بالصحافة!

وكانت التقاليد في أيامي أن يصحح ورقة الامتحان النهائي ثلاثة من الأساتذة، فيقسم عدد من الأسئلة على عميد الكلية، ويقسم الباقي علي وعلى أستاذ آخر، وكنت أصر أن أكون آخر أستاذ يصحح الورقة، وقبل أن أصحح السؤال الذي هو من نصيبي أراجع الدرجات التي

وضعها زميلاي على الإجابات الأخرى، وأحاول دائماً أن أعطي الطالب الضعيف باقي الدرجات التي تمكنه من النجاح!

ولم أندم على تساهلي مع الطلبة، فإن كثيرين من الذين «جبرت» لهم درجاتهم أصبحوا من الصحفيين، ومن كبار الصحفيين. . ولم أكن أستطيع أن أضع لطالب درجة سقوط تجعله يعيد العام، وأنا أعرف ظروف كل طالب. والمجهود الهائل الذي بذله حتى يستطيع أن يصل من قريته إلى الكلية متعلقاً في أتوبيس، أو راكباً فوق سقف قطار، وبعضهم كان لا يملك مصباحاً كهربائياً في بيته، فكان يستذكر على ضوء مصباح الشارع!

ولقد وصلت إلى هذه العقيدة بسبب تجربتي الخاصة، فقد كان أحد زملائي في المدرسة الثانوية أول تلميذ في المدرسة في جميع الامتحانات. . حتى كانت المدرسة تعده ليكون أول الطلبة في امتحان البكالوريا (الثانوية العامة الآن). واصطدمت في اليوم الأول للامتحان بأن هذا التلميذ أصبح عاجزاً عن أن يكتب كلمة واحدة في ورقة الإجابة! وحاولت أن أساعده فرفض. وبعد ساعة وضع القلم وأخذ يبكي بصوت مرتفع، وحملوه إلى خارج قاعة الامتحان، واكتشفنا بعد ذلك أن المسكين لم يتناول طعام الإفطار، ولا طعام العشاء في اليوم السابق وإنه كان يستذكر دروسه ثلاث ليال من غير أن ينام!

يومها أعطوه صفراً!. .

ومنذ ذلك اليوم لا أعطي أبداً صفراً لتلميذ!

الطغيان فتح بيتي!

قابلته في الطائرة الكونكورد التي حملتني من لندن إلى واشنطن. وقال لي: إنني أتضايق منك كلما أقرأ لك هجوماً على الطغيان! إن الطغيان فتح بيتي!

وقد رأيت كثيرين خرب الطغيان بيوتهم، ولكنها المرة الأولى التي رأيت فيها رجلاً فتح الطغيان بيته. وتصورت في أول الأمر أنه كان أحد أعوان طاغية، واستغل نفوذه فنهب ونصب وسرق! وإذا به يقول لي أنه سوري أمر العقيد أديب الشيشكلي ديكتاتور سوريا في الخمسينات بالقبض عليه ومحاكمته والحكم عليه بالإعدام!

وهرب الرجل من بيته. لم يأخذ معه حقيبة! كان كل ما معه عشر ليرات سورية ومعطفه! وهرب إلى لبنان. وباع معطفه ليأكل، ثم وجد عملاً في مطعم، ثم اشتغل حمالاً في الميناء، حتى ادخر ثمن تذكرة ركوب درجة ثالثة إلى البرازيل! وجاع في البرازيل. وجاع في الأرجنتين. وجاع في شيلي! وعرف الجوع في كل دول أمريكا اللاتينية. واشتغل بائعاً متجولاً، ثم افتتح محلاً صغيراً لبيع المنسوجات، ثم اشترى مصنعاً صغيراً لنسج المنسوجات وكبر المصنع. . وفتح عدة مصانع في أمريكا الوسطى وأمريكا الشمالية وكندا!

وقال لي إنه لولا الطغيان والجبروت ومطاردة زبانية الشيشكلي له لبقي في سوريا ولما استطاع أن يصل إلى واحد من ألف مما وصل إليه!

وعندما علم أن الشيشكلي مختف في أحد بلاد أمريكا الجنوبية سافر إليه خصيصاً ليشكره على ظلمه وطغيانه واستبداده وليساعده مالياً في منفاه ولكنه وصل إلى مقر الشيشكلي بعد ساعة واحدة من مصرعه!

لقد بحث عنه مطارد آخر ذاق طعم ظلمه. وما كاد يراه أمامه حتى أخرج مسدسه وأفرغه في الطاغية الديكتاتور!

قلت له ضاحكاً: إنني أشك أنك أنت الذي قتلته؟!

قال: كيف أقتله؟ وهو الذي فتح بيتي!

وتجد الآن في أوروبا وأمريكا ألوفاً من الشبان المصريين والسوريين والعراقيين وغيرهم هربوا من الاستبداد، ووجدوا أنفسهم، واستطاعوا في ظل الحرية أن يحققوا نجاحاً ضخماً، فأسسوا المصانع، وانشأوا البنوك وبنوا الشركات، وأقاموا المستشفيات!

لا أصدق أن الطغيان هو الذي فتح لهم الطرق.. بل أتصور أنهم لو عاشوا في الحرية لنجحوا أكثر، ولتفوقوا أكثر.. وانطلقوا أكثر وأكثر!

ألف نجاح لا يساوي أبداً.. ملايين العبيد!

وألف مليونير لا يساوي عندي إعدام بريء!

مهمة الجامعة

زرت كلية الآداب بجامعة عين شمس، وعلمت أن عدد طلابها الآن هو ١٦ ألف طالب وطالبة! وتذكرت كلية الآداب في أوائل الثلاثينات عندما كان عدد طلبتها يزيد قليلاً عن مائة، وعندما كان عدد الطالبات لا يزيد عن خمس طالبات، أذكر منهن أمينة السعيد وسهير القلماوي!

وكنت أيامها طالباً في كلية الحقوق، وكنت أرى أيامها الدكتور منصور فهمي أستاذ علم الجمال يمشي في الكلية باحثاً عن تلميذه الوحيد حتى يعثر عليه في الحوش، ويأخذه من يده ليذهب به إلى غرفة المحاضرة!

وكان أجمل ما في الدراسة العلاقة الشخصية بين الأستاذ وطلبته. كان الأستاذ يعرف اسم كل طالب. وكان الأساتذة يدعون الطلبة لتناول الشاي في بيوتهم، وكانت هذه الصلة الروحية هي التي تصنع الحياة الجامعية الحقيقية.. والآن لا يستطيع أي أستاذ أن يعرف طلبته، فهو يتحدث إليهم بالميكروفون! ولا بد أن يسكن الأستاذ في قصر ليستطيع أن يتسع لعدد طلبة الفصل!

وأخطر من هذا أن مكتبات الكليات ليس فيها العدد الكافي من الكتب لتخدم هذا العدد الهائل من الطلبة..

وبعض عباقرة هذه الأيام يفضلون الكم على الكيف.. فهم يفضلون كلية تخرج ألف متخرج عادي على كلية تخرج العقاد وطه حسين وأحمد أمين وثلاثة من العباقرة مثلاً! ولكن من الممكن أن نجعل الجامعة تخرج الأعداد وتخرج العبقريات في نفس الوقت إذا شجعنا النبوغ، وأوفدنا البعثات، وحصلنا على أحدث المراجع، وجعلنا الجامعة هي مركز حرية الفكر في البلد، تخرج منها الأفكار الجديدة، وتناقش فيها الآراء الحديثة، ونقيم فيها ندوات السياسة والأدب والاجتماع.

إن مهمة الجامعة أن تخرج كل عام ألف كتاب على الأقل، في كل علم وفن وصناعة. وأن تكون هذه الكتب في متناول الناس. وليس مهمة الجامعة إخراج حملة شهادات يوزعون على المكاتب والمصالح، ولا يجدون مقاعد يجلسون فوقها، ولا مكاتب يعملون فيها!

مهمة الجامعة أن تقود التقدم في البلد، منها تخرج النظريات الجديدة والاختراعات المبتكرة والاستكشافات الحديثة..

إن حركة مصطفى كامل خرجت من مدرسة الحقوق، وثورة ١٩١٩ خرجت من الأزهر، وثورة الصناعة المصرية خرجت من كلية التجارة، وثورة ١٩٣٦ خرجت من كلية الطب!

ونحن نؤمن أن النهضة الجديدة لا بد أن تخرج من كل جامعة وكلية في كل بلد عربي!

نصف جائزة نوبل!
مناحم بيجن له حق!

معذور إذا استمر في التشدد وإقامة الصعوبات والعراقيل، وإثارة المشاكل والأزمات أمام مفاوضات السلام. ما دام كان من نتيجة مساعيه غير الحميدة في عرقلة مفاوضات السلام أن حصل على نصف جائزة نوبل.. في هذا العام!

وربما لو استمر مناحم بيجن في إقامة الصعوبات والعراقيل والمشاكل والأزمات فسوف يحصل على كل جائزة نوبل في العام المقبل!

وحتى لو تم الاتفاق في واشنطن، فإنني أتوقع أن يثير مستر بيجن كل يوم مشكلة عند التنفيذ!

فرأسمال بيجن هو الحرب، فإذا جاء السلام أصبح غير ذي موضوع فهو يصلح أن يكون مدفعاً في أيام الحرب أو التهديد بالحرب، ولكنه لا يصلح أن يكون غصن زيتون في عصر السلام!

ولهذا لا أستبعد أن يكون بيجن إحدى ضحايا السلام كما كان تشرشل ضحية السلام عقب حصوله لبريطانيا على انتصارها في الحرب العالمية الثانية!

ولهذا فمن الطبيعي أن يطيل بيجن في المفاوضات، لأنه بذلك يطيل في عمره السياسي، فأنا لا أستبعد بعد توقيع معاهدة السلام أن

يحمله وزراؤه فوق أكتافهم إلى بيته، ويطلبوا منه أن يستقيل بعد أن كلل حياته السياسية بالنجاح!

وفي أخلاق بيجن خلق المرابي العتيق، فهو يتصور أنه كلما طال الوقت في المفاوضات حصل على «فوائد» أكثر!

إن مصلحة المرابي اليهودي دائماً ألا يدفع المدين الدين في موعده، بل مصلحته أن يتأخر في السداد، حتى يقبض الدين مضاعفاً، ويبيع ملابس المدين والمدين نفسه!

ولكنني أعتقد أن مستر بيجن لا يفهم عقلية الشعب المصري. فكلما طالت المفاوضات سيحصل بيجن على «فوائد» أقل، وسوف تذوب ثقة الشعب المصري يوماً بعد يوم، وتتضاعف شكوكه، وسوف يطالب بضمانات أكثر، فإن ما رآه في هذا العالم من تأجيل وتسويف، ومحاورة ومداورة، ولعب بالثلاث ورقات، جعلت الشعب المصري أكثر تشدداً مما كان، وأكثر يقظة مما كان، وأكثر دقة في تفسير كل كلمة، وكل جملة، وكل نقطة، وكل شولة!

وعندئذ.. إبق قابلني يا مستر بيجن!

حقنا في أن نختلف!

من حق كل شعوب الدنيا أن تختلف، وأن تناقش خلافاتها، وأن تقارع الحجة بالحجة، وأن تتبادل الرأي كأنها تتبادل ضرب كرة التنس..

ما عدا الشعب العربي، فهو الشعب الوحيد في العالم المحرم عليه أن يختلف!

إذا اختلفت معي في الرأي فأنت خائن أو عميل سوفييتي أو عميل أمريكي أو أمبريالي أو استعماري أو صهيوني! مستحيل أن يكون هذا رأيك لا بد أنك قبضت ثمنه، ولا بد أنك بعت ضميرك، وتنكرت لوطنك.

غير معقول أن تخالفني في الرأي ولا تزال وطنياً كما كنت! الوطنية هي أن توافقني في الرأي، والخيانة هي أن تعارضني. الولاء للقضية هو أن تؤيد وجهة نظري، والعقوق للقضية أن يكون لك رأي آخر يخالف رأيي!

إن هذه الجاهلية السياسية هي المسؤولة عن كل ما أصابنا، ولا أريد أن أحدد المسؤول عن إدخال هذه الجاهلية السياسية في أسلوب تفكيرنا السياسي، ولكني أعتقد أنه قد آن الأوان أن تدخل الحضارة في أسلوب مناقشاتنا وخلافاتنا. فقد يكون بعض الخطأ مني وبعض

الصواب معك، ونحن إذا تناقشنا على أساس أن كل واحد منا يفكر في مصلحة وطنه، وأن القضية العربية ليست احتكاراً لواحد منا، عندئذ سنصل معاً إلى الصواب كله! أمّا إذا أصر كل واحد منا على أن الحق معه وحده، فلن نصل إلى تفاهم أبداً!

إن الشعب العربي نضج، وأصبح لا يتلفت إلى المشانق التي ننصبها على ألسنتنا لبعضنا، ولا يهتم بالمدافع الكلامية التي يصوبها بعضنا إلى البعض الآخر، ولا يصدق تهم الخيانة والتواطؤ والثأر والانهزامية والاستسلامية.

الشيء الغريب أن اليهود فيهم ٣٠ حزباً، كل حزب يختلف مع الحزب الآخر، ويعارضه ويهاجمه، ومع ذلك لم نسمع أن يهودياً اتهم يهودياً بالخيانة والعمالة وبيع إسرائيل للأجنبي! وأعجب من ذلك أننا لم نسمع مرة واحدة أن يهودياً أطلق الرصاص على يهودي واحد يخالفه في الرأي!

نحن فقط الذين يقتل بعضنا بعضاً.

ونحن فقط الذين يتهم بعضنا بعضاً بأشد أنواع الخيانة حتى أصبح الغريب عنا إذا قرأ ما تكتبه بعض الصحف العربية يتصور أن الشعب العربي نصفه عملاء لروسيا ونصفه الآخر عملاء لأمريكا!

إن هذه التهم فقدت معناها ومدلولها ولو استمر الحال على هذا المنوال فسوف تصبح مثل صباح الخير ومساء الخير!

يجب أن ينتهي عصر الجاهلية، ويبدأ عصر الحضارة.

أيها المظلوم اصبر!

الذي ذاق الظلم يحس بالمظلوم أكثر كثيراً من الذي لم يعرف الظلم. طعم الظلم مؤلم. يملأ الدنيا سواداً فوق سواد. له مرارة كأنها طعم السم.

ولقد التقيت بمظلوم. وأحسست بتعاسة لا حد لها عندما وجدت أنني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً!

كل ما استطعت أن أقوله: اصبر! وقد صبر وصبر. قلت له إن الله مع الصابرين، والمسكين يعتقد أن الدنيا تخلت عنه فلم يبق بجانبه أحد..

قلت له: إن الأيام علمتني أن الظلم لا يدوم، كما أن الليل لا يستمر إلى الأبد. لا بد أن يجيء النهار وتنال حقك!

سألني: متى يطلع النهار وتنال حقك!

قلت: لا أعرف الوقت بالضبط. ولكن تجاربي في الحياة علمتني أن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة. إن الظلم يبدو كبيراً جداً إذا نظرنا فوق الأرض، ولكن سوف نتبين أنه صغير جداً إذا تطلعنا إلى السماء!

كم من مظلوم قبلك جاءني، وهو يتوهم أنه طرق كل أبواب الدنيا فلم يفتح له باب واحد، وأن أحداً لم يتوقف ليسمع شكواه. وأن

أحداً لم يحقق في ألوف الخطابات والبرقيات التي أرسلها. ثم يحدث فجأة أن خطاباً واحداً يصل إلى قلب رحيم، ويفتح الباب المغلق، وإذا المعجزة تحدث، وإذا بالعدل يجيء سريعاً، وإذا بالظلام ينقشع، وإذا بالله يعوضك على صبرك.

المهم ألاّ تيأس. قاوم الظلم بالإيمان والأمل. إنك بهذين السلاحين تستطيع أن تقهر الظلم وتنهيه. لم يحدث مرة واحدة أن انتصر ظالم على مؤمن، قد يحدث هذا فترة من الزمن، ولكن النهاية تجيء دائماً بانتصار المؤمن المصاب الذي تمسك بحقه، ولم يضعف، ولم يتهاون، ولم يتزلزل إيمانه!

المعارك التي انتصر فيها الظلم قليلة جداً. والمعارك التي انتصر فيها الحق كثيرة جداً.. ولكننا عادة نحصي المآسي ولا نحصي الأحداث السعيدة. نفتح الصحف فنجد فيها صفحة مليئة بالوفيات.. ولا نعرف أننا لو خصصنا مساحة للمواليد فقد نحتاج إلى مائة صفحة كل يوم!

لا تيأس إذا كانت كل الأبواب مغلقة!

أبواب السماء مفتوحة دائماً!

لطفي السيد والطالب العاشق!

كنت طالباً في جامعة القاهرة، وكنت أحرر باب أخبار الجامعة في مجلة «آخر ساعة». وذات يوم جاءني طالب بليسانس إحدى الكليات يبكي. لقد أحب من بعيد زميلة له في البكالوريوس، وكتب لها خطاباً غرامياً يبثها حبه وهواه، وأعطت الطالبة الخطاب لشقيقها الأستاذ بالجامعة، وذهب الأخ الأستاذ وقابل أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة وسلمه خطاب الغرام، واستشاط مدير الجامعة غضباً وقرر فصل الطالب!

وكان الطالب المسكين ابن موظف في مصلحة البريد سيحال إلى المعاش في ذلك العام، وكان يعتمد هو وأبناؤه الستة على مرتب ابنه عندما سيتخرج بعد شهور.. ومعنى فصل الإبن أن الأب والأم والأولاد الستة سيموتون جوعاً!

وذهبت إلى لطفي السيد وسألته هل صحيح أنه «رفت» طالباً لأنه كتب خطاب حب؟

قال: نعم! هذه جريمة!

قلت: ولكن أعرف أنك في شبابك كتبت إلى الكاتبة المعروفة الآنسة مي زيادة عشرات من الخطابات الغرامية، وقد أطلعتني على بعض هذه الخطابات، عندما ذهبت لأحصل على حديث معها..

قال لطفي السيد: ما دامت مي قبلت الخطابات الغرامية فهذه ليست جريمة.. أما إذا رفضت الخطاب الغرامي فهذه جريمة تستوجب

العقاب! وطالبة الكلية رفضت هذا الخطاب الغرامي بدليل أنها سلمته لأخيها.. فهذه إذن جريمة تستوجب العقاب!

وقصصت عليه ظروف الطالب الشاب فقبل أن يعيده إلى الدراسة بشرط أن يعفو عنه الأستاذ شقيق الفتاة. وذهبت إلى الأستاذ في بيته فاستقبلني على الباب، ورفض إدخالي إلى بيته عندما عرف أنني محرر في مجلة «آخر ساعة». وقال لي بجفاء أنه لا يوجد شيء في الدنيا اسمه حب.. وأقفل الباب في وجهي! ومضت سنوات وسنوات. وذات يوم جاءتني سيدة متزوجة وقالت لي أن هذا الأستاذ في الجامعة يحبها بجنون ويلح عليها أن تتطلق من زوجها، وتتزوج منه، وأنها جاءت إلي تستشيرني قبل أن ترد عليه!

وتذكرت موقف أستاذ الجامعة هذا من الطالب المفصول.. وتصورت الشقاء والعذاب والحرمان الذي عاش فيه الأخوة الستة والأب والأم بعد فصل طالب البكالوريوس نهائياً من كلية الآداب.. ووجدت نفسي أقول للسيدة المتزوجة: إذهبي إلى الأستاذ وقولي له أنك سألتني ونصحتك بعدم الطلاق وقلت لك بالحرف الواحد «لا يوجد شيء في الدنيا اسمه الحب».

ومضت سنوات وسنوات. وقابلت في لندن طالب كلية الآداب المفصول بسبب الحب. النار التي عاش فيها صقلته كافح ونجح وتاجر في السيارات وعشق عمله وأصبح مليونيراً، وتزوج وأنجب ثلاثة أولاد وعلم أخوته الستة في الجامعات! أربعون سنة غيرت حياة كل أبطال القصة. لطفي السيد مات. أما أستاذ الجامعة فمات محسوراً ولم يتزوج المرأة التي أحبها ولا أي امرأة أخرى. أما طالبة الكلية فلم تتزوج طول حياتها إلى أن ماتت في العام الماضي!

وعرفت أنه يوجد في الحياة شيء اسمه الحب!

٤٠ سنة رئيساً للتحرير!

منذ أربعين عاماً أصبحت رئيساً للتحرير لأول مرة في حياتي. كان عمري ٢٤ سنة وكان ذلك يبدو حدثاً عجيباً في مصر حتى أن الأستاذ أحمد الصاوي محمد كتب عنه في الصفحة الأولى من جريدة الأهرام. ولم أستمر رئيساً حقيقياً للتحرير أكثر من عام وبضعة شهور إلى أن فرضت الرقابة على الصحافة فأصبح الرقيب هو رئيس التحرير الحقيقي هو الذي يشطب ويضيف وهو الذي يحدد صفحة للنشر وهو الذي يقرر العنوانات ويحدد مساحة النشر وهو الذي ينهي ويأمر أما رئيس التحرير فلا قوة له ولا سلطان.

ورئاسة التحرير في صحف بلادنا مهمة شاقة خطرة، أذكر أن أول مقال وقعته في مجلة آخر ساعة أدى إلى تقديمي لمحكمة الجنايات والحكم علي بستة أشهر مع إيقاف التنفيذ، بتهمة العيب في ولي عهد المملكة المصرية الأمير محمد علي وكثيراً ما كانت حياة رئيس التحرير اليومية هي الذهاب إلى مكتب النائب العام لحضور تحقيق صحفي أو الذهاب إلى محكمة الجنايات متهماً في إحدى القضايا وأذكر أني في عام ١٩٥١ قبض علي ٢١ مرة.. ولكن في كل مرة قدمت فيها إلى القاضي كان يحكم بالإفراج عني مع دفع كفالة تتراوح بين خمسين جنيهاً وثلاثمائة جنيه، ولقد رأست تحرير مجلة آخر ساعة ثم جريدة أخبار اليوم ثم مجلة المصور ثم عشرات الصحف والمجلات وكنت أشعر في كل مرة أن رئيس

التحرير هو الذي يجلس على أكبر خازوق في الجريدة فمفروض أن يكون أول من يدخل الجريدة وآخر من يخرج منها ومفروض فيه أن يقرأ كل حرف فيها ومفروض فيه أن يقرأ أضعاف ما ينشر من مقالات سخيفة وأخبار ضعيفة وإعلانات تافهة ومفروض فيه أن يستقبل كل زائر وأن يحيي كل قارىء وأن يرد على كل تليفون ومفروض فيه أن يتلقى شتائم القراء ويعتذر عن أخطاء لم يرتكبها ومفروض فيه أن يقدم جريدة ترضي كل الأذواق فما يعجب قارئاً يلعنه قارىء آخر. . والرياضي مثلاً يريد أن تكون الجريدة كلها رياضية ويأسف كل الأسف لإضاعة الصفحة الأولى بأخبار الحرب في أثيوبيا. وهواة الفن يتمنون أن تكون صورة سعاد حسني في كل صفحة بدلاً من البرقيات والأخبار المحلية. وهواة الشعر يأسفون لانحطاط مستوى الجريدة المكتوبة نثراً، ومطلوب من رئيس التحرير أن يرضي هؤلاء ويرضي المحررين. . ويرضي صاحب الجريدة!

أحمد الله أنني لم أعد رئيساً للتحرير!

إمرأة من أشجع الرجال!

كانت السيدة روز اليوسف من أشجع الرجال الذين قابلتهم في حياتي!

كانت امرأة جريئة لا تخاف. إذا أقدمت لا تتراجع. وإذا هاجمت لا تعتذر. وإذا وقعت على الأرض رفضت أن تسلم سلاحها.

وعندما أصدرت مجلتها في عام ١٩٢٥ لم تتصور أنها ستكون من أهم المجلات السياسية العربية، قالت لي مرة وهي تضحك أنها أصدرت المجلة وهي لا تريد إلا أن تهاجم يوسف وهبي صاحب الفرقة التي كانت هي ممثلتها الأولى!

وأصرت أن تسمي مجلتها «روز اليوسف» واعترض جميع أصدقائها على هذه التسمية، وقالوا لها أنه لم يحدث أن أحداً أطلق اسمه على مجلة يملكها، فقالت لهم أن الصحفي المشهور سليم سركيس أصدر مجلة وأسماها «مجلة سركيس» وأصبحت أكثر مجلة شهرية انتشاراً في مصر أثناء الحرب العالمية الأولى!

وخضع أصدقاؤها أمام إصرارها. واشترك في تحرير العدد الأول كل الكتاب المعجبين بالممثلة الأولى روز اليوسف وهم عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وابراهيم رمزي ومحمد لطفي جمعة ومحمد التابعي وأحمد رامي ولكن الجماهير التي كانت تلهب أكفها تصفيقاً

لروز اليوسف وهي تمثل على مسرح رمسيس دور مرجريت جوتيه في غادة الكاميليا، أدارت ظهرها لروز اليوسف المجلة، ولم يعجبها الشعر والأدب وهبط التوزيع إلى خمسمائة نسخة أسبوعياً منها ١٥٠ نسخة اشتراكات، وصمدت روز اليوسف وقاومت ومعها محمد التابعي إلى أن جعلت مجلتها أشهر مجلة سياسية في الشرق الأوسط وأكبر توزيعاً بعد ذلك بثلاث سنوات فقط! وقد عملت مع روز اليوسف، وكانت تحمل ميزانية المجلة في حقيبتها. وتدفع المرتبات من كيس نقودها. رأيتها وهي تقاوم الحكومات وتصمد أمام التهديد والوعيد، وتتحدى مصادرة الأعداد، وتهزأ بالانذارات اليومية حتى تفلس فلا تركع . . . وكانت الضربات تنهال على رأسها فتزداد ثباتاً، وجبال «المرجوع» تعود إليها فوق عربات الكارو عندما أضرب الناس عن قراءة مجلتها، وهي ماضية في خطتها السياسية، ترفض أن تمشي وراء الجماهير . . وراًيتها وهي تواجه النائب العام ومحاكم الجنايات، فلا تتصور أن امرأة صغيرة بهذا الحجم تستطيع في الأحداث الهائلة أن تكبر وتكبر حتى تصبح أضخم من الأحداث!

كان في داخل هذه المرأة ألف رجل!

ومع ذلك كانت امرأة ساحرة جميلة كلها أنوثة وكلها جاذبية، وكلها حنان . .

الوزراء أمام محكمة الجنايات!

ستحدد محكمة جنايات القاهرة موعداً في القريب لمحاكمة وزير الطيران السابق أحمد نوح ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الاقتصاد السابق محمد عبد الله مرزبان لأنهما تسببا بخطئهم الجسيم في إلحاق ضرر جسيم بالدولة كلفها ١٣ مليون دولار.

وليست هذه أول مرة يحال فيها وزير مصري إلى محكمة الجنايات . .

فقد أحيل الدكتور أحمد ماهر وزير المعارف السابق في وزارة سعد زغلول ومحمود فهمي النقراشي وكيل وزارة الداخلية السابق إلى محكمة الجنايات بتهمة اغتيال الإنجليز في ثورة ١٩١٩ وبرأتهما المحكمة.

وأحيل محمد محمود باشا رئيس الوزراء السابق إلى محكمة الجنايات لأنه خطب وقال أن حكومة اسماعيل صدقي لا ترضاها أمة من البغايا . . ولم يصدر حكم في القضية، وإنما أجلت إلى أجل غير مسمى . .

وأحيل مصطفى النحاس باشا إلى محكمة الجنايات لأنه اتهم الدكتور أحمد ماهر باشا وزير المالية في ذمته، ولم يصدر حكم في هذه القضية أيضاً.

ومن أطرف القضايا أن حفني محمود باشا كان رئيساً لتحرير

السياسة واتهم وزير الزراعة ووزير الأشغال في وزارة اسماعيل صدقي باشا بالرشوة واستغلال النفوذ.

وقدمت النيابة حفني محمود إلى محكمة الجنايات.. وبدل أن تصبح القضية محاكمة للكاتب تحولت إلى محاكمة للوزيرين وجاء الشهود من رؤساء الوزارات والوزراء يشهدون في المحكمة ضد الوزيرين ومع رئيس التحرير!

وأصدرت محكمة الجنايات حكمها ببراءة رئيس التحرير، وخرج الوزيران من الوزارة، ولم يدخلا وزارة بعد ذلك!

ومنذ ذلك اليوم لم يعد الوزراء يقدمون رؤساء التحرير في مصر الذين يهاجمونهم إلى محكمة الجنايات!

ولكن كثيرين من رؤساء مصر دخلوا السجن وعلى رأسهم أنور السادات وأحمد ماهر والنقراشي وابراهيم عبد الهادي ونجيب الهلالي وعلي صبري، ومن الوزراء حافظ عفيفي وحامد جودة وشمس بدران وشعراوي جمعه وسامي شرف ومحمد فائق وعشرات غيرهم...

وبعد أن كان المثل يقول «السجن للجدعان»... أصبح المثل يقول «السجن للوزراء»!

وهذا هو السر في أن كثيرين يترددون في دخول الوزارة!

لا ديموقراطية بلا معارضة!

لا ديموقراطية بلا معارضة. فإذا غابت الديموقراطية غابت المعارضة، وإذا جاءت الديموقراطية جاءت معها المعارضة.

ولكن الديموقراطية لا تستطيع أن تزاول عملها بغير حرية صحافة، والمعارضة بغير حرية صحافة، هي مصباح كهربائي بغير كهرباء!

ولا يمكن أن تكتفي المعارضة بشرح وجهة نظرها في البرلمان، فمن الذي يوصل رأي المعارضة إلى الشعب؟

ولقد رأينا في عصور الاستبداد أن الصحف الخاضعة للحكومة كانت تحذف كلمات المعارضين أو تختصرها، وأحياناً كانت تعبث بها، وتضع في أفواه المعارضين ما لم يقولوه!

ولقد حدث في وقت من الأوقات أن كانت المعارضة مؤلفة من شخص واحد، وكان هذا الشخص الواحد هو يوسف الجندي عضو مجلس الشيوخ المعارض!

ولكنه وحده كان يهز الحكومة، وكانت الحكومة تحسب حساب كل كلمة ينطق بها، أو كل استجواب يقدمه لرئيس الوزراء.

ذلك أنه كان للمعارضة صحف يومية ومجلات أسبوعية تنقل إلى قرائها ما يقوله يوسف الجندي فتقرؤه الملايين!

وكان سعد زغلولْ زعيم الأغلبية الساحقة في البرلمان المصري، وكان يعارضه عبد اللطيف الصوفاني وثلاثة أو أربعة من النواب. . .

ولكن كانت خلفهم جرائد السياسة واللواء والعلم والأخبار، تحمل لواء المعارضة وتهاجم سعد زغلول رئيس الوزراء بعنت وقسوة، وكان صوتها عالياً كأنه صوت الأغلبية. . . .

ففي الديموقراطية يستطيع معارض واحد أن يرفع صوته ليصل إلى نفس الدوي الذي يحدثه صوت الملايين!

ومن أجل هذا فإننا نلاحظ في الانتخابات البريطانية أن المعارضة تأخذ في الإذاعة والتلفزيون ضعف الوقت الذي تأخذه الحكومة، بمعنى أنه يحدد لممثل الحكومة نفس عدد الدقائق التي تعطى لممثل حزب المحافظين، ونفس عدد الدقائق التي تعطى لممثل حزب الأحرار. .

إن المعارضة هي صوت الحرية!

ويوم تغيب الحرية يموت صوت المعارضة!

لو دخلت الديموقراطية إلى إيران لما خرج شاه إيران!

لو أن شاه إيران أدخل الديموقراطية إلى بلاده منذ خمس سنوات لما وجد نفسه اليوم جالساً فوق بركان.

ولكنه تصور أنه إذا أقفل النوافذ والأبواب فلن يصاب الحكم بالإنفلونزا. . . وإذا به يحمي بلاده من الريح، ولكن العواصف والأعاصير تقتلع النوافذ وتحطم الأبواب!

لقد اعتقد الشاه أن إنشاء حزب واحد وتحريم قيام الأحزاب سوف يقضي على المعارضة، وسوف يكتم الصوت الآخر. ولكن المعارضة تزداد بالقمع وتتضاعف بالعنف، وتنتشر تحت الأرض أسرع كثيراً مما تنتشر فوق الأرض!

إن كتمان صوت المعارضة لا يخرسها إنما يحرم الحاكم من سماعها وهي تهمس، فينقلب همسها إلى زئير، وتكميم الصحف الحرة لا يغطي عيون الشعب بل هو يحرم الحاكم من الرؤية الصحيحة فلا يرى الشعب وهو يتقدم نحوه، وإنما يراه فقط وهو ينقض عليه.

الديموقراطية كانت تستطيع أن تحمي الشاه أكثر ألف مرة من حرسه الخاص، وأكثر ألف مرة من جيشه الموالي، وأكثر ألف مرة من أجهزة الأمن والمخابرات. فإننا عندما نقفل النوافذ لا نمنع الشعب من

أن يرى ما نفعل، وإنما نحرم أنفسنا من أن نرى ما يفعل الشعب، وعندما نحطم الأقلام لا نمنع ضوضاء النقد وإنما نحطم الفوانيس التي تنير لنا ظلام الحكم . . .

إن الشاه قام بإصلاحات ضخمة وعظيمة في بلاده، ونقلها من القرون الوسطى إلى القرن العشرين، وضاعف ثروتها، وأقام فيها ناطحات السحاب. . ولكن كل هذا في نظر الشعب لا يساوي نسمة من الحرية!

إن كوخاً في الحرية أسعد كثيراً من ناطحة سحاب في الاستبداد فلا تزال الحرية هي أثمن شيء لدى الإنسان، ولم تستطع أموال الدنيا كلها وكنوزها أن تعوض الإنسان عن الحرية . .

والذي يحدث في إيران الآن هو درس لكل حاكم يتصور أن الشعوب تتأدب إذا كممت، وتنتظم إذا قيدت بالسلاسل والأغلال!.

كيف ترشو وزيراً؟!

بدأت دول كثيرة تهتم بمقاومة الانحراف واستغلال النفوذ، فالشعوب تغفر كل ذنوب الوزير، ولكنها لا تغفر له أنه أثرى على حسابها، أو نهب أموالها، أو ارتشى ليدفع المواطن من قوته وقوت عياله ثمن رشوة الوزير. . والشعوب عندما تكتشف الانحراف تغضب، ويحس كل مواطن أن الوزير سرق هذه المبالغ من جيب كل مواطن لا من خزانة الدولة وحدها. . .

وفي الماضي كانت رشوة الوزير هي فتاة لعوباً حسناء تأخذ بقلبه وتأخذ مع عقله عقداً للشركة التي تمثلها، أو كانت الشركة تهدي ابنه سيارة أنيقة أو تهدي زوجته خاتماً ثميناً. . وقد حدث أن أخرجت وزارة المال وكيلاً برلمانياً من منصبه لأنه ارتشى بصندوق ويسكي وصندوق سيجار!

وأعرف منذ سنوات طويلة وزيراً أميناً نزيهاً عفيفاً، أراد أحد رجال الأعمال أن يرشوه فعرفه بمطربة معروفة، ووقع الوزير في هوى المطربة، وجن بها ولكنه لم يفقد نزاهته. . . وأوعز المقاول للمطربة أن تقيم حفلات للعب القمار، وعلمت الوزير العفيف القمار، وكان المقاول يتعمد أن يخسر للوزير باستمرار. . . ثم بدأ الوزير يخسر ويخسر وغرق في الدين، وتقدم المقاول يسدد ديونه، وهكذا فقد الوزير تدريجياً عذريته، وبدأ يحابي المقاول، وكانت فضيحة خسر فيها الوزير سمعته

ومستقبله . . ومات الوزير المسكين فقيراً معدماً منبوذاً ولم يكلف المقاول نفسه بأن يمد له يده في محنته بعد أن خرج من الوزارة!

ويروون أن في إحدى دول أمريكا اللاتينية التي اشتهر فيها وزراؤها بالانحراف، أن جاء رجل أجنبي ليعقد صفقة مع وزير الأشغال. وسأل رجل الأعمال ممثله المحلي في العاصمة عن الطريقة التي ينصحه بها ليحصل على الامتياز المطلوب. فقال له الوكيل أن كل شيء في هذه الوزارة يكون برشوة الوزير! وقال رجل الأعمال الأجنبي أنه لم يسبق له رشوة وزير فما هي الطريقة؟ فقال له الوكيل خذ نقوداً وضعها في حقيبة يدك، واذهب وقابل الوزير، ثم تصرف بعد ذلك. وذهب رجل الأعمال الأجنبي واستقبله الوزير بالترحاب. وحدثه رجل الأعمال عن الامتياز المطلوب فأبدى الوزير استعداده لدراسة المشروع . . . وهنا دق جرس التليفون، وأمسك الوزير السماعة وبدأ يتحدث، وانتهز رجل الأعمال الأجنبي الفرصة وفتح الحقيبة وأخرج منها رزماً فيها عشرة آلاف دولار، ورماها تحت قدم الوزير. وبعد أن انتهى الوزير بعد المحادثة التليفونية قال له رجل الأعمال الأجنبي:

– بينما كنت سعادتك تتكلم في التلفون سقط من جيبك عشرة آلاف دولار!

وقال سعادة الوزير:

– أبداً . . . الذي سقط من جيبي هو مائة ألف دولار!

المنافقون الشطار

أعرف قوماً نبغوا في ركوب الموجة. كل موجة. يفطرون مع الشيوعيين ويتغدون مع الاشتراكيين ويتعشون مع الرأسماليين! يغيرون جلودهم في كل فصل سياسي ويتلونون بلون كل حاكم، ويتحولون مع اتجاه الريح!

وهم يعتبرون هذا التذبذب خفة دم، وهذا النفاق شطارة، ويسمون المتمسكين بمبادئهم مجانين مكانهم مستشفيات الأمراض العقلية!

وعندما يرتفع مستوى الحكم يهبط مستوى المنافقين، ولكن عندما يهبط مستوى الحكم يرتفع شأن المنافقين ويهبط سوق أصحاب المبادىء. . . فلا مكان للمؤمنين في كباريهات السلطان، فالمواطن الذي يعتنق مبدأ سياسياً إنما هو أشبه بمن يؤدي الصلاة، ولا يستطيع المؤمن أن يصلي في ناد ليلي بين رقص الراقصات وهز البطون!

ومن أجل هذا تروج بضاعة المنافقين والمذبذبين في المجتمعات المنحرفة. ويصبح لا مكان للرجل الشريف المتمسك بمبادئه والمؤمن بالمثل العليا. مثل هذا الرجل يوضع على الرف ولا يؤمن به. ولا يطمئن أصحاب السلطان إليه. فهو خارج على قانون الغابة، حيث الشرع المعترف به أنه لا مبادىء ولا أخلاق ولا مثل عليا. كلما انحط الإنسان ارتفع، وكلما علا هوى إلى الحضيض. السارق عبقري، والأمين عبيط.

المنافق فيلسوف والمؤمن ثقيل الدم أو مغفل أو رجل لا يفهم لغة العصر الذي نعيش فيه!

ولكن كل هذا الهوان مؤقت، فلا يلبث أن ينتهي الليل ويجيء النهار فيرى الناس ما أخفاه الظلام، وتميت أشعة الشمس كل الحشرات والميكروبات التي فقست وباضت في الظلام!

لو أن هؤلاء المنافقين عباد الشمس كانوا أذكياء لعلموا أن النزاهة تدر مالاً، وأن الأمانة تدر ذهباً. . . وقد يحتاج هذا إلى بعض الوقت وإلى بعض الصبر وإلى بعض الصمود. . . ولكن في نهاية الأمر تربح النزاهة كأنها سند يكسب عشرات الألوف وتستطيع أن تشتريه بريال واحد!

الذين يبهرون بما استطاع أن يصل إليه هؤلاء الشياطين من ثروة وجاه، ومن مال حرام، عليهم أن ينتظروا حتى يقرأوا الصفحة الأخيرة والسطر الأخير!

إن المال الحرام له لعنة مؤكدة. . لا ينجو منها إلاّ الأشراف!

كيف نحرر الكلمة العربية؟

كيف نحرر الكلمة العربية من زنزانة الخوف ومقصلة الإرهاب وسياط عبادة الفرد؟ المسؤول عن جمود الفكر العربي ليس هو المفكر العربي، وإنما المسؤول عن ذلك هو الذي وضع الفكر العربي في القيود والأغلال!

كيف نفسر أن الفكر العربي انطلق في عهد الاحتلال الأجنبي، وانكمش في عهد الاستقلال الوطني؟ كيف نفسر أن خير كتابنا وأعظم مفكرينا ازدهروا وهم يقاومون شرور الاحتلال، وذبلوا وتضاءلوا وهم يستمتعون بخيرات الاستقلال!

السر في ذلك أن الشعب العربي لم يقدس حرية المواطن، وأنه طالب بالحرية وهو يحارب الأجنبي، ونسيها في ظل الحكم الوطني. بل كان البعض منا يقول للباكي من لسعة الكرباج لا تبك ولا يقول لحامل الكرباج لا تضرب! كان البعض منا يبرر شنق المعارضين وإبادة المخالفين متوهماً أنه يكفي أن تنادي دولة بتحرير الأمة العربية حتى يباح لها حق استعباد المواطن العربي؟

ومن أجل هذا توارت الكلمة الحرة، أما خجلاً وأما خوفاً ورعباً، ومشت الكلمة المقيدة في مواكب الظلم وسط الطبل والزمر.

جاء وقت كانت فيه كلمة الحق خيانة، وكلمة الباطل وطنية، كانت مناقشة الرأي خروجاً على الخط الوطني، وانتقاد تصرف من

تصرفات حاكم عمالة استعمارية تستحق لعنة الوطنيين من الخليج والمحيط..

وبسبب هذا الإرهاب الفكري انتشرت الكلمات الجوفاء ودوت الطبول الفارغة، واختفت العقول المفكرة... فهذه العقول لا تلد الأفكار العظيمة إلاّ عندما تصطدم بعقول أخرى، ويخرج من هذا الاحتكاك الشرار الذي يضيء طريق الإنسانية.. ولكن يوم تحرم المناقشة ويمنع الحوار ويفرض الرأي الواحد تنتشر السطحية، وتختفي العبقرية ويصاب الأدب بالسقم، فالمجتمع يتحول إلى قطيع، والفكر ينقلب إلى بلاغات رسمية، والكلمات تفقد معانيها، والتاريخ يصبح أناشيد في الإذاعة، أو تصبح أناشيد الإذاعة هي حقائق التاريخ!

إن الكلمة العربية لا تحرر إلاّ بالحرية! وإلاّ فسوف تبقى مسجونة في زنازين الرقابة والقيود والأغلال.

والمسجونون المكممون المقيدون لا صوت لهم!

ضرب رئيس التحرير «بالجزمة»!

روى لي صديق أثق بصدق روايته أنه كان يجلس في مكتب مسؤول في بلد عربي شقيق وجرى حديث عن صحافة هذا البلد، فإذا بالمسؤول يقول: إذا لم يلتزم رئيس التحرير بالتعليمات فليس أمامي إلاّ أن أضرب رئيس التحرير «بالجزمة»!

وليس ذنب مثل هذا المسؤول أن يهدد كبار أصحاب القلم في بلاده بالجزمة، وإنما ذنب الذين وضعوا أمثال هذه الشباشب والقباقيب والأحذية القديمة في مقاعد المسؤولين!

إن الذين ضربوا أصحاب الأقلام بالأحذية ديسوا بعد ذلك بالأقدام.. فأقلام كل أمة هي تيجانها التي تزين رؤوسها، وعندما توضع التيجان مكان الأحذية، فهذا دليل على أن الأحذية نفسها هي التي أصبحت في مكان الرؤوس!

وإذا أردت أن تعرف احترام أمة فاعرف أولاً قيمة الكاتب فيها، فإذا وجدت الكاتب في مؤخرة الصفوف فاعلم أن هذه أمة في مؤخرة دول العالم.

وإذا كان كبار الفراعنة يخلدون ذكراهم بتماثيلهم، فإن آثار كبار الكتاب الأحرار هي تماثيلهم التي ستبقى على مر الزمن وسوف ينسى الإنجليز أسماء أغلب رؤساء وزارات إنجلترا ولكنهم سيذكرون دائماً

اسم شكسبير وبرنارد شو، وفي فرنسا لا يذكر الناس أسماء ثلاثة أرباع رؤساء حكومات فرنسا، ولكنهم يذكرون أسماء فيكتور هيجو وفولتير وأناتول فرانس!

فإذا جاء مسؤول في أي بلد من البلاد وتوهم أنه قادر أن يضرب بحذائه كاتباً، فهذا دليل على أنه هو ليس أكثر من فردة حذاء قديم!

صحيح أن في سنوات القهر والكبت تعرض الكتاب في البلاد العربية إلى المهانة على أيدي الحكام حملة السياط وتلاميذ مدرسة الإرهاب. وسمعنا عن صحفي ينقل إلى مصنع أحذية، وصحفي ينقل إلى مصنع سردين وسكرتير تحرير ينقل إلى محل عمر أفندي. وسمعنا عن كاتب يشنق لأنه ألف كتاباً، وعن صحفيين أمضوا أحلى سنوات عمرهم في المنافي والسجون. . . ولكن كل هذا الاضطهاد لم يستطع أن يهون من شأن الكاتب. إن الكاتب الذي علقوه فوق المشنقة مات وحذاؤه أعلى من رؤوس الذين شنقوه!

ليس من حق «المراكيب» أن تهدد الكتاب!

حتى ولو كان «المركوب» جالساً فوق مقعد الوزير!

أين تولد العبقرية؟!

هل العبقرية تتفتح في البذخ والثراء، أم تتفتح في العذاب والحرمان!

هل صوت أم كلثوم كان أحلى، وهي راكبة الحمار تطوف قرى مصر لتجمع قروشاً تعيش بها أسرتها الفقيرة المعدمة، أم أن صوتها أصبح أحلى وهي مليونيرة تعيش في شبه قصر على النيل وتملأ خزائنها بأغلى المجوهرات في العالم؟!

إنك لا تستطيع أن تضع قاعدة لنمو العبقرية. كان شعر أمير الشعراء أحمد شوقي في منفاه أعظم وأروع مما هو عندما كان أقرب رجال الحاشية إلى الخديو عباس، وعندما كانت الأموال تنهال عليه من تجارة الرتب والنياشين!

ولكن الموسيقار محمد عبد الوهاب وضع أروع ألحانه عندما أصبح يعيش كالأمراء، وعندما أصبحت تتناول الطعام على مائدته وكأنك تتناول الغداء على مائدة أحد السفراء!

فعبد الوهاب الفقير المعدم لم يبدع كما أبدع عبد الوهاب الثري الأمثل!

وكنا نسمي الشاعر عبد الحميد الديب شاعر البؤساء فقد كان لا يجد ثمن طعامه، وإذا وجد ثمن الطعام فضل أن يشتري به خمراً على أن

يشتري به خبزاً وغموساً! وكان يقول أنه أصبح كل الأثاث في بيته، فقد باع كل ما في بيته من أثاث ولم يبق إلا هو. وكان يشكو بؤسه وجوعه وحرمانه وله بيت من الشعر يقول فيه «كأني حائط كتبوا عليه. . هنا أيها المزنوق طرطر!» فقد تصور نفسه حائطاً يتبول عليه الناس!

وخطر في بالنا في يوم من الأيام أنه لو أكل هذا الشاعر ووجد مكاناً يستريح فيه فسوف يبدع أعظم مما أبدع ويكتب أروع مما كتب من شعر. واتفقنا على أن نأخذه إلى عزبة الصديق أحمد الألفي عطية وكان من أسرة تملك ألف فدان. ووضعنا الشاعر البائس في غرفة فاخرة بها وسادة من ريش النعام ولحاف مطرز بالحرير وستائر موشاة بماء الذهب. إذا دق جرساً واحداً جاء الخادم يحمل أفخر المشروبات، وإذا دق جرسين جاء السفرجي يحمل صينية من الفضة عليها الديوك والحمام واللحم والخضراوات، وإذا دق ثلاثة أجراس جاءت خادمة جميلة تحمل الفاكهة والحلوى مما لذ وطاب!

ومضى أسبوع وعبد الحميد الديب يدق الجرس مرة ومرتين وثلاث مرات، وفي نهاية الأسبوع دخلنا عليه فوجدنا أنه لم يكتب بيتاً واحداً من الشعر، وقال لنا أنه يريد أن يعود إلى غرفته الحقيرة في القاهرة ليجلس على الأرض وينظم الشعر من جديد! وجاع عبد الحميد ليلة واحدة وفي الصباح كان قد أتم قصيدة من مائة بيت يهجو فيها صديقنا أحمد الألفي عطية، الذي عامله معاملة الملوك فأجدب وعجز عن نظم كلمة واحدة في بيت واحد من الشعر!

وعندما عاد صعلوكاً من جديد نظم وأبدع وتألق!

العبقرية ليس لها قاعدة. . ولو كان لها قاعدة لما كانت عبقرية!!

رسالة دكتوراه

قرأت رسالة دكتوراه مقدمة لقسم الصحافة بكلية الإعلام بجامعة القاهرة، عن موقف الصحف اليومية في مصر من قضايا الفكر الديني. وهي رسالة ممتازة نال عليها الدكتور منير حجاب مدرس الصحافة بكلية آداب سوهاج في جامعة أسيوط شهادة الدكتوراه.

وقد قدم المؤلف توصيات ومقترحات طالب فيها الصحف أن تخصص صفحة يومية للفكر الديني بالإضافة إلى ملحق ديني تقوم الصحف بإصداره في المناسبات الخاصة مثل شهر رمضان وأيام الجمع وأن تبادر إلى إنشاء وكالة أنباء إسلامية، وأن توفد الصحف مندوبين إلى بلاد العالم الإسلامي لتغطية أنبائه وغير ذلك.

ولكن أهم ما تقترحه في رأيي أن تستخدم الصحف كافة أساليب الفن الصحفي وطرق الإقناع التي تزيد من تأثيرها.

فالذي نلاحظه أن بعضنا يكتب في المسائل الدينية بنفس الأسلوب الذي كنا نكتب به منذ ألف سنة، وهكذا لا يستطيع أن يفهمنا ملايين من البشر، فليست البلاغة هي الفصاحة فقط، وإنما البلاغة هي إبلاغ أكبر عدد من الناس وإقناعهم وإفهامهم. فالعالم اليوم يعيش في عصر السرعة، وهو يكره التطويل ويمقت الإفاضة، ولا وقت عنده ليضيعه في مقال في ألف سطر يمكن كتابته في عشرة سطور! وقد تدهش إذا علمت أن الاختصار في الكلام يحتاج إلى وقت أطول مما تحتاج

له الإفاضة. وقديماً كتب سعد زغلول إلى أستاذه الشيخ محمد عبده يقول «أغفر لي الإطالة، فلا وقت عندي للاختصار» فالمطلوب اليوم أن نكتب في الدين بلغة بسيطة سهلة، يفهمها كل قارىء بغير حاجة إلى أن يستعين بقاموس، ومطلوب منا في الوقت نفسه أن نحمي الدين من الشعوذة والقصص الخرافية، ففي عصر العلم والذرة والعقل الألكتروني لا يجوز أبداً أن نروي للناس قصصاً غير معقولة، وأساطير مخترعة، لا أساس لها في القرآن أو في السنة فمثل هذه القصص المكذوبة لا تزيد الناس إيماناً بل أنها تعطي أسلحة للملحدين ليحاربوا بها الدين، والدين ليس في حاجة إلى أكاذيب تسنده، فإن حقائقه وحدها هي التي جعلته يصمد لحركات التشكيك والعبث والإلحاد.

إن كتاب العقاد عن عبقرية محمد وعبقرية أبي بكر وعبقرية عمر وعبقرية عثمان وعبقرية علي وعبقرية خالد يحتاج إلى إعادة كتابته بلغة سهلة ليفهمه الأطفال، وهذه الكتب في رأيي خدمت الدين أكثر ألف مرة من كتب تحوي الخرافات والخزعبلات والشعوذات والعبارات غير المفهومة!

ديننا لا يحتاج إلى مترجمين له.. يترجمونه من العربية المفهومة إلى العربية غير المفهومة!

في الماضي كانوا يقولون إن فلاناً كاتب بليغ لأن مقاله لا يفهمه إلا ثلاثة قراء في مصر!

واليوم يقولون إن فلاناً كاتب بليغ لأن مقاله يفهمه كل قراء اللغة العربية في العالم!

أبحاث.. لا طلبات استخدام!!

لن تكون لدينا جامعات بالمعنى المفهوم لكلمة جامعة إلا إذا اقتنعنا أن الغرض من الجامعة هو الأفكار الحرة والأبحاث الحرة..

فالجامعة لا تعرف القيود والأغلال، ولا تعرف الأساتذة الخائفين المتزلفين للسلطة الذين يؤلفون كتبهم وأبحاثهم وكأنها التماسات لطلب الترقية أو للحصول على درجة أعلى.

وقد رأينا في بلادنا أساتذة يفلسفون الطغيان، ويبررون الإرهاب، ويدافعون عن التعذيب، ويشيدون بحكم الفرد، ويعتبرون السجون والمعتقلات حصون الحرية!

ورأينا حكومات تطارد الأساتذة التي يخالفونها في الرأي، وتفصل الأساتذة الذين يعارضون سياستها، أو الذين يسمون الجهل جهلاً، ولا يطلقون عليه «فلسفة»! ويسمون الظلم ظلماً ولا يدللونه ويسمونه «العدل الاجتماعي» ويسمون المشانق مشانق ولا يدعون أنها علامات في طريق الحرية!

إننا نذكر أن رئيس وزراء إنجلترا عرض ذات يوم منصب وزير على أستاذ في جامعة أكسفورد.. فرفض الأستاذ وقال إن منصب الأستاذ في جامعة أكسفورد أعلى كثيراً من منصب الوزير!

ولكننا رأينا أساتذة يتركون الجامعة عند أول إشارة، ويتكالبون

على الوظائف، وقد كانت النتيجة أن خسرت الجامعات بعض أحسن أساتذتها، ولم تكسب المناصب شيئاً، ولقد رأينا عشرات الأساتذة يتولون الوزارة في بلادنا، ولم يكتب واحد منهم كتاباً عن تجربته في الوزارة، ولم يجرؤ واحد منهم أن يكتب مثلاً عن قصته في الوزارة، وكيف دخل، وكيف طرد! لماذا؟ لأنه بعد أن خرج من الوزارة يريد أن يعود إليها من جديد، ويخشى إذا فضح ما رآه أن يصبح مغضوباً عليه فلا يدخل الجنة من جديد!

عندما تألفت هيئة التحرير رأينا أساتذة في الجامعة يؤلفون الأبحاث التي تثبت أن هذه الهيئة التي لفقتها الحكومة هي أحسن هيئة ديموقراطية في العالم، وعندما فشلت هيئة التحرير وتألف الاتحاد القومي وجدنا نفس الأساتذة يؤلفون الكتب والأبحاث عن فلسفة الاتحاد القومي وأثره في التقدم الديموقراطي ويلعنون هيئة التحرير! وعندما فشل الاتحاد القومي وتألف الاتحاد الإشتراكي وضعوا بالمجلدات التي تشيد بأن الاتحاد الاشتراكي هو أعظم ما وصل إليه الفكر الديمقراطي!

نريد أبحاثاً علمية جامعية . . . لا طلبات استخدام أو طلبات ترقية إلى أعلى الدرجات!

هذه هي مهمة أساتذة الجامعات!

الوزراء الشعراء

في وقت من الأوقات كان الشعراء يتولون الوزارة في بلادنا . .

كان محمود سامي البارودي باشا رئيس الوزراء في ثورة عرابي شاعراً. وكان نجيب الغرابلي باشا وزير العدل في وزارة سعد زغلول شاعراً، وكان توفيق رفعت باشا وزير الحربية والبحرية والطيران في وزارة اسماعيل صدقي باشا شاعراً كذلك!

وكان واصف بطرس غالي باشا وزير الخارجية في وزارة سعد زغلول ووزارات النحاس المتعاقبة شاعراً . . . ولكنه كان شاعراً باللغة الفرنسية، وتولى ترجمة قصائد أمير الشعراء شوقي إلى اللغة الفرنسية.

وكان محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية في وزارة النحاس شاعراً. وقد ألف ديواناً من الشعر وصف فيه الأحداث السياسية في مصر . . . وقد نظم هذا الشعر في الوقت الذي كان لاجئاً سياسياً في الجزائر والكويت!

وبعد هؤلاء لم يدخل شاعر واحد إلى الوزارة في مصر، وقد يكون السبب في ذلك سقوط دولة الشعر، فبعد شوقي وحافظ ابراهيم والعقاد وعلي محمود طه وابراهيم ناجي انقرض الشعراء الكبار!

وكانت قصيدة شوقي أو حافظ إذا نشرت في جريدة يومية رفعت

توزيعها أربع مرات، وكانت جريدة الأهرام وجريدة السياسة تتنازعان قصيدة شوقي!

وكان أول خلاف بين الدكتور أحمد ماهر والنحاس قصيدة شعر، فقد ألقى عباس العقاد قصيدة في المؤتمر الوفدي، وحاول الدكتور ماهر أن ينتزعها لينشرها في جريدة كوكب الشرق التي يشرف على إدارتها، وحاول توفيق دياب أن ينتزعها لينفرد بنشرها في جريدة الجهاد التي يملكها. وتضارب الوفديان الكبيران في المؤتمر. ولم يؤيد النحاس الدكتور ماهر على الرغم من أنه كان أحد زعماء الوفد البارزين، وكان توفيق دياب وفدياً جديداً. وهنا حدث أول خلاف بين أحمد ماهر وصديقه مصطفى النحاس!

وكان سعد زغلول يهتم بالشعر والشعراء وينقد شعرهم في مجالسه، وكان محمد محمود باشا رئيس الوزراء السابق يحفظ الشعر ويرويه، وكان النقراشي أحد رواة شعر شوقي.

ولم تعد الصحف اليومية تنشر الشعر إلا في المناسبات ولم يحدث منذ أكثر من عشرين عاماً أن نشرت جريدة يومية في مصر قصيدة شاعر في صفحتها الأولى ومنذ خمسين سنة كانت كل قصيدة لشوقي وحافظ.. ولعلي محمود طه تنشر في الصفحة الأولى!

هل مات الشعر.. أم هبط من الصفحة الأولى إلى الصفحات الأخيرة!..

سكرتيرو العظماء

كل سكرتير لزعيم سياسي أو لوزير كبير ألف عنه كتاباً ممتازاً حلل فيه شخصيته، ودرس أخلاقه، وكشف جوانبه المجهولة.

هكذا فعل سكرتير الزعيم الفرنسي كليمنصو، وسكرتير روزفلت، وسكرتير لويد جورج، وسكرتير ونستون تشرشل، ومئات غيرهم.

ولكن في البلاد العربية رأينا سكرتيرين قلائل جداً كتبوا عن الرجال الكبار الذين عملوا معهم، ولا نعرف بين الزعماء المصريين أحداً من سكرتيريهم ألف كتاباً واحداً عنهم، فيما عدا الزعيم سعد زغلول الذي ألف عنه سكرتيره محمد كامل سليم كتابين ممتازين وسكرتيره محمد ابراهيم الجزيري الذي ألف كتاباً «آثار الزعيم سعد زغلول»..

وكان الفرنسيون يطلقون على السكرتير أو مدير المكتب لقب «الوزير الصغير» فإن أكثر الوزراء الذين لمعوا بدأوا حياتهم سكرتيرين لشخصيات عظيمة. وتعلموا منهم وتقدموا الصفوف واستطاعوا أن يحتلوا مراكز ضخمة، كما فعل أنطوني إيدن الذي كان سكرتيراً لأوستن تشمبرلين وزير الخارجية البريطاني..

ولكن ساسة اليوم يفضلون أن يكون السكرتير رجل تشريفات، يحدد المواعيد، ويستقبل الزوار، ويرد على التليفونات، وبعض الوزراء

كان يستعمل السكرتير في شراء اللحم والخضار من السوق أو في حمل حذاء الهانم زوجة الوزير إلى محل إصلاح الأحذية!

وإعداد السكرتير الممتاز مهمة شاقة، تحتاج إلى تعليم ومران وتدريب، ولقد رأيت الزعيم سعد زغلول يقرأ مذكراته الخاصة على سكرتيره الخاص كامل سليم، وكان يخبره بصراحة في رأيه في معاونيه من كبار الزعماء والوزراء، وكذلك كان يفعل مع سكرتيره الأستاذ محمد ابراهيم الجزيري، الذي اختاره سعد شاباً متخرجاً في مدرسة القضاء الشرعي يرتدي العمامة، ثم جعل منه شاباً متأنقاً يرتدي الجاكتة والبنطلون ويتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة أبناء باريس!.

والفرق بين الرجلين أن كامل سليم كتب مذكراته الشائقة وذكر فيها كل ما يعرفه عن سعد زغلول.

أما الأستاذ الجزيري فقد اعتبر أن كل ما سمعه من سعد زغلول أسرار ائتمنه عليها ولا يجوز نشرها أمام الغرباء!

وهذا هو الفرق بين الكتابين!

مكافأة ٥٠ سنة صحافة!

مهنة الأدب تدر الآن الألوف على كبار الكتاب. وفي الولايات المتحدة يستطيع كتاب واحد أن يحول المؤلف إلى صاحب ملايين. وقد كنا نقرأ في الكتب العربية القديمة أن الخليفة أو الأمير أما يضع الشاعر في السجن، أو يملأ فمه ذهباً. وفي العصور الحديثة لم نر أحداً يملأ فم الكاتب ذهباً إلى أن اكتشف البترول وارتفع ثمنه، وامتلأت أفواه بعض الكتاب وجيوبهم بالذهب والماس!

وكان بعض الصحفيين المصريين من أصحاب الملايين مثل الدكتور فارس نمر باشا صاحب جريدة المقطم الذي اشترى عزبة كبيرة أطلقوا عليها عزبة الملاحق، إذ إنه دفع ثمنها من أرباحه من ملاحق جريدة المقطم التي كان يصدرها أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكان جبرائيل تقلا باشا من أصحاب الملايين، وقد كسب مبالغ طائلة من جريدة الأهرام التي مكثت سنوات طويلة أوسع صحف مصر انتشاراً وأكثرها ثباتاً، وكان الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب المصري من أصحاب الملايين إلى أن صادرت الثورة أمواله أو وضعتها تحت الحراسة.

ولكن الأستاذ فكري أباظة الذي يعتبر شيخ الصحفيين المصريين، والذي كان يكتب المقال في جريدة الأهرام فيزيد توزيعها، وكان وضع اسمه كرئيس تحرير المصور كافياً ليقفز توزيعه عدة أضعاف، كان من أتعس الصحفيين حظاً!

فقد اشترى بكل ما يستحق من مكافأة ومعاش عن عمله في مجلة المصور وصحف دار الهلال من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٦٠ أسهماً في دار الهلال!

وقدرت قيمة هذه الأسهم في وقت من الأوقات بحوالي خمسين ألف جنيه وفي سنة ١٩٦٠ صدر قرار بتأميم جميع الصحف المصرية وتألفت لجنة حكومية لتقييم دار الهلال!

وإذا بهذه اللجنة تقدر كل أسهم فكري أباظة بمبلغ مائة وستين قرشاً صاغاً فقط لا غير!

وقرارات هذه اللجنة غير قابلة للنقض أو للإستئناف أو للإحتجاج!

وتصور أن أكبر كاتب في مصر ، مضى عليه ستون سنة كاتباً من الدرجة الأولى، أي من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٧٨ وبعد ذلك يصبح مجموع مكافآته مبلغ ١٦٠ قرشاً! أي حوالي قرشين صاغ ونصف قرش عن كل عام!

خسارة أن الكاتب العظيم فكري أباظة لم يشتغل بواباً! إن مكافأة أي بواب عمارة في مصر أمضى ستين سنة يحرس الباب أكبر ألفاً وخمسمائة مرة من مكافأة الكاتب والصحفي الكبير!

الكرسي المسحور

عندما تجلس فوق الكرسي تزداد جمالاً وأناقة، وعلماً، وفضلاً، وذكاء، وعبقرية، وخفة دم، وبعد نظر!

فإياك أن تقوم من هذا الكرسي، فسوف تفقد سحر جمالك، وسوف تتبهدل ملابسك، وسيخبو ذكاؤك، وتظهر تفاهتك، ويثقل دمك، وسيرى الناس أنك رجل عبيط لا يفهم شيئاً!

ولا تتهم الناس بالنفاق، فهذا هو سحر الكرسي العجيب، يطيل القصير، ويجمل القبيح، ويحول الحمار إلى شخصية، والبغل إلى سقراط، والقرد إلى غزال!

أدخل إلى مكتب الموظف الكبير لترى المهابة والوقار، والعظمة والجلال، واسمعه يتكلم تسمع الرأي الصائب، والحل الصحيح لكل مشكلة مستعصية!

وانتظر قليلاً حتى يخرج هذا الموظف الكبير نفسه من منصبه، فإذا به يصغر حجماً، ويصفر لوناً، تتعثر الكلمات على لسانه، وينطفىء لمعان عينيه، وتذبل ابتسامته، وتتوه أفكاره، والرأي العبقري الذي كان يحل المسألة وهو وزير يعقدها وهو خارج الوزارة، والنكتة التي تضحك الثكلى عندما يقولها وهو فوق كرسيه، تتحول إلى نكتة سخيفة عندما يقولها وهو خارج السلطان!

بل إنني لاحظت أن الكرسي يعطي شباباً للجالس عليه! فلا يكاد يغادره حتى يشيخ الشاب، ويمرض الصحيح، ويضعف القوي، ويتحول العملاق إلى قزم صغير!

فلا بد أن هذا الكرسي مسحور، ينبعث منه شعاع سحري غريب، يعمي العيون فلا ترى من القبح إلا الجمال، ولا تسمع من الحمق إلا الحكمة، ولا تشم في البصل إلا رائحة العطر الأخاذ!

أذكر أنني زرت من سنوات طويلة رجلاً جباراً. كان وهو جالس على الكرسي أشبه بالأسد الهصور، إذا ضرب المكتب بيده اهتزت الدولة وارتعدت الأفئدة، وانتفض الناس خوفاً وهلعاً.

ثم زرته بعد أن انفض المولد، وفقد السلطان، وانصرف عنه الأعوان، وضاع منه المجد والصولجان.. ودهشت أن الأسد الذي رأيته تحول إلى فأر. كان خائفاً جزعاً، يرتعد من دقة على الباب، ويهتز من جرس التليفون، وينتفض إذا قال له الخادم أن زائراً لا يعرفه جاء يطلب مقابلته!

ولم أصدق عيني! ظننت أنني أخطأت عنوان البيت، ولكن الخطأ الذي وقعت فيه أنني لم أدقق أبداً وأنا أنظر إلى الكرسي.. لقد كان الفأر هو الذي يجلس عليه، ولكن الشعاع المسحور أعماني فجعل صورة الفأر أسداً!

أب نويل عربي!

نحن في حاجة إلى أب نويل جديد، يحمل إلى كل بلد عربي هدية عيد الميلاد.. لا نريد منه أن يرتدي طرطوراً، أو أن يضع لحية بيضاء، أو يحمل جرساً..

كل ما نريده أن ينتهز فرصة نومنا ويترك هدية على باب كل واحد منا.

نريد أن يعطي لكل واحد منا كتاباً في «أدب الحوار» نتعلم منه كيف نتناقش وكيف نختلف وكيف نتفق! وعنوان الكتاب «السب والشتم في فلسفة الحكم».

ونريد أن يعطي لكل واحد منا كتاباً في التاريخ فيه قصة الأندلس، وكيف انقسم ملوك الطوائف وتنابذوا وتحاربوا فسقطت أعظم دولة من دول العرب وانتهت مدنية من أعظم مدنيات العالم! وعنوان الكتاب «بلوغ الأرب في القضاء على العرب»!

ونريد أن يعطي لكل واحد منا خريطة لفلسطين كما كانت. ومتى ضاع نصفها الأول ومتى ضاع نصفها الآخر، ثم يعلم بعلامات على الأجزاء التي استرددناها من فلسطين منذ ٣٠ سنة حتى الآن.. وبعد ذلك ملحق فيه كل تصريحاتنا ووعودنا لشعوبنا طول ثلاثين سنة! وعنوان الكتاب «تحقيق الأحلام بحرب الكلام»!

ونريد أن يعطي الأب نويل لكل واحد منا كتاباً عن لبنـان. كيف كـان جنة وكيف أصبح جحيماً؟ يحاول أن يسجل فيه مـا خسره لبنان من جمال وثروة وحـرية وحضـارة. الأبنية التي تهـدمت. الأطفال الـذين تيتمـوا. الأمهات الـلاتي ثكلن. الزوجـات الـلاتي تـرملن. المـدن التي دمرت.. ثم يقول لنا من كسب من كل هذه المذابح.. وعنوان الكتاب «البلد الذي أكل بعضه»!

ونريد أن يعطي الأب نويل لكل واحد منا كتاباً يحـدد فيه ثـروات الأمة العربية وسكانها وجيوشها، ونفوذها، ويقارن بين كل هذا وكـل ما تملكه إسرائيل..

ويتساءل كيف استطاعت إسرائيل أن تهزم كل هذا؟

وهل كانت تستطيع أن تهزم هذه الأمـة لو كـانت موحـدة الكلمة تحارب عدوهـا بنفس الحماس الـذي تحارب بـه نفسها؟ وهـل لو أحسنـا استخدام ما لدينا من أسلحة هل كانت تستطيع إسرائيل أن تتبجح كما تبجحت، وأن تحاول أن تجعل من بلادنا «أندلسات» جديدة؟! وعنـوان الكتاب «الأغنياء والفقراء»!!...

لو قرأنا هذه الكتب فإننا سوف نستطيع أن نقول في السنة القادمـة «عيد ميلاد سعيد»!

شخصية العام

من هي شخصية سنة ١٩٧٨

الرجل أو المرأة أو الفكرة التي سيطرت على هذا العام.

في رأيي أن مسألة حقوق الإنسان هي المسألة الأولى التي أثـرت عـلى العالم في هـذا العام، ولا يمكن أن نسمي هـذا العـام عـام انتصـار حقـوق الإنسان، ولكن يمكن أن نسميـه العام الـذي بـدأت تبعث فيه حقوق الإنسان من عالم النسيان!

فالذي يحدث في الاتحاد السوفييتي وفي الدول الشيـوعية يؤكـد أن حقـوق الإنسان لم تعـد كلمة تهمس بهـا الشفاه، وهي تتلفت حـولها في ذعر، وإنما أصبحت مسألة تناقش في الشوارع والأندية والجامعات!

وما يحدث في الصين الآن من أن صحف الحائط أصبحت تطالب أن يكون من حق المواطن الصيني أن يتكلم بحـرية وأن ينتقـد وأن يقول لا للحاكم، وأن يختار عمله، وأن يسافر كما يريد، وأن يتحدث بشجاعة مع جيرانه وأصدقائه وأن يشارك في انتخاب حكامه ونوابه... كـل هذا يؤكد أن حقوق الإنسان طرقت بـاب الصين، ودخلت من البـاب، وأن القيود التي رضي بها الشعب الصيني في الماضي لا يمكن أن يرضى عنها في المستقبل..

وفي أمـريكا الجنـوبية بـدأت مقاعـد الدكتاتوريين تهتز تحتهم.

وبدأت كلمة حقوق الإنسان تظهر على الجدران، وكأنها أصابع الشعب تهدد الطغاة والمستبدين. . وبدأنا نسمع أن حكومة تشيلي المستبدة الغارقة في الديكتاتورية تفتح السجون وتخرج المعتقلين والمسجونين. . وبدأنا نسمع في أمريكا الوسطى ديكتاتور نيكاراجوا يعلن استعداده لمنح الشعب حقوق الإنسان. . وبدأنا نسمع أن كاسترو قرر الإفراج تدريجياً عن المسجونين السياسيين الذين مكثوا سنوات طويلة في السجون والمعتقلات بلا اتهام ولا سؤال ولا تحقيق!

والذي يحدث في كل هذه البلاد وغيرها ليس موجة تهب ثم تتوقف، ولا هي عاصفة تقوم ثم تسكن، وإنما هي بذور الحرية تزرع في أنحاء الأرض. . وقد لا تنبت في كل أرض، وقد لا تزدهر في كل بلد. . ولكن المؤكد أن صوت الحرية تحول من همس في الخفاء إلى كلمات في العلن. . وسوف تتحول الكلمات إلى إعصار. . .

والذي حدث في إيران في عام ١٩٧٨ لم يكن في الإمكان أن يحدث قبل ذلك. . لأن إعصار حقوق الإنسان كان لا يزال نسيماً عليلاً!

الذين يخافون من الحرية عليهم أن يرتدوا معاطفهم!

عصور العمالقة وعصور الأقزام!

هل هي موضة المقاسات الصغيرة من الرجال، أم أن العصر الحديث لا يستريح للأحجام الصغيرة، ويفضل أن يكون رجاله الكبار في مستواه؟

إنك لا تجد الآن في بريطانيا رجلاً في حجم ونستون تشرشل، ولا تجد في أمريكا رجلاً في حجم فرانكلين روزفلت، ولا تجد في فرنسا رجلاً في حجم ديجول، ولا تجد في الإتحاد السوفيتي رجلاً في حجم ستالين. .

وهذا الشيء تجده في الأدب مثلاً، فلا تجد في إنجلترا اليوم أديباً في حجم برناردشو، ولا كاتباً عالماً في حجم هـ. ج. ويلز ولا صحفياً في حجم لورد بيفر بروك. . .

وتجد هذا في الشرق أيضاً، فليس لدينا الآن شاعر في حجم شوقي ولا ممثل في حجم نجيب الريحاني ولا مطربة في حجم أم كلثوم.

هل السر في ذلك أن الأرض فقدت خصوبتها، أم أنها أصبحت تنتج عدداً أكثر من الأفراد المتوسطين والعاديين، وعدداً أقل من النوابغ والعباقرة!

وهل أفضل للعالم أن يكون فيه شارلي شابلن واحد، أم مئات من صغار ممثلي الكوميدي، يضحكونك لحظة، ثم تنسى ضحكاتهم بعد ساعة، وتنسى أسماءهم بعد ٢٤ ساعة! إن الكثيرين منا يذكرون مناظر

من أفلام شارلي شابلن رأوها منذ أربعين سنة ولا يزالون يضحكون عليها حتى الآن. ذلك هو الفرق بين فن العبقري وفن الفنان العادي.

والشعوب اليوم لا تميل إلى سيطرة الرجل الواحد، في السياسة أو في العلم أو في الفن، فهي تفضل أن تنقسم العظمة بين عدة أشخاص على أن يحتكرها رجل واحد..

ولقد ضاق الشعب البريطاني بعظمة ونستون تشرشل فلم يتحملها بعد انتصاره في الحرب العالمية الثانية وفضل أن يعطي أصواته لمستر أتلي، لأنه رجل عادي ليس أطول قامة من أي بريطاني، بينما كان المواطن البريطاني يحس أنه قزم صغير بجوار تشرشل العملاق!

والشعب الفرنسي ضاق بضخامة الجنرال ديجول، ولم يقبل أن يسير خلف الزعيم في الطابور، فانتهز الشعب أول منحنى في الطريق، وخرج على إرادة ديجول في استفتائه الأخير فكان أن قدم ديجول استقالته من رئاسة الجمهورية واعتزل السياسة!

الناس تتعب عندما تقضي سنوات طويلة تتطلع إلى ما فوق رؤوسها!

مذكرات العظماء

الفرق بين السياسي الأجنبي والسياسي العربي أن السياسي الأجنبي يكتب مذكراته بعد أن يعتزل الحكم. أما السياسي العربي فلا يترك بعده ورقة واحدة للتاريخ!

كأننا حتى الآن لا نعرف قيمة التاريخ، أو كأن عدداً قليلاً من الساسة العرب كانوا من رجال التاريخ!

إن الزعيم سعد زغلول هو الزعيم الوحيد في ثورة ١٩١٩ الذي كتب مذكرات مطولة وإن كان عدلي يكن باشا ترك أوراقاً رفض صهره شريف صبري باشا أن ينشرها، وعبد الخالق ثروت باشا ترك يوميات قليلة لم يرد أولاده نشرها، وكتب أحمد لطفي السيد باشا مذكرات مختصرة وكذلك اسماعيل صدقي باشا وعبد العزيز فهمي باشا... ولكن مذكراتهم كانت أصغر منهم. وربما كانت صورة مصغرة لحياتهم الضخمة...

أما محمد محمود باشا الذي رأس الوزارة مرتين وحسين سري باشا وعبد الفتاح يحيى باشا وأحمد زيور باشا وعشرات من رؤساء وزارات مصر لم يتركوا للتاريخ كلمة واحدة بخطهم! وكان بعضهم يعتذر بأن لا وقت عنده للتحدث إلى التاريخ.

وعندما توفي مكرم عبيد، كانت السيدة عائدة قرينته في ضائقة

مالية فأرسل وزير الثقافة لها رسولاً يعرض أن يشتري الأوراق التي تركها مكرم باشا بخمسة آلاف جنيه.

ورفضت عائدة أن تبيع أوراق زوجها بأي ثمن.. وسئلت أن تتحدث عن ذكرياتها عنه وتأخذ خمسة آلاف جنيه، فرفضت، وقالت أن مكرم عبيد عندما كان يتحدث في السياسة كان يطلب إليها أن تغادر الغرفة، فإذا لم يطلب منها ذلك غادرت هي الغرفة لتأمر بعمل قهوة للضيوف!

إن عبد الرحمن عارف رئيس جمهورية العراق السابق ترك الحكم واعتزل السياسة، وكذلك المشير السلال رئيس جمهورية اليمن السابق.. وغيرهما وغيرهما من الحكام.. لماذا لا يكتب كل واحد منهم ما عاشه من أحداث، وما رآه من أسرار، وما عاناه من أزمات وبذلك لا يكون تاريخ الأمة العربية ناقصاً في هذه الفترة الخطيرة من تاريخها..

إن التاريخ لن يرحم الذين لم يقدموا له حساباً عما فعلوه!

الحياة بغير تليفونات

عودت نفسي على الحياة بغير تليفونات! اكتشفت أنني كنت أمضي عدة ساعات كل يوم أطلب أرقاماً لا تجيء، أو أرد على أجراس لا تريدني، أو أشترك في محادثات لا علاقة لي بها. إن رقم تليفون مكتبي هو رقم شعبي يرد على أي تليفون. إذا طلبت تاجر الأحذية فوزي فهو أنا. وإذا طلبت بنك مصر فهو أنا وإذا طلبت مطار القاهرة فهو أنا. وإذا طلبت شرطة النجدة فهو أنا.. وإذا طلبت مستشفى الأمراض العقلية فهو أنا أيضاً! أي رقم تديره تجدني في انتظارك.. وأي رقم تطلبه فإن جرس تليفوني يقول لك شبيك لبيك عبدك بين يديك!

وعبثاً حاولت أن أشكو! مهندس التليفونات يحيلك إلى رئيس المكتب، ورئيس المكتب يحيلك إلى مدير المكتب، ومدير المكتب يحيلك إلى مهندس المنطقة، ومهندس المنطقة يحيلك إلى مدير الهيئة، ومدير الهيئة يحيلك إلى وزير المواصلات.. ويصدر وزير المواصلات أمراً مشدداً بإصلاح تليفونك فوراً، وفي اليوم التالي يخرج الوزير في التغيير الوزاري، وتطير أوامره في الهواء، وتضطر تدوخ السبع دوخات.. وتنتقل من مكتب إلى مكتب كأنك ملف خطير يهرب من التوقيع عليه صغار الموظفين!

ورزقني الله بعامل تليفون عبقري، لا يؤمن بالروتين، ويؤمن بالبت فوراً فقطع الحرارة من تليفوني في الحال.. وأصبح تليفوني ميتاً بلا

حراك، لا يرن ولا يدق ولا يهمس ولا يصيح ولا علاقة له بأنحاء العالم المتمدن وغير المتمدن!

وهكذا انقطعت عدة أيام عن الدنيا. عشت في هدوء شامل، لا يطلبني أحد ولا أطلب أحداً. . .

. . . ثم بعد أيام بدأت أشعر بالوحدة المريرة! بدأت أشعر بحنين غريب إلى الأرقام الغلط التي كانت تسليني! إلى الأصدقاء الغلط الذين أعرفهم من اشتباك تليفوني مع خطوط تليفونهم! أصبحت أحن إلى صوت الحاج حسنين الحانوتي المشهور يدق تليفوني كل صباح قبل أن أقول «يا فتاح يا عليم» أسمع صوت الحانوتي يقول لي أنه مستعد لأي خدمة!

ما أحلى الرجوع إليه!!

هذه هي الحرية!

لا أطيق القيود. أي قيد يؤلم معصمي حتى ولو كان من حرير! وأي سلسلة تحيط بعنقي تخنقني ولو كانت من ماس، ولم تستطع أيام الحرمان من الحرية أن تعودني على طعم الاستبداد. كانت المرارة تزيد في فمي بزيادة الطغيان. ولا أظن أن الذين حرموا من الحرية في الصين أربعين سنة، أو حرموا من حقوق الإنسان في الإتحاد السوفييتي ستين سنة نسوا الحرية. بل لعلهم زادوا شوقاً إليها وحنيناً إلى ممارستها!

ولقد كنت في طفولتي أثور على قيودي. وكانت سجانتي هي أمي. وكانت زنزانتي هي غرفتي التي تصر أمي أن أبقى بها لأستذكر دروسي. ومع أنني كنت أحب أمي حباً عجيباً إلا أنني كنت أجد متعة في تحطيم قيودها وتكسير سلاسلها!

ولا أذكر أنني أحببت العلم إلا عندما توقفت أمي عن حبسي في الغرفة الصغيرة لأستذكر دروسي! كنت كلما رأيت باب الغرفة مغلقاً أحاول أن أقفز من الشباك لأهرب من هذا السجن. . ثم أعود إلى الغرفة من الشباك وأتظاهر أنني كنت أستذكر طول الوقت، وبدأت أمي تجرب سياسة جديدة فتركت الباب مفتوحاً ولم تطلب مني أن أستذكر دروسي، ولم تلزمني بساعات معينة في الدراسة، ووجدت نفسي لأول مرة جالساً أمام مكتبي أقرأ كتابي. ولم أفكر بالقفز من الشباك، ولم أفكر في الخروج من الباب!

وأذكر أنني في ذلك الوقت أصبحت لأول مرة في حياتي أحد العشرة الأوائل في الامتحان!

فالذين يتوهمون أن القيود تؤدي إلى النظام يخطئون.. إن تجربتي أنه بقدر ما نضع من قيود على الناس يزيد عدد المخالفين لهذه القيود والخارجين عليها... ومن الغريب أنه كلما كثر عدد القوانين في بلد كثر عدد المجرمين فيه.

بل أنني الاحظ أننا كلما منعنا أمراً زاد إقبال الناس عليه، وكلما أبحناه انصرف الناس عنه!

إنك إذا مشيت في بعض الحدائق عندنا وجدت لافتة تقول «ممنوع قطف الأزهار» ومع ذلك ترى أناساً يقطفون الأزهار أو يدوسون عليها!

وفي لندن أمشي في الحدائق بين الأزهار ولا أجد لافتة تحذر من قطع الأزهار، ومع ذلك لا يقطعها أحد!

هذه هي الحرية!

أماني العام الجديد

اليوم يبدأ عام ١٩٧٩

إنني متفائل بهذا العام الجديد، فلا يمكن أن تسوء أمورنا أكثر مما ساءت. وعندما تصل الأمور إلى القاع لا بد أن تبدأ في حركة الصعود. فأنت تلقي الكرة على الأرض، وهي تستمر تهوي إلى أن تصطدم بالأرض فتبدأ في الارتفاع، وأنا أحس أن عام ١٩٧٩ سيكون عام الوئام كما كان عام ١٩٧٨ عام الخصام! لا أتصور أن الخلاف بين مصر والدول العربية يمكن أن يستمر. فلا بد من اثنين لتحدث معركة، وما دامت مصر لا تريد الخلاف والدول العربية لا ترغب في استمرار الخلاف فلا بد أن يحدث الوفاق..

ولقد جربنا الخلاف الذي انتهى بنا إلى هزيمة ٥ يونيو ـ حرب الإذاعات، وحرب الصحف لم تنفعنا عندما حاربنا في ميدان القتال! شتائمنا لم تتحول إلى مدافع تنطلق، وسبابنا لم يتحول إلى قنابل تنفجر.. بل انفجرت شتائمنا فينا. وهزمتنا دولة صغيرة كانت مشغولة بالاستعداد لقتالنا في الوقت الذي انشغلنا فيه في قتال بعضنا!

ثم اتفقنا في حرب أكتوبر وكان الانتصار الرائع، وكان سلاح البترول الرهيب، وكانت الثروات التي تدفقت علينا، وكان المركز السياسي الضخم الذي تقلدناه في سياسة العالم، وكان المركز الاقتصادي المؤثر في اقتصاد الدنيا!

ثم عدنا نختلف وتمزقنا من جديد. ولم نستطع أن نسترد شبراً واحداً من أرضنا، وكاد يضيع لبنان ويصبح الأندلس الثالثة!

ولا بد أننا ستتعلم في عام ١٩٧٩ ما جهلناه في عام ١٩٧٨ وهو أن العرب أصفار إذا تفرقوا، وأرقام إذا تجمعوا. انقسامهم هو سلاح إسرائيل السري، واتحادهم هو مقبرة توسعها ومطامعها!

أتوقع أننا في العام الجديد سننهي خلافاتنا، ونضمد جروحنا، ونجمع صفوفنا، ونعرف أن المعارك لا تكسب في محطات الإذاعة، والحروب لا تجري فوق صفحات الصحف، ويحاول كل واحد منا أن ينسى الإساءة، ولا يذكر إلا العمل الطيب، إن الذي بين الشعوب العربية هو أخوة وصداقة وحب وإيمان!

في هذا العام سنذكر المثل القديم الذي يقول «أنا وأخي على ابن عمي . . وأنا وابن عمي على الغريب!»

نحن في حاجة إلى كل أخ من أخواننا، وإلى كل ابن عم من أبناء عمومتنا!

إنهم حصوننا في مواجهة الغريب!

ماذا جرى لك؟

قلت مرة لأحد كبار الكتاب: ماذا جرى لك؟ كانت كلماتك تصرخ فأصبحت كلماتك تتثاءب! كانت مقالاتك تنبض بالحياة فأصبحت مكتوبة بأسلوب صفحة الوفيات!

كنت نبض هذه الأمة فتوقف القلب ولم يعد يدق!

قال لي صديقي الكاتب: إن الرقيب هو حانوتي الكلمات! العبارات يكفنها، والمعاني يدفنها، والآراء يشيع جنازتها! المقال يدخل إلى مكتبه وهو ينبض بالحياة، ويخرج من عنده جثة محمولة على الأعناق! كتبت مرة مقالاً أهاجم فيه الأخطاء في مشروع أحد الوزراء. أعلنت الحرب على المشروع. هويت عليه بقلمي كأنه الخناجر والسكاكين. ثم أمسك الرقيب بمقالي العنيف، وحذف كلمات وأضاف كلمات، وخفف عبارات وشطب عبارات، وجعل «لا» «نعم»!

وإذا بمقالي يتحول من الهجوم إلى الدفاع، ومن النقد إلى الإعجاب، ويتحول إلى عسكري «يأخذ تعظيم سلام» لمشروع الوزير العظيم! لم يبق لي من مقالي سوى الإمضاء والعنوان! ولو كان الرقيب عادلاً لحذف الإمضاء والعنوان، ووضع إمضاءه هو وعنوانه هو!

قلت له: لماذا لا تتوقف عن الكتابة!



قال: إنني أفضل أن ينزعوا القلم من يدي، على أن ألقي القلم من يدي!!

الكلمة في عصور الحرية نعمة، والكلمة في عصور الاستبداد نقمة، بل هي لعنة تصيب الكاتب الحر، تذله إذا أحنى رأسه، وتقطع رأسه إذا رفع رأسه! والحرية تاج على رؤوس المواطنين لا يراه إلاَّ المحرومون من الحرية. والكلمة الحرة هي أحياناً أقوى من المدفع الرشاش.

ولهذا رأيناهم في السنين الأخيرة ينسفون الصحف حتى لا تتكلم، ويطلقون الرصاص على الكتاب حتى يسكتوهم إلى الأبد! وكم رأينا رجالاً طغاة يرتعدون رعباً من كلمة. ويجزعون من مقال كأنه مسدس مصوب إلى صدورهم، وكم رأينا من جيوش تعلن الحرب على قلم، فتسقط القلاع وتصمد الأقلام!

والكلمة الحرة كالهواء، القضبان لا تستطيع أن تسجنها، والمشانق لا تستطيع أن تشنقها.. ولكن أقلام الرقباء الحمراء هي التي تصيبها بالجروح.. ولكنها لن تموت!

أشعة الموت!

من أكثر من عشرين عاماً دعتني إحدى الهيئات في دولة عربية لحضور تجربة هامة. وركبت سيارة أوتوبيس في الصباح المبكر مع عدد من رؤساء التحرير إلى منطقة صحراوية. وعند الباب ألبسوا كل واحد منا معطفاً أبيض، وقالوا لنا أننا سنحضر تجربة سلاح سري رهيب اسمه أشعة الموت، وأن هذه الأشعة تفتك بكل ما تصادفه إلاَّ إذا كان يرتدي ثوباً أبيض، وهذا سبب ارتدائنا المعاطف البيضاء. ووقفنا بجوار آلات ضخمة شاهقة، وجاء أستاذ في كلية العلوم بمكبر صوت وأعلن أن التجربة ستبدأ. وأنهم وضعوا فأراً في قفص على بعد عشرة كيلو مترات، وستوجه إليه أشعة الموت وتقتله في الحال. وبدأت الآلات الضخمة تزأر بصوت كالرعد لمدة خمس دقائق. ثم توقفت الآلات، ودعينا لركوب سيارة أوتوبيس لنرى ما أصاب الفأر المسكين. وانطلقت السيارات ووصلنا إلى قفص الفأر، وفوجئنا به يقفز وينط وهو على قيد الحياة! وتقرر تقريب المسافة إلى ٩ كيلومترات. ودوت أشعة الموت وعدنا للفأر فوجدنا أنه لا يزال حياً! وتكررت التجربة تسع مرات! وفي كل مرة يوجهون للفأر أشعة الموت ولا يموت.. ثم يقربون قفص الفأر من الآلات الضخمة. والفأر الملعون لا يهتم بما يجري حوله من أهوال، ويمضي في قفزه ونطه، وصعوده وهبوطه في داخل القفص!

وعرفنا يومها أن هذه الفضيحة تكلفت ٦٣ ألف جنيه، في وقت كان الجنيه يساوي عشرة جنيهات في هذه الأيام، وأن نصاباً استغل

سذاجة وعبط بعض المسؤولين عن هذه الهيئة وأوهمها أنه آكتشف سلاح أشعة الموت، وأن هذا السلاح ممكن أن يبيد إسرائيل!

وكانت لجنة الحربية في برلمان تلك الدولة حاضرة هذه التجربة الفذة ووضعت تقريراً عما رأته.. وتقرر إخفاء التقرير وعدم عرضه على البرلمان!

ونسيت أن أقول أن الفار لم يكن يرتدي معطفاً أبيض!!

زوجة تريد أن تقتل!

جاءت سيدة إلى مكتبي لمقابلتي، وقالت أنها حضرت خصيصاً من الاسكندرية لتبلغني أنها قررت أن تقتل زوجها وآبنه!

وأن زوجها طلقها، وتزوج امرأة أخرى وأنه أخذ منها ابنتها وطفليها، وأنها لذلك قررت قتله!

قلت لها أن معنى ذلك أن يحكم عليك بالإعدام!

قالت: لا يهمني الحياة بعد أن فقدت أولادي!

قلت: ربما لا يهمك حياتك. ولكن تهمك حياة أولادك. ماذا سيفعل هؤلاء الأولاد بعدكما! هل تستطيع ابنتك أن تتزوج بسهولة وأمها قاتلة وأبوها قتيل؟ هل يستطيع هؤلاء الغلمان أن يستمتعوا بحلاوة الحياة عندما يصبحون فجأة يتامى؟ إن نصف الناس قد يكونون معك، ولكن نصفهم سيكونون ضدك. فما هو شعور أولادك ونصف الناس يلعنون أمهم ونصف الناس يلعنون أباهم!؟

وقلت لها أن في رأيي أن القتل قد يحل مشكلتها، ولكنه يضاعف مشكلة أولادها. سوف يحملون على أكتافهم هذا العار طوال حياتهم. سيمشون في الشوارع فيشير لهم الناس قائلين هؤلاء هم أولاد المرأة التي قتلت أباهم!

ستبدأ الألسنة تتهم الأب وتلوثه بأقذر التهم! سينسى الناس

السبب الحقيقي. لن يصدقوا أن زوجة قتلت زوجها السابق لأنه أخذ أولادها طبقاً للقانون الذي ينص على أن يعيشوا في هذه السن في رعاية أبيهم. سيقول الناس أن عشرات الألوف من الأولاد يعيشون مع آبائهم، ولم تطلق مطلقاتهم عليهم الرصاص! لا بد من سبب آخر! لا بد أن الأب اعتدى على ابنته! لا بد أن الأب تاجر بعرض ابنته! لا بد أن الأب أنشأ عصابة لبيع المخدرات وتولى أولاده توزيع المخدرات على المدمنين.. سوف تلصق بأولادك ألف تهمة وتهمة أشنع وأفظع وأخطر من التهمة الحقيقية! فأنت لن تقتلي زوجك وزوجته وابنه! إنك بهذه الرصاصات سوف تقتلين أولادك الثلاثة! إن زوجك وزوجته وابنه سيموتون مرة واحدة، ولكن أولادك الثلاثة سيموتون كل يوم بهذه الجريمة!

قالت: خسارة! إنني اشتريت المسدس.. واشتريت الطلقات!

قلت: عجباً تتحسرين على المسدس ولا تتحسرين على ثلاثة أرواح!؟!

عبادة الفرد!

عبادة الفرد هي كفر بالشعب. فإذا أردت أن تبني ديكتاتوراً فيجب أن تهدم أمة! ولكي تطول قامة الحاكم الفرد يجب أن تقصر قامة كل فرد من الشعب. أما أن ينكس رأسه، أو يحني جسمه، أو يركع، أو يسجد.. فإذا لم تنخفض قامته بعد كل هذا فلا بد من قطع رأسه!

وفي ظل حكم الفرد تتضاءل الناس لتعيش، وتنكمش لتجد لنفسها مكاناً في البلد، وتخرس صوتها ليتكلم وحده. وتعطل عقولها لتحتمله، وتخاف ليطمئن على حكمه، وفي ظل حكم الفرد يتوقف الانطلاق، وينعدم الابداع، ويختفي الابتكار، ويسقط الفن، وتتحول الكتب إلى هتافات، والحوار إلى تصفيق. وتخلو المعامل من العلماء وتمتلىء الشوارع بالمواكب!

فعصور الإرهاب والاستبداد والطغيان هي عصور الانحطاط الفكري، فلا يستطيع عالم أن يتفرغ إلى العلم وهو غير آمن على نفسه. تزعجه كل طرقة على الباب. يفقد حرية الحركة. يفقد حرية التعبير، والإنسان إذا عجز عن الحركة والتعبير عجز عن التفكير!

ولهذا نرى أن أعظم علماء العالم تألقوا عندما هربوا من الإرهاب إلى الحرية، فإن العالم أينشتين مثلاً لم يستطع أن يعيش في ظل الجستابو، وهرب من ألمانيا إلى الولايات المتحدة، ومعه عدد كبير من العلماء الذين استطاعوا في مجتمع حر أن يصلوا إلى القنبلة الذرية.

وفي إسبانيا مثلاً هرب أعظم الأدباء والمؤلفين إلى أمريكا الجنوبية، بعد أن عاشوا سنوات أجدبوا فيها. لأن القلم لا يتحرك بسهولة في الأيدي المقيدة بالأغلال. وفي عهود حكم الفرد يتحول البلد كله إلى سجن كبير.. فأنت تمشي في الشارع وكأنك داخل زنزانة! وأنت تجلس في عملك وكأنك مقيد بالأغلال. وأنت قلق خائف. والخائف لا يبدع فأول شروط الإبداع والخلق هو الأمان. لقد استطاع عدد قليل من الناس أن يكتبوا وهم في داخل السجن، ولكن الأغلبية لم تكتب. إن الكاتب الكبير محمد توفيق دياب بقي ستة أشهر في السجن ولم يستطع أن يكتب حرفاً، وعباس العقاد لم يستطع أن يكتب كلمة واحدة، في خلال تسعة أشهر أمضاها مسجوناً في سجن قره ميدان. ومحمد التابعي مكث أربعة شهور في السجن ولم يكتب مقالاً واحداً. والرسام المعروف محمد عبد المنعم رخا مكث في السجن أربع سنوات ولم يرسم صورة كاريكاتورية واحدة.

ما أتعس الذين تسجن أفكارهم بين القضبان!

خرج المارد من القمقم!

لا يمكن إعادة المرأة إلى الحريم. لقد خرج المارد من القمقم ولن يعود إليه من جديد. والذين يتحدثون عن عودة المرأة إلى الحجاب لا يعرفون المرأة! فلم يحدث على مدى التاريخ أن حصلت المرأة على حق ونزلت عنه. ولكن الرجل الطيب هو الذي ينزل عن حقوقه، ثم يملأ الدنيا صراخاً مطالباً بإعادة المرأة إلى الحريم!

ليس في قدرة أي حكومة مثلاً أن تخرج المرأة من الجامعة، ولا أن تحرمها من حق الانتخاب إذا حصلت عليه. وصحيح أن كثيرات من النساء لا يزاولن الآن حق الانتخاب في مصر، بعد أن حصلن على هذا الحق من ٢٢ سنة! إلا أنك إذا جئت وحرمت المرأة من حق الانتخاب فإنها ستقيم الدنيا، وستتهم من يسنون مثل هذه القوانين بإعادة المرأة إلى القرون الوسطى!

وفي العالم كله تكسب المرأة كل يوم حقاً جديداً. وفي رأيي أن المرأة العربية منذ أن أصبحت موظفة وعاملة وآشتغلت بالتجارة فإنها حصلت على الاستقلال الاقتصادي، وهذا الاستقلال جعلها قادرة أن تحتل مكاناً في المجتمع..

ويخطىء الرجل إذا تصور أن المرأة «تتوحش» إذا تولت عملاً، وأنها ستحاول أن تفرض سيطرتها على الرجل، بحكم سيطرتها في المنصب الذي تتولاه.

لقد رأيت بعض الوزيرات العربيات والوزيرات الأجنبيات في بيوتهن مع أزواجهن وقد لاحظت أن الوزيرة في بيتها تتحول إلى قطة مستأنسة، بينما هي في مكتبها أحياناً تبدو كالنمرة المفترسة!

ومن النادر جداً أن ترى وزيرة تحاول أن تكون وزيرة داخل البيت، بل أنها بحكم أنوثتها تفتقد دورها كأنثى في منصبها الوزاري، فهي تبحث في بيتها عن صدر زوجها الذي تلجأ إليه، وتشعر بلذة الضعف وهي إلى جانبه.

لقد قال شاه إيران مرة أن المرأة عندما تحكم تتحول إلى حيوان مفترس شرس!

ولكني لم أر هذه الحيوانات المفترسات بين الوزيرات اللاتي عرفتهن!

ويظهر أن الشاه عرفهن!

عبادة الأموات!

لا يستطيع الإنسان أن يحكم عائلته من قبره، مهما كان ذكياً وحكيماً وبعيد النظر، ومهما نظم كل شيء ورتب كل شيء، وخطط أروع الخطط!

فإذا أوصى أن يبقوا في بيت العائلة ولا يبيعوه باعوه! وإذا أوصى أن يتزوج ابنه من بنت أخيه، تزوج الإبن بالفتاة التي يحبها! وإذا أوصى بأن يدخل حفيده كلية الحقوق أدخلوه كلية العلوم.

فإذا كان هذا حال عميد الأسرة مع أفراد أسرته، فكيف يكون حال الحاكم مع أفراد شعبه، لقد تصور ستالين أنه سيحكم الاتحاد السوفييتي من قبره، وأعد سكرتيره مالينكوف ليخلفه، وآعتقد أن الأمور في روسيا ستسير كالساعة، وإذا بخلفائه ينتخبون مالينكوف رئيساً للوزارة لبضعة شهور ثم بعد ذلك ينقلونه ناظر محطة! ويتهمون ساعد ستالين الأيمن بيريا بأنه جاسوس أمريكي ويعدمونه بالرصاص، ويغيرون ويبدلون في أساليب الحكم، ثم يقفون ويلعنون ستالين وأيامه السوداء وإرهابه وجبروته وظلمه، ثم يخرجون جثته من قبره ويدفنونها بعيداً عن قبر لينين!

وتصور ماوتسي تونج أنه وضع أنظمة خالدة لحكم الصين، وأن زوجته وأعوانها سيخلفونه، وإذا بخلفائه يقبضون على أرملته ويضعونها في السجن ويشهرون بها، ويغيرون ويبدلون الأنظمة الصارمة التي

وضعها ماوتسي تونج، ويبدأون في فتح النوافذ التي أغلقها ماو، وإضاءة الأنوار التي أطفأها ماو، وإعادة الحريات التي كبتها.

وتصور هتلر أن الرايخ الثالث سيعيش ألف سنة! وكان يخطب ويؤكد هذا، وإذا بهذا الرايخ ينهار بعد ساعات من انتحاره، وتتحول ألمانيا الغربية من ديكتاتورية إلى ديمقراطية، وتتحول الهتافات إلى لعنات!

إن أحداً لم يستطع أن يحكم دولة من قبره! وما يصلح لزمن مضى لا يصلح لزمن جديد. والشعوب قد تتحسر على الماضي في ساعات الضيق، ولكنها ترفض أن تعيش الماضي من جديد، مهما كان هذا الماضي زاهياً وجميلاً ورائعاً.

ولكن بعض الذين لا يستطيعون أن يرفعوا أعلام المستقبل، يستسهلون أن يرفعوا أكفان الماضي، ويجعلوها شعارات لهم.. إنهم يعجزون أن يجدوا بين الأحياء إماماً فيبحثوا عن جثة يعبدونها!

ولكن عبادة الأموات لا تعيش طويلاً!

رائحة الحبر!

لا يمكن أن تخدع القارىء مهما بلغت من الذكاء ككاتب. الحبر له رائحة. الكلمة الحرة لها رائحة ذكية مهما طمست يصل إلى الأنوف عبيرها، والكلمة المأجورة لها رائحة كريهة تزكم الأنوف حتى ولو كانت مريضة بالزكام!

ومهما زوقنا الكلمة المحلاة بالألوان، وحليناها بالأصباغ، فإن أنف القارىء يفرق بين رائحة الضمائر، ورائحة الجيوب... بين كلمات مكتوبة على الورق، وكلمات مكتوبة على دفاتر الشيكات!

وفي كل بلد من البلدان فرقة تطبل لكل حاكم، وتزمر لكل سلطان، تسمي الأخطاء المآثر، وتطلق على الخطايا وصف المعجزات، إذا عطس الحاكم قالت «يرحمك الله»! وإذا مرض قالت «شفاك الله»! وإذا دخل الحمام قالت له «نعيماً»! وإذا خرج من الحمام قالت له «شفيتم»!

إذا فأفأ الحاكم فهذه بلاغة، وإذا تأتأ فهذه فصاحة. وإذا نطق سخافة فهذه حكمة، وإذا قال كلاماً غبياً فهذه فلسفة. وإذا تصرف تصرفاً أحمق فهذه بطولة، وإذا تراجع عن رأي أبداه فهذه شجاعة. وإذا تجبر على شعبه فهذا هو الحسم والحزم والعزم، وإذا انهار فهذه هي الرحمة والشفقة والإنسانية.. ما دام الحاكم حاكماً فهو لا يخطىء، مصائبه هي الصواب، وجنونه هو العقل، وتفاهته هي العبقرية!

والنفاق يحول الرجل الطيب إلى شرير، وصاحب المبادىء إلى لص كبير، فأنت إذا سمعت المديح والثناء طوال الليل والنهار، وإذا أحرقت له البخور في الصباح والمساء، وإذا تغنى الناس بمناقبك عندما تقوم وعندما تقعد، وعندما تصيب وعندما تخطىء، وعندما تأكل وعندما تنام تصاب بالجنون! وجنون الغرور هذا يجعلك تفقد الرؤية، فلا ترى إلاَّ ما تحب، وتفقد السمع فلا تسمع إلاَّ ما تريد، وتفقد الفهم فلا تفهم إلاَّ ما تتمناه. وكم من رجال كبار جعل منهم نفاق من حولهم رجالاً صغاراً، يصدقون الأكاذيب، ويعجبون بالتفاهات، ويطربون لأوصافهم الكاذبة ولأمجادهم المزعومة، ويتوهمون أن الناس تصدق غزل المنافقين فيهم، في حين أن الناس لا تحتقر المنافق وحده، بل تحتقر أيضاً الرجل الذي يحيط نفسه بالمنافقين، وعباد السلطة، وكلاب السلطة!

كلمة حق واحدة أقوى من ألف مقال نفاق!

إمرأة تقـــاوم!..

هاجمت أنديرا غاندي عندما قيدت الحريات وهي رئيسة وزراء. عندما توهمت أنها تسكت صوت خصومها إذا وضعت الكمامات على أفواههم. وتقضي على المعارضة إذا وضعت زعماءها في السجون، وتمنع النقد إذا فرضت الرقابة على الصحف وقيدت الأقلام!

يومها توهمت أنديرا أنها منعت المواطنين من الهمس، وإذا بها تسمع صوت الرعد عندما قال لها الشعب بأصواته في الانتخابات اخرجي من رئاسة الوزارة! اخرجي من زعامة حزب المؤتمر! اخرجي من عضوية البرلمان!

وخرجت أنديرا مهزومة ذليلة مقهورة!

ولكني أعجبت بأنديرا عندما رأيتها تسقط على الأرض وتحاول الوقوف! لم تستسلم للهزيمة.

لم تمض الوقت تندب حظها السيء وتحاول البحث عن شماعات تعلق عليها أخطاءها.

لم تنصب صواناً أمام دارها تستقبل المعزين في مصابها الأليم بفقد الحكم والسلطان، ولكنها حاولت أن تتراجع إلى النصر. أن تضمد جراح الهزيمة لتدخل المعارك من جديد. لم تترك خصومها يهدأون يوماً واحداً! جمعت أشتات حزبها. نظمت صفوفهم. حاولت أن ترفع

صوتهم في البرلمان. انتهزت خلو دائرة إنتخابية فتقدمت إليها، وحاربت المعركة بقوة وشجاعة وإقدام. واستطاعت أن تفوز بعضوية البرلمان برغم أن خصومها حشدوا قواهم ليهزموها هزيمة ساحقة. ودخلت البرلمان برغم الحكومة وبرغم بقايا حزب المؤتمر القديم. ولم يتركها خصومها تهنأ بمقعدها في البرلمان فتألبوا عليها من جديد وقرر البرلمان فصلها وسجنها لمدة أسبوع! ولم تيأس خرجت لتناضل من جديد، ولترشح نفسها من جديد..

السياسة لا تعرف المهزومين ولا تفتح أبوابها لليائسين.. إنها تفتح أبوابها للأقوياء الذين إذا سقطوا على الأرض حاولوا الوقوف من جديد، وإذا تلقوا الضربة ردوا على الضربة بضربتين، وإذا هزموا ثلاث مرات حولوا الهزيمة في المرة الرابعة إلى انتصار!

كم من رجال استسلموا أمام أول هزيمة. وانهاروا أمام أول صدمة.. ومثل هؤلاء الرجال لا يحسب التاريخ حسابهم، ولا يذكر أسماءهم.. وأحياناً يمر عليهم ولا يتذكرهم!

وأنديرا غاندي قاومت لتدخل التاريخ!

الرجل لا يتغير!

أكبر غلطة ترتكبها الفتاة أن تتوهم إذا تزوجت أنها قادرة على تغيير طباع زوجها. إنها نفس غلطة الطغاة الذين حكموا الشعوب، وتصوروا أنهم يستطيعون تغيير هذه الشعوب!

الجنرال فرانكو مثلاً تصور أنه استطاع أن يغير الشعب الاسباني بعد أن حكمه أربعين عاماً بالحديد والنار، وجعله يمشي في الطابور بخطوات واحدة على الأنغام التي يعزفها!

تصور فرانكو مثلاً أنه قضى على الانحلال الأخلاقي وقضى على الشيوعية وقضى على الاشتراكية وقضى على الديمقراطية، وأن الشعب الاسباني نسي حرية الصحافة إلى الأبد!

وما كاد فرانكو يموت حتى عاد كل شيء كما كان، وكأن الأربعين عاماً التي حكمها فرانكو لم تكن... وبعد أن كانت الكباريهات والأندية الليلية محرمة في المدن أصبحت الآن منتشرة في القرى!

وبعد أن كانت الصور العارية الخليعة ممنوعة أصبحت تحتل الصفحات الأولى من مجلات أسبانيا، وأصبحت معلقة على الأكشاك في شوارع مدريد!

لا الحاكم المستبد، ولا الزوجة الحازمة، يستطيع أحدهما أن يفرض على شعبه نظاماً معيناً لا يقبله ولا يرضاه، وإذا حدث أن خضع

الشعب للنظام، فلا يكاد يغيب القط حتى يلعب الفأر!

أعرف زيجات كثيرة فشلت لأن الزوجة أرادت أن تفرض صورة الزواج كما تخيلته على زوجها، ثم وجدت الزوج غير قابل للتغيير، فالمرأة لا تستطيع أن تخلق زوجها من جديد، وإنما الذي تستطيع أن تفعله أن تلائم نفسها مع زوجها، فتضحي بقليل من طباعها قبل الزواج، ويضحي الزوج ببعض امتيازاته كعازب، ومن مجموع هذه التضحيات يولد البيت السعيد!

وإذا كانت الديكتاتورية لا تصلح لحكم الشعوب، فهي أيضاً لا تصلح لحكم البيوت، لا ديكتاتورية الزوج ولا ديكتاتورية الزوجة!

خير أنواع الحكم هو الحكم الديموقراطي.. هو حرية الرأي، والحوار، والمناقشة والوصول إلى قرارات باتفاق الأغلبية والأقلية!

وفي بعض البيوت الزوجة هي الأغلبية!

عزاء أم

علمت الصحفية المصرية ابنها تعليماً ممتازاً، حصل على أكبر الشهادات من أوربا وأمريكا، ذهب إلى المملكة السعودية والتحق بها، وبرز بسرعة مذهلة، وارتفع وتألق وأدهش نجاحه السريع من يعرفون صغر سنه.

واشترى سيارة أمريكية ضخمة، وفي اليوم الأول بدأ يقودها وينتقل بها من مدينة إلى مدينة، واحترقت السيارة الجديدة في يومها الأول. واحترق الشاب فيها ومات!

ووجدت نفسي أهرب من الأم! لا أستطيع أن أذهب إليها وأعزيها، ولا أستطيع أن أكتب لها كلمة، شعرت أنني لا أجرؤ على مواجهة الأم الثكلى. لم أجد الكلمات التي أقولها. إنني أعرف كم تحبه، وأعلم مقدار ما ضحت من أجله، وأحس بمقدار فجيعتها ولوعتها. ومع ذلك لم أجد كلمة واحدة للعزاء. أحياناً يكون الصمت بلاغة، وأحياناً تكون الدمعة الواحدة أقوى من قصيدة رثاء! ولكن في هذه الفجيعة شعرت بعجز عجيب، وشعرت بخزي أعجب لأنني لم أذهب إلى مأتم هذا الشاب، بل أقمت له المأتم في قلبي! وأحسست بأن واجبي أن أخفي دموعي عن هذه الأم، وأن أحبس كلماتي الحزينة عنها. ومضت شهور وقابلت الأم ولم أقل لها كلمة واحدة تكلمت معها في كل موضوع ما عدا موضوع ولدها. وأتصور أنها عجبت لأنني لم أذكر ابنها الذي

تعرف أنني أعرفه، وقد يكون خطر ببالها أنني لم أقرأ خبر نعيه في صفحة الوفيات، ولم أقرأ خبر مصرعه في صفحة الحوادث. ولكني تعمدت ألاّ أتكلم عنه، وأنا أعلم أنها تبكيه وهي تتحدث في كل موضوع إلاّ موضوعه، وأنها تندبه وهي تبتسم، وأنها تنزف دماً حزناً عليه وهي تضحك.. ولكني أحسست أن المواساة الحقيقية لمثل هذه المرأة المنكوبة ألا أقترب من الجرح الكبير المفتوح في قلبها.. تصورت أن أي كلمة أقولها سوف تزيد ألمها، وسوف تزيد عذابها، فإن خير ما نفعله في الجرح المفتوح ألاّ نقترب منه إلاّ إذا كنا أطباء!

ولم أشعر وأنا بجوارها أنني طبيب.. وأحسست أن كل الكلمات التي عندي هي مراهم لا تخفف الألم ولكنها تزيده، وأن كل العبارات هي أدوية لا تضمد الجرح، بل تزيده اتساعاً!

وبعد أن تركت الأم المنكوبة بدأت ألوم نفسي. ليتني قلت شيئاً!

وفكرت أن أعود إليها.. ولكني لم أجد ما أقوله لها!

هل أحسنت؟ هل أسأت؟ لا أعرف!

لندن بغير التيمس!

ماذا تشعر لو أنك زرت القاهرة ولم تجد أهرام الجيزة في مكانها؟ أو زرت باريس ولم تجد برج إيفيل، أو زرت نيويورك ولم تجد تمثال الحرية أو زرت موسكو ولم تجد الكرملين؟!

سوف تشعر أن كل عاصمة من هذه العواصم فقدت أهم طابع فيها. وهذا هو شعوري عندما أرى لندن بغير جريدة التيمس وجريدة السانداي تيمس!

اختفاء هاتين الجريدتين العظيمتين هو إعلان إفلاس للشعب البريطاني.. لا أتصور أن الشعب البريطاني في الثلاثينات أو الأربعينات أو الخمسينات كان يقبل أن تختفي جريدة التيمس!

كانت ستقوم المظاهرات في كل مكان تهتف «أعيدوا لنا التيمس!» كانت ستعقد الاجتماعات في كل مكان، وترتفع الاحتجاجات في كل مدينة تطالب بأن تعود هذه الجريدة!

لم تكن التيمس جريدة فقط! بل كانت علماً إنجليزياً مرفوعاً في كل مكان تصل إليه. كانت أكبر دعاية للديموقراطية البريطانية في جميع أنحاء العالم. كانت أهم من مجلس العموم، فمجلس العموم باق في لندن، ولكن نسخة من جريدة التيمس هي مجلس عموم في كل بلد من بلاد الدنيا!

إنني لا أنسى المقال الذي كتبه رئيس تحرير التيمس يعارض في زواج الملك إدوار الثامن من صديقته الأمريكية مسز سمبسون ويلوح له بأن الشعب قادر أن ينزله عن العرش!

هذا المقال الشجاع هو الذي جعل الوزراء المترددين في وزارة مستر بلدوين يقفون معه في الأزمة الدستورية التي انتهت بخلع الملك!

إنني أحتمل أن تكون لندن بغير حديقة هايد بارك، وبغير قصر بكنجهام، وبغير تمثال القائد العظيم ويلسون وبغير كل ما فيها من آثار وأمجاد!

ولكني لا أحتمل أن تكون لندن بغير جريدة التيمس!

ماذا جرى للشعب البريطاني؟

هل انتشرت فيه الأمية فجأة.. وأصبحت الأغلبية لا تكتب ولا تقرأ!

هذا هو العذر الوحيد!

أمينة الصندوق تسرق!

كانت تتولى منصب أمين الصندوق في إحدى الجمعيات الخيرية، وكانت موضع ثقة الجميع لأمانتها ونزاهتها وإخلاصها. كانت ترفض أن تحصل على إجازة أسبوعية، وكانت تأبى أن تحصل على إجازة سنوية. وكانت إذا مرضت تحاملت على نفسها حتى لا تحرم الجمعية من خدماتها الجليلة!

وذات يوم عينت الجمعية مراقب حسابات جديداً، وإذا به يكتشف أن أمينة الصندوق الأمينة النزيهة المخلصة اختلست من أموال الفقراء والبؤساء والمساكين خمسة آلاف وخمسماية جنيه!

واقترح بعض العضوات إبلاغ البوليس، ولكن أغلبية العضوات عارضن في هذا الإجراء. إنه سيؤدي إلى فضيحة للجمعية، وعضوات مجلس الإدارة هن المغفلات اللاتي انتخبن هذه السيدة عدة سنوات فهن مسؤولات عن هذه الخيبة القوية، وتم الاتفاق على أن تدفع عضوات مجلس الإدارة المبلغ المختلس، وتستقيل أمينة الصندوق، ويطوى على الخبر ألف ماجور! وقلن نتركها إلى الله!

واحتجت عضوات على العفو عن سارقة! كيف نتركها تستمتع بما سرقت؟ كيف نكافئها على خيانتها بالتستر على جريمتها!

وبعد سنوات قليلة تولى الله أمرها! أصابها بمرض عجيب غريب

عجز عن علاجه أطباء مصر ثم أطباء لندن ثم أطباء أمريكا ثم أطباء الاتحاد السوفياتي!

أنفق زوجها على علاجها خمسة عشر ألف جنيه بين رحلات ومصاريف إقامة في مختلف مستشفيات العالم..

اضطرت السيدة إلى أن تبيع بيتها الذي كانت تملكه وسكنت في شقة صغيرة من غرفتين!

لا أحد يعرف كيف جاء هذا المرض، فإن أعراضه لم يسمع بمثلها الأطباء الذين عالجوها!

هل هي لعنة من الله على من يسرق أموال الفقراء، ويختلس حقوق البؤساء!؟

هل في مال الفقير لعنة تصيب اليد التي تمتد إليه! هل هي دعوات المساكين الذين كانوا في حاجة إلى رغيف خبز وقالت لهم أمينة الصندوق «لا توجد اعتمادات»؟!

لا أعرف!

سكتنا له.. فدخل بحماره!

المثل الشعبي يقول «سكتنا له، فدخل بحماره»!

ونحن سكتنا لمناحم بيجن، فلم يدخل بحمار واحد، بل بعدة حمير! كل حمار منها يحمل مطالب وتنازلات!

فإذا طلبنا منه أن يجلو عن البلاد العربية التي احتلها في حرب عام ١٩٦٧ طالبنا «بخلو رجل» في مقابل الجلاء!

فهو يتناسى أنه اللص الذي سرق أرضي، وأنني أنا المسروق الذي يطالب برد المسروقات! بل يعاملني كأنه هو صاحب الملك، وأنني المستأجر فيجب أن أدفع مقابل أن أقيم في بيتي الذي سرقه مني! وهو لا يحمد الله أنني لم أطلب تعويضاً عن هذه السرقة، ولم أطلب تقديم اللص إلى المحكمة لمحاكمته، بل هو يريد أن يجعل من اللصوصية حقاً مكتسباً، وهو يطلب مني أن أعامله على قيد المساواة!

وعندما قبلت أن نعامله على قيد المساواة، عاد يطالب أن يكون لمعاهدته امتيازاً عن كل معاهداتي مع البلاد العربية!

ولو سكتنا عليه لطالبنا بتعويض عن احتلال أراضينا وعن استنزاف مواردنا!

ولو سكتنا عليه بعد ذلك فسوف يطالب بأن نبني لكل جندي

إسرائيلي يجلو عن أرض عربية فيللا، لها حديقة بفناء، وفيها حوض سباحة!

ولو سكتنا أكثر فإنه سيطالب بأن يكون شريكاً في أرباح البترول بحجة أنه يحمي آبار البترول من الروس!

إن المسؤولين في حكومة إسرائيل بعقلية «الأرباح المركبة» تماماً كما يفعل المرابي الإسرائيلي. . . تقترض منه مائة جنيه، فيضع أرباحاً عن كل شهر، تتزايد، وتتراكم وتتضاعف، ثم تفاجأ بالمائة جنيه تصبح ألف جنيه، ثم تلد الألف جنيه الأولى ألف جنيه ثانية، وتلد الألفان أربعة آلاف وبعد وقت قليل يطالبك المرابي بأن تدفع له في الحال كل ما تملك من مال وعقار وملابس. . .

وعندئذ فقط تكتشف أنك أخطأت عندما سمحت له بدخول الحمار!

وهذا هو السبب في أن المفاوضين المصريين يعدون أصابعهم بعد كل اجتماع!!

الطالبان العاشقان!

جاءني طالب وطالبة في إحدى كليات الجامعة، وقال لي الطالب أنه أحب زميلته كما أحب روميو جولييت، وكما أحب أنطونيو كليوبترا، وكما أحب الدوق وندسور مسز سمبسون. واتفقا على الزواج. ولكن تقدم طبيب لأسرة الفتاة طالباً يدها، وكان الطبيب شاباً ناجحاً، له عيادة تدر عليه دخلاً كبيراً، ويملك فيللا تحيط بها حديقة بفناء، وعنده سيارة فخمة ضخمة فارعة الطول!

وفضلت أسرة الفتاة الطبيب الموسر على الطالب المفلس. . .

ورفضت الفتاة أن تتزوج من الطبيب، وأصر الأب أن يعقد الزواج، وانتهزت الفتاة نوم الأسرة فجمعت ملابسها وهربت إلى الطالب وتزوجته! وتبرأت أسرة الطالبة منها وتبرأت أسرة الطالب من ابنها لأنها لم توافق أن يتزوج الفتاة برغم أهلها!

وأصبح الطالب والطالبة في الشارع وليس معهما إلّا كيوبيد إله الحب!

وسألني الزوجان الصغيران ماذا يفعلان؟ قلت إنني لا أؤيد زواج الشاب العاطل. يجب أن يعمل الشاب أولاً قبل أن يطلب من الفتاة التي يحبها أن تترك بيت أبيها! لا أحد يعيش على الحب وحده. فالحب يموت إذا جاع المحبان ولم يجدا طعام الإفطار والغداء والعشاء، ولم يجدا

الغرفة التي يبيتان فيها، ولم يجدا أجرة الأوتوبيس!

ممكن أن يحتمل الحب الانتقال من قصر إلى كوخ. ممكن أن يرتدي الحب الملابس القديمة ويتخلى عن أحدث الموضات. ممكن أن يمشي على قدميه ولا يستقل سيارة رولزرويس! ولكن الحب يجب أن يأكل!

وقد نستطيع أن نعيش ٢٤ ساعة بلا طعام، وقد نحاول أن نتسول طعامنا يومين أو أسبوعين أو شهرين من الذين يعطفون على العشاق والمحبين. ولكن لا يوجد عندنا جمعية خيرية للمحبين يلجأ إليها العشاق إذا طردهم أهلهم أو إذا هربوا من بيوت أهلهم!

الحب يحتاج إلى عمل متواصل بجوار العواطف! فالرجل الذي لا يعمل لا يستطيع أن يفتح بيتاً، ولا أعرف حباً عاش في العراء، أو صمد وهو جائع لا يجد لقمة العيش!

الذي يحب حقيقة يجب أن يعمل ويكافح ويشقى ويعرق وبعد ذلك يتزوج!

وسألني الشاب العاشق: وماذا كانت صناعة روميو؟

قلت: لا أعلم.. ولكن من المؤكد أنه لم يكن عاطلاً، وإلا لما أحبته جولييت!

إحترام المسرح...

رأيت يوسف وهبي لأول مرة منذ ٥٦ عاماً! دخلت مسرح رمسيس في شارع عماد الدين لأول مرة في حياتي. وراعني جلال المسرح وهدوء الصالة ودقة المواعيد. كان المتفرجون قبل رفع الستار يهمسون ولا يتكلمون. وكان المتفرجون الذين يدخلون إلى القاعة بعد رفع الستار يمشون على أطراف أصابعهم. وكانت السيدات يجلسن في ألواج وبناوير أسدلت عليها ستائر بيضاء من الحرير، فلا ترى من النساء إلا أشباحاً. وكنت تستطيع أن تضبط ساعتك على موعد فتح الستار.

وفي الأنتراكت كانوا يعرضون على المتفرجين فيلماً عن آداب المسرح. لا يجوز أن تقزقز اللب! لا يجوز أن تحضر معك طعاماً أو تأكل في صالة المسرح. لا يجوز أن تخرج أثناء التمثيل. لا يجوز أن تتكلم أثناء التمثيل. ثلاثون «لا يجوز» تحذرك من ارتكاب أي جريمة تسيء إلى قداسة المسرح العظيم!

يومها تأدبت الجماهير! كان المتفرجون في المسارح الأخرى يدخلون «قافية» مع الممثلين أثناء التمثيل! كانوا يصفقون ويصفرون ويهللون بمناسبة أو بغير مناسبة. كان بعض أثرياء المتفرجين يحضر إلى المسرح ومعه زجاجة ويسكي أو زجاجة بيرة!

ولكن الأمر يختلف عند يوسف وهبي، كنت تدخل مسرحه وكأنك تدخل في معبد أو تحضر محاضرة في الجامعة قبل أن تصبح

المحاضرات بالميكروفونات كما هي في هذه الأيام!

وجاءت أم كلثوم وغيرت جو المسرح الغنائي. وفرضت لأول مرة احترام المطربة على الجمهور، فلم يعد المستمعون يقاطعون المطربة أو يغازلونها أو يتركون مقاعدهم ويصعدون على المسرح ليعبروا للمطربة عن حبهم وإعجابهم! كانت نظرة من عين أم كلثوم أقوى أثراً على المستمعين من فرقة من رجال البوليس تحافظ على النظام!

وقبل أم كلثوم كان بعض المستمعين يصعدون على المسرح ويرقصون أمام منيرة المهدية سلطانة الطرب في تلك الأيام، وحدث مرة أن صعد حسين رشدي باشا رئيس مجلس الشيوخ إلى المسرح وقبل يد منيرة المهدية أمام الجماهير إعجاباً بغنائها لدور كليوبترا أمام محمد عبد الوهاب الذي كان يغني دور مارك أنطوان!

ويومها غضب الملك فؤاد على رئيس مجلس الشيوخ وقال له أنه لا يليق أن يقبل يد مغنية!

وفي السنوات الأخيرة دخل الهرج والمرج إلى المسرح.. وحدثت مناقشة عنيفة بين بعض المتفرجين وعبد الحليم حافظ وهو يغني في إحدى حفلاته الأخيرة!

ويومها شتم عبد الحليم الجمهور، وهاجمته الصحف!

وكانت جريمته أنه أراد أن يعيد الاحترام للمسرح كما كان قبل خمسين سنة!

لا يستطيع الضعفاء أن يكونوا مخلصين!

إستدعى الحاكم بأمره مدير مخابراته وسأله: ما هي معلوماتك عن فلان الفلاني؟

قال مدير المخابرات: إنه لا شيء!

وسأله الحاكم بأمره: هل تعتقد أن لفلان هذا مستقبلاً؟

قال مدير المخابرات: لا مستقبل له!

وعاد الحاكم بأمره يسأله: وهل تعتقد أنه سيكون له مستقبل بعد عشرين سنة؟

قال مدير المخابرات: ولا بعد مائة سنة!

قال الحاكم بأمره: إذن سأختار فلان الفلاني هذا في منصب رئيس الوزراء، وبذلك أضمن أنه لا يطمع في أن يحل محلي، ولا يتآمر علي، ولا يصبح خطراً أخشى أمره!

وأصدر قراراً فعلاً بتعيين هذا «اللاشيء» رئيساً للوزراء!

وكان هذا «اللاشيء» من أطول رؤساء الوزارات عمراً في تلك الدولة، وبقي في منصبه إلى أن توفي بلا إقالة ولا استقالة ولا طرد ولا إحالة على المعاش!

ذلك أنه في عهود الطغاة يصبح «اللاشيء» مطلوباً، و «الشيء» مكروهاً.

الرجل الواحد يفضل الأمعات الذين لا حول لهم ولا قوة، الذين يستمدون وجودهم من وجوده وسلطانهم من سلطانه، أما الحاكم الديموقراطي، فهو يحتاج إلى الرجال الأقوياء الذين يعتمد عليهم، ويدافعون عن رأيه، ويبشرون بسياسته، ويصمدون في البرلمان، لمعارضة معارضيه.. أما الديكتاتور فهو لا يحتاج إلا إلى حرس يحميه، ومدفع يهدد به، وكرباج يؤدب به، وميكروفون يذيع به خطبه وأحاديثه التي يجب أن يسمعها الشعب شاء أو لم يشأ.

وعندما يؤلف الطاغية حزباً لا يضم إلا الأمعات والنكرات والانتهازيين وفتوات كل زفة، وكلاب كل سلطة.. فإذا اهتز مقعد الحاكم الواحد وخرجت المظاهرات تهتف بسقوطه تجد كثيراً من أعضاء حزب الحاكم تمشي في مقدمة المظاهرات تهتف بسقوط الحاكم الطاغية الظالم، وهي التي كانت قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة تهتف بحياة الحاكم العادل الصادق الأمين!

إن الضعفاء لا يستطيعون أن يكونوا مخلصين!

عندما يخرج الوزير من الوزارة!

قال لي أحد الوزراء السابقين أنه بعد خروجه من الوزارة ألغى غرفة الصالون التي كان يستقبل فيها الزوار في بيته، وحولها إلى غرفة نوم، لأنه لم يعد في حاجة إلى غرفة استقبال لأن أحداً لم يعد يزوره!

وعندما كان وزيراً كان الصالون يمتلىء بالزائرين ويضيق بهم. فيجلس بعضهم في صالة البيت، ويقف بعضهم على السلم، ويزحم بعضهم رصيف الشارع!

وروى لي الوزير أنه دخل المطبخ مرة فوجد وكيل وزارته جالساً مع الطباخ لأنه لم يجد لنفسه مكاناً في الصالة أو الصالون!

وفي مذكرات المهندس سيد مرعي يصف ما حدث له عندما أخرجه الرئيس جمال عبد الناصر من منصب وزير الزراعة:

«بعد أيام بدأ الزوار يتناقصون..

«بعد أسبوع أصبحوا يعدون على أصابع اليد الواحدة.

«وكان هذا التناقض يسير في تناسب عكسي مع حالة الخوف التي بدأت..

«.. وفي هذا الجو بدأ زواري من قطاع الزراعة يتناقصون بشدة، وكنت سعيداً بهذا التطور.. لأن الاضطهاد الفعلي لكل من يزورني أو على علاقة مودة معي كان قد بدأ، بل أوقف بعضهم عن العمل فعلاً

تهديداً لغيرهم، لهذا فإنني كنت مستريحاً نفسياً، لسبب بسيط، وهو أنني لن أستطيع أن أحمي زائري من الاضطهاد»!!

وكثيرون من كبار الموظفين فقدوا مناصبهم لأنهم ضبطوا يزورون وزراء خرجوا من الوزارة!

وحدث أن قبض على محمد هاشم سكرتير كمال الدين حسين وحسن عبد المنعم مدير مكتبه لأنهما ضبطا يزوران كمال الدين حسين بعد استقالته، ووضع الاثنان في السجن الحربي جزاء جريمتهما النكراء!

وروى لي أحد الوزراء أن والد الوزير الذي سبقه في الوزارة توفي إلى رحمة الله، ودخل عنده وكلاء الوزارة يسألونه هل علم بوفاة والد الوزير السابق فأجاب بالإيجاب. فسأل الوكلاء: هل يشتركون في الجنازة أم يكتفون بإرسال برقية عزاء!

وعرف الوزير الجديد عندئذ ماذا سيحدث له لو أنه خرج هو من الوزارة، وتوفي والده إلى رحمة الله!

عندما كانت الصحافة صاحبة جلالة!

كان الزعيم سعد زغلول يحترم الصحفيين لأنه بدأ حياته صحفياً، وكان إذا جاء إلى مكتبه وزير ورئيس تحرير جريدة في وقت واحد أمر سكرتيره بأن يدخل أولاً رئيس التحرير ويطلب من الوزير الانتظار في غرفة السكرتير!

وحدث مرة أن أراد عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ أن يسافر في إجازة إلى الخارج، واختار عبد القادر حمزة من يختار ليرأس تحرير الجريدة الوفدية الكبرى أثناء غيابه، وإذا بسعد زغلول يقول له أنا سأرأس تحرير البلاغ في غيابك!

وفعلاً رأس زعيم الأمة تحرير الجريدة في أثناء غياب صاحبها!

وحدث مرة أن كان أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام يتكلم في إحدى جلسات مجلس الشيوخ، وقاطعه بعنف علي ماهر باشا وكان رئيس الوزراء، وجمع أنطون الجميل أوراقه وانسحب من الجلسة وعاد إلى مكتبه في جريدة الأهرام. وبعد خمس دقائق فوجئنا بعلي ماهر رئيس الوزراء يجيء مهرولاً إلى جريدة الأهرام، ومعه محمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ، ورأينا رئيس الوزراء وهو يعتذر لرئيس تحرير جريدة الأهرام!

وحدث بعد ذلك أن تولى حسن صبري باشا رئاسة الوزارة،

ونشرت الأهرام خبراً عن الوزارة أغضب رئيس الوزراء، وكان في ذلك الوقت الحاكم العسكري والمشرف على رقابة الصحف، فقد كانت الصحف تحت الرقابة بسبب الحرب العالمية. وأصدر رئيس الوزراء بلاغاً عنيفاً هاجم فيه جريدة الأهرام وتجنى عليها!

واجتمع جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام وأنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام وأنا، وقد كنت أرأس قسم الأخبار، واتفقنا أننا لا نستطيع أن نهاجم رئيس الوزراء رداً على هجومه لأن الرقابة ستمنع أي كلمة تمس رئيس الوزراء. وقررنا أن تمتنع «الأهرام» عن نشر إسم حسن صبري باشا رئيس الوزراء، وتمتنع عن نشر صورته إلى أن يعتذر علناً عن إهانته للجريدة. وحذفنا اسمه من كل خبر. وحذفنا صورته من كل خبر. فإذا قابل الملك قلنا أنه قابل رئيس الوزراء. وحذفنا إسم حسن صبري باشا. ورفض حسن صبري أن يعتذر وهدد بالاستيلاء على ورق الأهرام فلم يرهبنا التهديد ومضينا في مقاطعة رئيس الوزراء، واستمرت المقاطعة إلى أن مات حسن صبري باشا وهو يلقي خطابه في افتتاح البرلمان! وعندئذ فقط نشرت الأهرام اسمه!!

ما أسوأ حظ الصحفيين في أيامنا هذه!!

الموظف الذي بقي بعد ساعات العمل!

كان يزورني أحد مديري الشركات الكبرى في العالم، وسألته كيف وصل إلى منصبه المرموق؟ وضحك وروى لي أنه كان يشغل منصباً صغيراً في الشركة، وكان مكتبه في الطابق السادس عشر من إدارة الشركة، وذات يوم كلفه رئيسه بعمل ضخم. ولم يتأفف ولم يعترض ولم يقل أن هذا العمل يحتاج إلى خمسة موظفين لا إلى موظف واحد، وأنه يستحق أجر ساعات إضافية. لم يضيع وقتاً وأكب على عمله. وجاءت الساعة الخامسة بعد الظهر موعد انصراف الموظفين فلم ينصرف معهم، واستمر يعمل، وجاءت الساعة السادسة مساء والساعة العاشرة مساء والساعة الأولى بعد منتصف الليل وهو يتم عمله.

وتصادف أن كان رئيس مجلس إدارة الشركة يتناول عشاءه في نفس الحي، وعند عودته إلى بيته تطلع إلى عمارة الشركة فوجد الطابق السادس عشر مضيئاً. واعتقد أن لصاً في هذا الطابق، ففي الطابق السادس عشر توجد خزانة الشركة! وأوقف رئيس مجلس الإدارة سيارته، وصعد إلى الطابق السادس عشر ودخل الغرفة التي بها الموظف الصغير، وسأله ماذا تعمل الآن، فقال الموظف: أنهي عملاً كلفني رئيسي به! وقلب رئيس مجلس الإدارة الأوراق في يده وقال: ولكن هذا عمل يحتاج إلى عدة أيام.. قال الموظف الصغير أعلم ذلك. وسأله رئيس مجلس الإدارة: ولماذا لم تخبر رئيسك بذلك؟ وأجاب الموظف الصغير لأنني أستطيع أن أسهر وأنتهي منه!

وفي اليوم التالي وجد الموظف الصغير قراراً من رئيس مجلس الإدارة بنقله إلى مكتب الرئيس، وبعد بضعة شهور رقاه إلى منصب رئيس، وبعد عام دفعه إلى الأمام دفعة كبرى، وبعد خمسة أعوام وجد قراراً بتعيينه مديراً للشركة!

وضحك مدير الشركة وقال: في ذلك اليوم قابلتني زوجتي غاضبة وقالت لي لماذا تأخرت؟ لا بد أنك عاشق! وبعد ذلك تأكدت أنني عاشق، وأن عشقي هو لعملي، ولو كنت حافظت على موعدها في تلك الليلة، وذهبت معها إلى السينما لكنت حتى الآن موظفاً صغيراً في الطابق السادس عشر!

إن القانون يحدد للموظف ساعات عمل، وإجازة أسبوعية، وإجازات سنوية وإجازات مرضية وإجازات عارضة، ولكن الذين قفزوا إلى قمة النجاح لم يحصلوا على حقهم في هذه الإجازات حتى الآن!

قالت لي زوجة طبيب مشهور جداً مرة أنها كانت تتمنى لو أن زوجها كان طبيباً مغموراً، ويستمتع بجميع الإجازات وساعات الراحة كباقي خلق الله..

قلت لها: إنني أعرف ملايين الزوجات على استعداد للتضحية بالإجازة ليكون عند الواحدة منهن عمارة وعزبة وسيارة كاديلاك!

ثم تبينت أن زوجة الطبيب المشهور تريد العمارة والعزبة والإجازات في وقت واحد!!

الحرس الذي لا ينهزم أبداً!

بعض الناس يحارب الدعوة إلى فتح النوافذ والأبواب..

أنا أعتقد أن فتح النوافذ والأبواب سوف يؤدي إلى دخول الشمس والهواء، وهم يعتقدون أن فتح النوافذ والأبواب سيؤدي إلى الالتهاب الرئوي أو الزكام!

أنا مؤمن أن الحرية تطيل عمر الحكام، وهم يتوهمون أن الحرية تقصف عمر الحكام وهم في ريعان الشباب!

أنا أدعو إلى رفع الكمامات من فوق الأفواه، وهم يخافون إذا فتح الناس أفواههم أنهم لن ينطقوا إلاَّ بالكلمات البذيئة والشتائم والسباب ولعن الحكام!

أنا أرى السلاسل في عنق الشعب تذله، وهم يرون أن السلاسل في جبين الشعب تزينه وكأنها عقود اللؤلؤ والماس!

ولقد رأيت عروشاً تتهاوى بسبب الارهاب والاستبداد، ولم أر حكومات تسقط بسبب الحرية والديموقراطية.

رأيت عشرات الدول وهي تتساقط كأوراق الخريف لأنها قيدت الحرية. ولم أر دولة واحدة أطالت السلاسل والقيود في عمرها!

لو أن هيلا سلاسي أدخل الديموقراطية والحرية والعدالة إلى

أثيوبيا، لما استطاع انقلاب عسكري، يقوده حفنة من صغار الضباط، أن يسيطر على أثيوبيا ويدك عرشها ويحولها إلى دولة حمراء!

لو أن هيلا سلاسي اقتنع بأن الدنيا تغيرت، وأن ما كان يقبله الأحباش في الثلاثين مرغمين، سوف يرفضه الأحباش في أواخر السبعينات، لما سقطت أمبراطوريته وكأنها بيت من أوراق اللعب!

لو أن أثيوبيا فيها شعب يتمتع بحقوق الإنسان، لتصدى للانقلاب الشيوعي، وقاوم حمامات الدم وثار على المذابح اليومية، ولكن عيب الديكتاتور أنه لا يقرب إليه إلاَّ الضعفاء وإلاَّ العبيد، وهؤلاء لا يشتركون في المعارك ولكن يظهرون في المواكب، لا يصمدون في الشدائد، وإنما يهربون كالفيران من السفن الغارقة. لا يقاومون وإنما يستسلمون!

ولهذا سقط حكم الأمير محمد داوود في أفغانستان، وهوى حكم الشاه في إيران..

الحرية والديمقراطية والعدالة هي الحرس الذي لا ينهزم أبداً!

من الذي حرق القاهرة!

مرت سبع وعشرون سنة على حرق مدينة القاهرة يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، وحتى اليوم لم يعرف أحد بصفة مؤكدة من هم الذين حرقوا القاهرة!

كل فريق يلقي التهمة على الفريق الآخر، وكل جهة تشير بإصبعها إلى الجهة التي لا تحبها.

وقد يكون الذي حرق القاهرة هو فريقاً معيناً، وجاءت فرق أخرى تسكب البترول على النار لتزيدها اشتعالاً..

ولكن المؤكد أن أي وطني لا يحرق بلاده، مهما بلغت خصومته بحكومة هذه البلاد..

وقد يجد الأجنبي عملاء له من بين أهل البلد ينفذون له الجريمة التي رسمها، ولكن من المستحيل أن يفكر ابن البلد في تدمير بلد أقام فيه طول حياته، سواء أقام في كوخ أو في كهف أو في قصر منيف!

ولهذا فعندما قرأت عن الحرائق التي قامت في بعض بلاد إيران في أثناء الحوادث الأخيرة آمنت على الفور أن الأيدي التي حملت الكبريت لا يمكن أن تكون إيرانية!

إن مدينة القاهرة خسرت بحريقها بلايين الجنيهات، هربت المنشآت وانكمشت البنوك، وتدهورت التجارة، وانهارت السياحة،

وساءت سمعة المدينة لعدة سنوات، ولولا هذا الحريق المدمر لما أصاب الشعب المصري كل ما أصابه نتيجة هرب رؤوس الأموال والخبرة والكفاءة.. فكل هذا لا يعيش إلا في ظل الأمن والاستقرار ونحن إذا أشعلنا النار في بيت واحد لا نخيف أهل البيت وحدهم، وإنما نخيف الحي كله، وفي بعض الأحيان نرعب المدينة كلها!

وحريق القاهرة هو الذي أحيا مدينة بيروت. فلقد هربت ألوف من المؤسسات الاقتصادية إلى بيروت عقب حريق ٢٦ يناير، ولكن الحرب الأهلية في بيروت لم تعمر القاهرة. فعندما دمرت بيروت اتجه الهاربون إلى أثينا وإلى قبرص وإلى عمان وإلى البحرين، ولم تستطع مدينة من هذه المدن أن تخلف مدينة بيروت..

فالذين يحرقون المدن لا ينتقمون من الحكومات ولا من الحكام إنما يحرقون شعوبهم ويدمرونها..

ومن أجل هذا فأنا لا أعتقد أن وطنياً يمكن أن يحرق مدينته!

المجنون وحده هو الذي يحرق بيته!

الوفاء يدر ذهباً!

أجمل صفات الإنسان هي عرفان الجميل!

لو ان الذين يعرفون الجميل يعلمون ماذا يكسبون بالوفاء، وماذا يخسرون بالنكران لما بقي في الدنيا ناكر واحد للجميل، أو من يعض اليد التي أحسنت إليه!

أذكر أن صديقاً لي أعطى أحد الشبان الكثير من ثقته وماله. كان عارياً فكساه، وكان جائعاً فأطعمه، وكان مشرداً فآواه، وكان مجهولاً فشهره، وكان مغموراً فقدمه لأصحاب النفوذ والسلطان..

وفقد الصديق منصبه الكبير، فكان هذا الشاب أول من طعنه في ظهره، وأول من هاجمه في مجالسه، وأول من رماه بالطين، وأول من نسب إليه كل ما في قانون العقوبات من جرائم ومخالفات!

وقابلت هذا الشاب وسألته: لماذا فعلت هذا بالرجل الذي أحسن إليك!

وإذا به يقول: هذا الرجل انتهى، ولن تقوم له قائمة!

قلت له: في مصر لا ينتهي أحد! رجال السياسة في بلادنا كالقطط لها سبعة أرواح. كثير منهم انطفوا ثم لمعوا، واختفوا ثم ظهروا، وسقطوا ثم ارتفعوا!

قال: أنا واثق أن هذا الرجل بالذات انتهى إلى الأبد!!

وبعد ثلاث سنوات فقط أصبح الرجل المنتهي في منصب كبير جداً، أكبر كثيراً من المنصب الذي طرد منه!

وجاءني الشاب يبكي وهو يقول: حظي سيء!

قلت: لا.. بل خلقك هو السيء! لو أنك وفيت له بالأمس لقبضت اليوم ثمن الوفاء بالأرباح المركبة! وأنا أتصور أن الله أنصف هذا الصديق لأنك أسأت إليه، أراد الله أن يعاقبك على خيانتك فرفعه من الحضيض، ورفع رأسه لتنكس أنت رأسك، وصعد به إلى كل هذا المجد ليهوي بك أنت إلى الحضيض!

أنا في رأيي أن الوفاء يدر مالاً! والأمانة عملية رابحة.. والذين يخونون أصدقاءهم أو يغدرون بإخوانهم، أو يسرقون ما ائتمنوا عليه جهلاء بعلم الحساب!

وراء كل عظيم امرأة!

وراء كل عظيم امرأة.. أما تدفعه إلى الأمام أو تجذبه إلى الخلف!

وفي التاريخ رجال كثيرون مدينون لنجاحهم لامرأة. أما زوجة وأما حبيبة وأما أماً! وفي التاريخ أيضاً رجال رفعتهم أمة وأسقطتهم امرأة!

وسعد زغلول مثلاً كان يقول إنه مدين بنجاحه إلى أمه السيدة مريم. فقد أخذ منها الحكمة والصبر وحب الناس، بينما أخذ من أبيه الشيخ ابراهيم الاندفاع! وكان إذا اندفع سعد قال: «هذا هو أبي» وإذا صبر وتحمل قال: «هذه هي أمي»..!

والرئيس بيرون مدين في نجاحه في الأرجنتين إلى إيفا.. المرأة التي بدأت راقصة كباريه ثم انتهت إلى أن أصبحت قديسة! وكانت شعبيتها تحرس حكم بيرون أضعاف ما يحرسه الجند، فلما ماتت فقد سحره على الشعب، وفقد حكمه.. وتزوج من ممثلة أرادت أن تكون مثل إيفا وفشلت وكرهها الشعب، ومن أجلها كره بيرون، وعندما مات انقلب الشعب عليها وأسقطها من رئاسة الجمهورية التي وصلت إليها متنكرة في ملابس ايفا بيرون!

وعندما تكتب قصة الملك فاروق على حقيقتها سيذكر التاريخ أن زواجه من فريدة جمع قلوب الشعب حوله، وأن طلاقه من فريدة صرف

الشعب عنه . . وكان يوم طلاقه فاجعة في كل بيت في مصر، واعتبرت كل زوجة مصرية أنها هي التي طلقت، وأحست كل بنت مصرية كأن أباها طلق أمها! وخرجت مدارس البنات في مظاهرات في الشوارع تهتف « من دار الدعارة إلى دار الطهارة يا فريدة» و «يسقط الملك الفاسق وتحيا الملكة الشريفة».

«أخرج أنت يا فاروق من القصر . . واترك القصر إلى فريدة» . . !

وقد كان أحمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك يتوقع هذا الدوي، وعارض بشدة طلاق الملك الذي فكر فيه عام ١٩٤٤ لأول مرة ، ولم يستطع تنفيذ الطلاق ما دام حسنين حياً . . وبعد أن مات حسنين اعتزم فاروق الطلاق وعارضه النقراشي باشا رئيس الوزراء، وطلب أن يعرض الأمر على البرلمان في جلسة سرية، ولكن الملك أصر على الطلاق رغم معارضة رئيس الوزراء، وكان حسنين باشا يقول أنه لو كانت الملكة فريدة أكبر سناً لعرفت كيف تسوس الملك، ولكنها تزوجته وهي طفلة صغيرة وزواج الأطفال لا يمكن أن يكون سعيداً، وكان حسنين يقول إذا خرجت فريدة من قصر عابدين فسيخرج فاروق وراءها بعد خمس سنوات!

وصدقت نبوءة حسنين . .

وخرج فاروق بعد أربع سنوات!

العطاء بلا مقابل!

قالت السيدة المصرية للطفل الأمريكي : أرجوك يا جون أن تضع هذا الخطاب في صندوق البريد!

قال الطفل وكم تعطيني ثمناً لذلك. لقد علمتني أمي أن الوقت له ثمن. وأن أي شيء تكلفني به يجب أن تدفع لي مقابله!

وهذه الطريقة في تعليم الأطفال هي التي أدخلت المادية في الإنسان الأمريكي، فأصبحت إذا سألت أمريكياً عن حاله قال لك: إنني أشعر كأنني مليون دولار! فهو يتصور أن المليون دولار هو الصحة وهو السعادة وهو قمة ما يصبو إليه الإنسان!

ونحن لا نريد أن ندخل هذه الروح المادية في قلوب أطفالنا. نريد أن نعلمهم أنهم ممكن أن يقوموا بأعمال كثيرة بغير أن يتقاضوا عليها أي ثمن، ممكن أن يساعدوا ضعيفاً، أو أن يقيموا ساقطاً على الأرض، أو يواسوا حزيناً بغير ثمن!

إن أجمل ما في بلادنا العاطفة الحلوة التي تربط الإبن بأمه، أو الأخ بأخيه، أو الأب بابنه. هي التي جعلت الواحد منا يشعر بأنه إذا ضحى في سبيل من يحب فإنه يشعر بسعادة لا يتخيلها الذي يتصور أن السعادة هي مليون دولار!

إنني في حياتي التقيت بسعداء كثيرين، أعطوا بغير مقابل، قدموا

خدمات بغير ثمن، قاموا بتضحيات بغير أن ينتظروا جزاء! أعرف أصدقاء فقدوا ثرواتهم في ضمانات لأصدقاء آخرين ولم يندموا في يوم من الأيام أنهم ضحوا بكل ما يملكون من أجل إنقاذ صديق من الإفلاس!

كانت في بلادنا أشياء جميلة جداً، حاولت المدنية الحديثة أن تقضي عليها، فمزقت الروابط الحلوة، وحطمت العلاقات الجميلة، وجعلت البعض منا يقلد الخواجات فلا يعطي إلا بثمن، ولا يساعد إلا بمقابل!

إن الحضارة ليست في الملابس، ولا في المعدات الكهربائية، ولا في الطائرات عابرات القارات، إنما الحضارة الحقيقية في المشاعر الإنسانية الجميلة عندما نعطي ولا نأخذ وعندما نحب ولا نطلب ثمناً لهذا الحب!

زوجة الطاغية

أمضيت ساعتين مع زوجة طاغية صغير وبناتها الثلاث! كان الطاغية حاكماً بأمره. كلمة منه معناها الموت أو الحياة. إشارة من أصبعه معناها الثروة أو الإفلاس! كم زج من أبرياء في السجون. كم صادر من أموال، كم طرد أسراً من بيوتها وأسكن فيها من شاء من المحاسيب والأنصار!

وفجأة ذهب كل شيء ولم يبق إلا الرجل، وفوجئت الزوجة والبنات بالطاغية السابق يعلن الإرهاب في بيته! حول البيت إلى سجن رهيب، لا تفتحوا الأبواب! لا تفتحوا النوافذ! لا تدخلوا! لا تخرجوا! تماماً كما كان يفعل في الدولة التي كان يشترك في حكمها بالحديد والنار، الويل لمن يخالف أوامره ومذاهبه. يضرب الزوجة ويركلها. ويهوي بالسوط على البنات المسكينات. الرجل جن. فقدانه السلطة ذهب بعقله. أصيب بكبت طغياني، فأراد أن يعوضه بطغيان داخل بيته. جعل من أسرته شعبه الصغير الذي يستبد به ويذله ويدوس على رقبته بالأقدام!

ولم تكن الزوجة والبنات يعرفن أن الزوج والأب الطيب بهذه الصورة البشعة إلا بعد أن تفرغ لهن! لم تكن الزوجة تتصور أن الزوج الذي تحبه سفاح، ولم يخطر ببال البنات الصغيرات أن خلف هذا الوجه الضاحك وحشاً مفترساً إلا عندما فقد سلطانه على الناس، وجاء

بالسوط الذي كان يهوي به على ظهور الشعب ليهوي به على ظهور البنات الثلاث! وهو يتفنن في تعذيب أسرته. إذا فتحوا التليفزيون أمرهم بإغلاقه، فإذا أغلقوه أمرهم بفتحه. إذا دق جرس التليفون أصر أن يستمع بنفسه إلى كل مكالمة كما كان يراقب التليفونات في الماضي، وإذا جاءت قريبة لهن تزورهن وقف خلف باب الصالون ليتبين ما تقوله الزائرة. وهو يضع كل فرد من أفراد الأسرة تحت مراقبة دقيقة، يتتبع خطواتهن، يمشي على أطراف أصابعه ليسمع أحاديث البنات وهن في غرفة نومهن! والبنات في دهشة كيف استطاع الشعب أن يحتمل أباهم كل هذه السنين، ولم يثر عليه، ولم يقتلعه من كرسيه، وفي رأيي أن أمثال هؤلاء الجلادين يفقدون عقولهم عندما يفقدون سلطانهم، فلقد تعودوا على شرب دم الضحايا وعلى أكل لحم الأبرياء، فلما انتزعت أنيابهم ومخالبهم استداروا نحو أهلهم يحاولون أن يسفكوا دمهم أو يأكلوا لحمهم!

ولو كان الأمر بيدي لأنشأت مصحة للأمراض العقلية يوضع فيها الطغاة بعد أن يتركوا الحكم، وبذلك لا نذيق أولادهم مرارة ما تحملته شعوبهم من عذاب.. أم أن القدر شاء أن يذيق أولاد الطاغية الجبار بعض ما أذاقه لشعبه من طغيان وجبروت وإرهاب؟

الحب أعمى!!

آمنت أن الحب أعمى!

منذ سنوات كتب لي أحد كبار الكتاب خطاباً يصف فيه امرأة أحبها، وقال لي أنها طويلة القامة، عيناها فيهما سحر هاروت وماروت، أسنانها كاللؤلؤ المنضود، شعرها تاج من الذهب!

ثم التقيت بحبيبة الكاتب الكبير فإذا بها قصيرة القامة، ولولا كعبها العالي جداً لعدت من الأقزام، وتأملت عينيها فإذا فيهما بقايا رمد ربيعي، وبحثت عن هاروت وماروت فلم أجدهما مختفيين وراء الرموش والأجفان، وتطلعت إلى أسنانها فوجدت أنها لؤلؤ صناعي فقد كان في فمها طقم أسنان، ولاحظت أن تاج الذهب المزعوم هو باروكة شقراء!

ولم ير صاحبي الأديب الكبير ما رأيت، فنحن عندما نحب نغمض إحدى عينينا وعندما نعشق نغمض العينين معاً، وعندما نذوب من الهوى نغلق عيوننا وعقولنا.. وعبثاً حاولت أن يرى صاحبي ما أرى. وليس الذنب ذنبه فهو يضع على عينيه نظارة الحب وأنا أضع على عيني ميكروسكوب الحقيقة!

أنا أرى على خدها ذبابة، وهو لا يرى الذبابة وإنما يرى شامة جميلة!

أنا أرى في عنقها بقايا جرح غائر، وهو يراه عقداً من الزمرد!



أنا أرى فستانها لا يلائم لون بشرتها، ولا يخفي عيوب جسمها، وهو يرى أن الفستان هو أكبر دليل على سلامة ذوقها وحسن اختيارها وأنها لا تختار ملابسها إلا من نيويورك ولندن وباريس!

أنا مبصر وهو أعمى! وربما أنا أنظر بعيني وهو ينظر بقلبه، والقلوب العاشقة عندما تخفق ترى القرد غزالاً، والحمار سيارة رولز رويس!

ومرت الأيام وخاصمها، ثم كرهها، ثم قطع علاقته بها. . .

ووجدته يصفها كما رأيتها! لم ير القد المياس وإنما رأى امرأة طولها شبر! ولم ير اللؤلؤ في الأسنان وإنما رأى طقم الأسنان، ولم ير أسلاك الذهب في شعرها وإنما رأى الباروكة التي لا فن فيها ولا ذوق!

وحاولت أن أذكره بما قاله لي فلم يتذكر!

خلع نظارة الحب التي كانت تقول «الله»!

وارتدى ميكروسكوب الحقيقة الذي يقول «أعوذ بالله»!

.

أعطانا الله ثروة هائلة!

أعطانا الله ثروة هائلة، ومركزاً استراتيجياً خطيراً، وتراثاً روحياً عظيماً فماذا فعلنا بها؟

اشترينا بها محطات إذاعة نهاجم فيها أنفسنا. وأقمنا بها صحفاً نشتم فيها بعضنا. وأعددنا انقلابات ومؤامرات نقتل بها حكاماً ونرفع بها حكاماً ونخفض بها حكاماً آخرين. وحاربنا بعضنا. وأنفقنا أموالاً طائلة في تدمير بيوتنا وتخريب مدننا وفرش شوارعنا بالأشلاء والعظام ودم الأبرياء. . .

لو أننا أنفقنا هذه الثروات الضخمة في بناء أنفسنا، وفي توحيد صفوفنا، وفي استرداد ما فقدناه من أرضنا لما كان هذا حالنا! وغيرنا استفاد من المال القليل الذي يملكه ليقيم المصانع الضخمة، ويسير أساطيل الطائرات، ويبني ألوف الجامعات ومعاهد الأبحاث!

الشيء العجيب أننا ونحن فقراء معدمون استطعنا أن نبني امبراطورية تمتد من الصين والهند وتصل إلى حدود فرنسا! العجيب أننا ونحن مفلسون كانت لنا حضارات تغزو العالم! أذكر أن الجنرال فرانكو قال للدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء المصري في تلك الأيام: إن أهل اسبانيا هم أنظف أهل أوربا، لأن العرب حملوا إليهم النظافة، فوضوء المسلم جعل الأسباني يقلده في أن يستحم عدة مرات في اليوم!

وأذكر أن الجنرال ديجول قال لي مرة: أنه لولا أن العرب في أسبانيا اختلفوا مع بعضهم، لأصبحت فرنسا دولة عربية!

ما الفرق بيننا ونحن فقراء وبيننا ونحن أثرياء! كنا ونحن فقراء جيوبنا خاوية وقلوبنا عامرة بالإيمان، وأصبحنا ونحن أثرياء جيوبنا مليئة بالملايين وأرواحنا شاردة، أعمتنا المطامع، وضللتنا الشهوات، وأفسدنا التقليد، وفرقتنا الصغائر، ومزقتنا الأهواء!

كل هذه الأموال الطائلة ممكن أن تقوينا قوة هائلة إذا اتحدنا، وإذا جمعنا صفوفنا المتفرقة، وإذا وجهنا سهامنا إلى أعدائنا لا إلى أنفسنا، ولكن هذه الأموال تتحول إلى قوة مدمرة إذا استعملناها في تحطيم أنفسنا، وفي تفريق كلمتنا، وفي شراء طين نلقيه على بعضنا البعض..

المال في يد العاقل نعمة... وفي يد الجاهل نقمة...

النكتة في الصحف

كانوا يقولون لنا ونحن صغار: أن الضحك من غير سبب قلة أدب! ثم بعد ذلك أثبت العلماء أن الضحك يطيل العمر، والذين لا يضحكون طويلاً لا يعيشون طويلاً!

وكانت مصر مليئة بالصحف الضاحكة الانتقادية، بدأت بمجلة «حمارة منيتي» وكانت الحمارة تهزأ من الخديو وتسخر من الحكومة، وكان القراء يتناقلون نكاتها وقفشاتها!

وكانت تصدر في مصر بعد الحرب العالمية الأولى عشرات من هذه الصحف، وكانت الصحيفة تباع بمليم واحد، وتستطيع أن تشتري عشر مجلات فكاهية بقرش صاغ! وكان من بين المجلات المشهورة السيف والمسامير وأبو قصادة وأبو شادوف والمطرقة وأبو الهول والناس وياويكا والمنارة. وظهر في هذه المجلات بعض الزجالين المشهورين أمثال محمود بيرم التونسي وبديع خيري ومحمود رمزي نظيم وغالب المهندس وحسين شفيق المصري. ثم اختفت هذه المجلات وظهرت مجلات فكاهية راقية مثل روز اليوسف والكشكول والفكاهة وخيال الظل، واشتهرت بالصور الكاريكاتورية الساخرة، وأصبحت هذه المجلات أوسع الصحف انتشاراً! وظهرت بعد ذلك مجلة آخر ساعة وكان يحررها التابعي بأسلوبه الساخر، وكان الدكتور سعيد عبده الطالب في كلية الطب يكتب المواويل السياسية التي تهز الحكومات، وكان الناس يرددونها كأنها أغاني

أم كلثوم، واستمر سعيد عبده يكتب هذه المواويل وهو أستاذ في الجامعة . . .

وعندما قيدت الصحافة اختفت الفكاهة! فإن الحاكم الفرد يريد أن يمشي الشعب في طابور، وليس من المعقول أن يسمح لك وأنت في الطابور أن تضحك، ومعنى أن تضحك وأنت في الطابور أنك تسخر من الحاكم، ولهذا اختفت النكت السياسية من الصحف، ولكنها انتشرت انتشاراً هائلاً بين أفراد الشعب! وكثيرون دخلوا المعتقلات بسبب نكت قالوها أو نكتة رددوها، وعندما حدثت هزيمة عام ١٩٦٧ أراد الشعب أن يعبر عن سخطه على نظام الحكم المسؤول عن الهزيمة بالنكت. وأصبحت النكت أشبه بالسهام الفتاكة، حتى اضطر الرئيس جمال عبد الناصر أن يخطب ويطلب من الشعب أن يتوقف عن إطلاق النكت! . . . وقد وصف أحد المعلقين السياسيين الأجانب أن هذه هي محاولة اغتيال رئيس الدولة بالنكتة!

وسوف تسترد النكتة الصحفية قوتها بحرية الصحافة، وعندما تصبح الصحف والمجلات غير مملوكة للدولة، فالمفروض أن الدولة لا تنكت . . . وعندما تنكت الدولة عادة يبكي الشعب من شدة الغيظ!

أزمات الكاتب!

ما أكثر الأزمات التي يتعرض لها الكاتب، والضربات التي يتلقاها، والمحن التي يمر بها! الكلمات دائماً ليست ورداً يزين غرف الحكام، ولا هي زهوراً تعلق في صدور السلاطين. أحياناً تدوي الكلمة كما تدوي القنبلة، وتفعل الجملة الواحدة ما يفعله المدفع الرشاش!

وعمر الكاتب لا يحسب بالسنين، وإنما بالأزمات التي مر بها، وبالسجون والمعتقلات التي دخلها، وبالسياط التي انهالت على ظهره، وبالمصادرات التي تعرض لها.

أعرف كتاباً دعوا إلى النيابات ومحاكم الجنايات أكثر مما دعوا إلى الولائم والحفلات. وألقيت على مكاتبهم القنابل والديناميت أكثر مما ألقيت عليهم الزهور والرياحين، وانهالت على دورهم الأحجار والطوب أضعاف ما انهالت عليهم رسائل التقدير والإعجاب.

ولقد خرجت المظاهرات تهتف بسقوط طه حسين الملحد لأنه ألف كتاب «الشعر الجاهلي» وخرجت الجموع تلعن عباس العقاد لأنه اتهم حكومة توفيق نسيم باشا بأنها تخدر الشعب. . . وبعد شهور قليلة كانت مصر كلها تقول ما قاله العقاد منذ شهور! وكانت هذه المظاهرات العدائية تهتف بحياة أشخاص آخرين نافقوا الجماهير وجاملوا الرأي العام، ولكن الجماهير نسيت الذين نافقوها، وأصبحت تحيي ذكرى الذين صدموها وواجهوها بالحقائق، ولم يحاولوا أن يخدعوها ليكسبوا رضاها!

أسهل مهمة للكاتب أن يمشي وراء الجماهير يحيي من يحييه ويلعن من يلعنه.

إن مهمة الكاتب الحقيقي هي أن يمشي أمام الرأي العام، يقوده إلى النور ولا يمشي خلفه إلى الظلام. يصارحه بالحقيقة التي تغضبه، ولا يخدعه بالكذب الذي يسعده!

إن الرأي العام قد يتضايق من الكاتب الذي يواجهه بالحقيقة المؤلمة، ولكنه يحترمه. أما الكاتب الذي يرقص في كل زفة، ويلعب على كل حبل، ويزغرد في كل فرح، ويبكي في كل مأتم فقد ينال رضاء الجمهور بضع دقائق، ثم ينساه العمر كله!

فإذا شعرت أيها الكاتب المبتدىء بالضربات تنهال على رأسك، فلا تحزن ولا تيأس. . . فإن هذه طلقات المدافع تعلن مولد كاتب عظيم!

سر تفاؤلي

سألني صديقي العربي الكبير ما هو سر إصراري على تفاؤلي برغم الظلام الذي ينتشر في كثير من بلاد المنطقة؟

قلت له أن اشتداد الظلام يبشرني باقتراب الفجر!

نعم لنا أخطاء كثيرة ولكنها ليست مميتة. كثير من بلاد الدنيا تعرضت في تاريخها لما نتعرض إليه. فهذه أخطاء التقدم وليست خطايا التأخر. المهم أننا نعرف أخطاءنا ونحاول أن نصلحها. فلا نمجد في أخطائنا، ولا نعتبر سلبياتنا منجزات، وهزائمنا انتصارات، وخيباتنا معجزات!

وعاد صاحبي يقول لي: إن أمرك عجيب، إنك لا تيأس! لقد قرأت أنك كتبت عدة سلاسل من المقالات طوال حياتك الصحفية، ولكنك لم تتم سلسلة واحدة منها. كنت دائماً تمنع من الاستمرار في الكتابة قبل أن تنتهي الحلقات. في كل مرة تجيء يد قوية وتنتزع القلم من يدك، وكنت في نهاية المقال الأخير تكتب «البقية غداً» ولكن غداً هذا لا يجيء أبداً!

قلت: إنني مؤمن أن «غداً» هذا سيجيء. يوم يصبح كل كاتب حراً في التعبير عن رأيه، فلا يكبت فكره، ولا يحطم قلمه، ولا يفقد عمله، ولا يقطع لسانه، ولا تغير كتاباته، ولا تحذف عباراته، ولا تشوه معانيه. .

إنني مؤمن أن الحرية الكاملة والديموقراطية الكاملة والعدالة الكاملة هي طريق النجاة الوحيد أمامنا. هي الطريق الوحيد الموصل إلى الرخاء والأمان والاستقرار!

إن الذين يرون أن الليل ليس له آخر واهمون. بعد الليل الطويل ستشرق الشمس، ويجيء نهار الحرية والديمقراطية والعدالة في كل مكان..

سيجيء غد الحرية الذي نبني فيه ولا نهدم، ونتناقش فيه ولا نتشاتم، ونفكر فيه ولا نصرخ. وننفق أموالنا في داخل بلادنا، وذلك يوم نطمئن على أموالنا وأعمالنا، ويتأكد كل مواطن في كل بلد عربي أن أمواله لن تؤمم ولن تصادر ولن تنهب ولن تسرق. ويوم تقتنع كل حكومة أن مهمتها أن تساعد المواطن لا أن تحاربه، وأن تؤمنه لا أن تخيفه، وأن تشجعه على الاستمرار لا أن تحرضه على الفرار!

ستشرق الشمس غداً!

المدن سنة ٢٠٠٠!

عندما بدأنا جريدة «أخبار اليوم» منذ ٣٥ سنة استأجرنا سطحاً في أعلى عمارة بشارع قصر النيل بالقاهرة مؤلفاً من ١١ غرفة!

ودهش زملائي. ما حاجتنا إلى كل هذه الغرف؟ قلت: نفتح غرفتين، ونغلق تسع غرف... وكلما زاد عملنا فتحنا إحدى الغرف!

وبعد شهر واحد من صدور أخبار اليوم اضطررنا أن نفتح الإحدى عشرة غرفة وامتلأت بالكتاب والصحفيين!

وبعد بضعة شهور احتجنا إلى بناء دار!

ويوم احتفلنا بمرور عام واحد على إنشاء أخبار اليوم كنا نضع الحجر الأساسي لبناء الدار!

واقترح زملائي أن نبني داراً من طابقين، وأصررنا ـ علي أمين وأنا ـ أن نضع أساس ١١ طابقاً، وقلنا أنه قد يجيء يوم نحتاج فيه إلى هذه الطوابق كلها!

وبدأنا ببناء ثلاثة طوابق. وقبل مضي عشر سنوات كنا نندم لأن الأساس الذي وضعناه لم يكن لعشرين طابقاً!

وأذكر أنه عندما بنى اسماعيل صدقي باشا كوبري قصر النيل هاجمته صحف المعارضة بعنف لأن الكوبري واسع جداً، ولا يمكن أن تملأه السيارات!

وبعد سنوات قليلة كنا نلعن صدقي باشا لأنه لم يجعل هذا الكوبري ضعف اتساعه الحالي، واضطررنا إلى إنشاء كوبري الجامعة ثم كوبري ٦ أكتوبر! وفي كل مشاريعنا لا نفكر في المستقبل، وإنما نفكر في الحاضر فقط، ونتصور أن الدنيا ستبقى كما نراها الآن!

ونحن ينقصنا الخيال عندما نبني المطارات الحالية ونتصور أن الطائرات ستبقى كما هي الآن!

إنني أتصور أن طائرة عام ٢٠٠٠ ستكون في حجم عابرة المحيطات، وسوف نحتاج إلى مطار أكبر عشر مرات من كثير من المطارات الحالية!

وأتصور أنه يجب ونحن نبني العمارة الجديدة أن نبني في سطوحها مطاراً تنزل فيه طائرات الهيليكوبتر. . .

وأتصور أننا سنضطر إلى إلغاء كثير من العواصم في البلاد العربية ونبني عواصم جديدة بشوارع تحت الأرض وبشوارع معلقة!

الدنيا سوف تتغير ونحن الذين سنغيرها!

قريبي المليونير البخيل!

كان أغنى رجل في المدينة، وكان قريبي. .

وكنت أنا وأخي مريضين بالحصبة عندما دق جرس التليفون في بيتنا يسأل عن أبي. وأجابت أمي إن أبي غير موجود. وسأل المليونير الغني عن الطفلين علي ومصطفى؟ فقالت أمي أنهما مريضان بالحصبة فقال المليونير أنه سيجيء اليوم لزيارتنا ومعه هدية لنا! وأبلغتنا أمنا النبأ السعيد ففرحنا. وجلسنا في فراشنا نحلم بهدية المليونير. وقلت أنه سيهدي لنا دراجة بعجلتين. وقال أخي أنه سيهدي لكل واحد منا ساعة ذهبية. واحتججت بشدة على تشاؤم أخي وتواضع أحلامه! وجاء المليونير يحمل في يده صندوقاً ملفوفاً بالورق الملون فتضاءلت أحلامي واعتقدت أن نبوءة أخي تحققت فلا يمكن أن توضع الدراجتان في صندوق صغير!

ووضع المليونير الصندوق بيني وبين أخي على السرير. وكانت أمنا نبهت علينا بأنه لا يجوز أن نفتح صناديق الهدايا في حضور أصحابها. وانتظرنا أن تنتهي زيارة المليونير بفارغ الصبر لنحصل على الساعتين الذهبيتين. . وأخيراً خرج الرجل، وأسرعنا إلى الصندوق ننزع غلافه، فإذا به صندوق أخضر من الورق المقوى الذي كان يباع فيه دخان السجائر «الفرط»! وفتحنا الصندوق فإذا به يحوي حلوى «الملبن» ولا يزيد ثمنها عن قرشين صاغ فقط لا غير!

وكان ذلك الرجل أغنى رجل في المدينة، وأبخل رجل في المدينة!

رأيته يرتدي بذلة واحدة لا يغيرها في الصيف والشتاء! وكل ما كان يفعله في الشتاء أن يضع معطفاً فوقها. وكان يقيم في قصر ضخم هو الآن مدرسة الليسيه الفرنسية بباب اللوق، وكان يغلق كل غرف القصر ويفتح غرفة واحدة هي غرفة النوم، يجلس فيها ويأكل فيها ويستقبل موظف مزارعه فيها. وكان يرفض تقديم القهوة للضيوف ويقول إن القهوة تقصر العمر، وكان إذا ركب قطار السكة الحديد ركب في الدرجة الثانية. ذلك لأن حفيده كان يعمل تشريفاتياً في قصر السلطان حسين، وكان من حقه أن يحصل على اشتراك في القطار باسم خادمه في الدرجة الثانية، فكان المليونير يركب بتذكرة اشتراك خادم حفيده. ولولا ذلك لركب في الدرجة الثالثة!

ومات المليونير، وورث ولده عدة ملايين من الجنيهات، وأراضي شاسعة ومزارع واسعة...

وأحب الوريث فتاة صغيرة السن وكانت متلافة إلى درجة السفه، كريمة إلى درجة الجنون! فكانت تنفق في ليلة واحدة ما كان ينفقه المليونير البخيل طول حياته!

وأموال البخلاء يضيعها السفهاء!

الجريمة الكبرى!

في ظل الحرية يجوع اللصوص، وفي ظل الاستبداد يجوع الشعب.

في الحرية تضاء الأنوار فتصبح عملية السرقة والنهب والسلب في الليل أسهل ألف مرة من النهار! وتقول إحصاءات جرائم السرقات في العالم أن السرقات في الليل أضعاف أضعاف سرقات النهار!

في الظلام يمكن أن تتستر على اللص، وتخفيه عن أعين الرقباء، وفي النور يفضح شعاع الشمس المجرم ويعريه أمام الناس!

وإذا قمت بإحصاء دقيق عن عدد الاختلاسات في الحكومات ومؤسساتها أثناء الحكم الديكتاتوري فستجدها أضعاف أضعاف الاختلاسات في أثناء الحكم الديموقراطي. فمهمة الحكومة الأولى في عصر الاستبداد ليست ضبط الذين يسرقون أموال الدولة، وإنما مهمتها الأولى ضبط الذين يخالفون الحاكم في الرأي وينتقدون سياسته!

عرفت بعض الحكام الذين يغفرون للص وللمرتشي ولمهرب المخدرات ولقاطع الطريق ولتاجر الأغراض، ولكن «لا يغفرون لمن يشرك بهم» أي من يعارض حكمهم أو يخالف رأيهم أو ينتقد سياستهم!

وفي مصر مثلاً في عهد مراكز القوى كانوا يعفون عن القاتل الذي أمضى نصف المدة. ولا يفرجون عن السياسي الذي أمضى نصف المدة. كانت مصلحة السجون تعد قائمة بأسماء المسجونين الذين أمضوا نصف

المدة، وكانوا حسني السير والسلوك، وترسل مصلحة السجون هذه القائمة إلى وزارة الداخلية.

وترد وزارة الداخلية القائمة وقد وافقت الوزارة على الافراج عن القاتل والنصاب والأفاق والمزور وتاجر الأعراض والقاتل وتشطب على اسم المحكوم عليه بالسجن لأنه انتقد وزيراً أو هاجم حاكماً أو اعترض على أحد القرارات!

ومن أجل هذا نجد أن كل لصوص المدينة تعارض الحرية، وتقاوم رفع الرقابة على الصحف، وتطالب بالقيود والأغلال، فعندما نعطي الحرية للشعب إنما نعطي الحرية لشرطة الشعب التي تمنع مخالفة القوانين.. وتمنع مخالفة الدستور وهو أبو القوانين!

وعندما نحرم الشعب من الحرية، فإنما نعطي الحرية للصوص ليسرقوا الشعب ولينهبوا البلد وليعتدوا على كل قانون ودستور!

الرصاصة التي تحيي!!

أصيب في شبابه بصداع قاتل يستمر ٢٤ ساعة كل يوم..

وطاف بأكبر أطباء مصر، وفشلوا جميعاً في شفائه من هذا الألم المميت..

وذات يوم ركب قطاراً من القاهرة إلى رأس البر، وفي الطريق اشتد عليه الألم، وفشلت كل المسكنات أن توقفه أو تهدئه..

ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأخرج مسدسه من جيبه، ووضع فوهته على رأسه تحت أذنه اليمنى وأطلق رصاصة، ودخلت الرصاصة من جانب رأسه الأيمن إلى جانب رأسه الأيسر..

وسقط الرجل في بركة من الدماء... وبحثوا عن طبيب في القطار لإنقاذ حياته فلم يجدوه، وعندما وصل القطار إلى دمياط حملوه إلى المستشفى الأميري..

ولم يمت الرجل، نجا من الموت بأعجوبة أذهلت الأطباء، ولكن الشيء الذي أذهل الأطباء أكثر وأكثر أنه بعد أن اخترقت الرصاصة رأسه توقف الصداع الذي كان يعذبه ويشقيه طوال النهار والليل..

وشفي أمين أنيس باشا من جراحه.

وأصبح بعد ذلك رئيس الديوان الملكي بالنيابة في عهد الملك فؤاد، ثم أصبح وزيراً للعدل في وزارة توفيق نسيم باشا.

وتركت الرصاصة تشويهاً ظاهراً في فمه، ولكن لم يحس بعد ذلك بهذا الصداع الذي نكد عليه الحياة وحرمه من النوم شهوراً طويلة! وحاول الأطباء أن يفحصوا رأسه، وأن يعرفوا السر فيما حدث، وما هو العصب الذي دمرته الرصاصة، والذي كان يؤدي إلى كل هذه الآلام! ولكن لم يعرفوا أبداً ماذا حدث!

وكان أمين أنيس باشا يضحك وهو يروي الحادث، ويقول أنه عندما أطلق على رأسه الرصاص وسال الدم حتى غطى وجهه لم يشعر بشيء، فقد غاب عن الوعي تماماً، ثم بعد ساعات فتح عينيه وعندما لم يشعر بألم الصداع اعتقد أنه مات فعلاً، لأنه كان واثقاً أن الألم سوف يستمر ما دام على قيد الحياة، وبعد أيام تنبه إلى أنه حي. . . وإلى أن الرصاصة التي أراد أن يقتل بها نفسه هي التي أحيته!

إنها إرادة الله!

المرأة التي عينت زوجها وزيراً!

كانت فتاة سمراء ساحرة، زوجوها لرجل في سن أبيها، وكان الزوج مغموراً يتولى منصب وكيل مصلحة، وكانت هي واسعة المطامع والأحلام. وهداها تفكيرها أن تغازل رئيس الديوان الملكي الأعزب في التليفون، وغرق رئيس الديوان في هواها، وأقنعته أن يرقي زوجها مديراً فرقاه، ثم عادت تطلب منه أن يجعله وزيراً فأدخله في الوزارة! وسمع صحفي خبيث بقصة الغرام فذهب إلى الوزير يسأله كيف تعرف برئيس الديوان، فإذا بالوزير يقول صراحة أنه لم يعرفه ولم يره إلا في عقد قران منذ عشر سنوات وجلس بجواره لمدة خمس دقائق، ونشر الصحفي الحديث وتغامز الناس كيف استطاع رئيس الديوان أن يكتشف عبقرية الرجل في خمس دقائق، وكيف تذكره بعد عشر سنوات ليعينه وزيراً! وجن جنون رئيس الديوان واستدعى الدكتور محمود عزمي مدير الرقابة وسأله كيف سمح الرقيب بنشر هذا الحديث المليء بالألغام وطلب معاقبة الصحفي الخبيث! وقال الدكتور عزمي إذا كان الوزير أدلى بهذا الحديث فعلاً فلا لوم على الصحفي. فقال السياسي الخطير أن المصيبة أن الوزير أدلى بالتصريح، وعاشت قصة الغرام مع الوزارة وسقطت بسقوط الوزارة.

ثم أحبت الزوجة السمراء ضابطاً هاماً في البوليس، وفي أثناء هذا الحب وقع في هواها أحد كبار المسؤولين، وكان يحادثها في التليفون كل ليلة بعد انعقاد مجلس الوزراء، وذات ليلة أخبرها أنهم بحثوا عن

المسؤول في حادث اغتيال خطير، واكتشفوا أنه هو المسؤول عن إحدى الجرائم السياسية الكبرى التي أدت إلى مصرع شخصية كبيرة، وأنه تقرر القبض على هذا المسؤول عند الفجر، وأنه لا بد أن يحاكم ويشنق..

وسألت الزوجة السمراء المسؤول عن اسم الذي تقرر القبض عليه فذكره فإذا به حبيب هذه السيدة وهو الضابط في البوليس المصري!

وما كادت تنتهي المحادثة التليفونية حتى اتصلت تليفونياً بحبيبها وأخبرته بما جرى في مجلس الوزراء وحذرته بأنه سيقبض عليه بعد ساعات. وذهب البوليس الحربي إلى بيت ضابط البوليس الهام في الفجر ليقبض عليه فوجده جثة هامدة، فقد تناول قرصاً من السم يقتل في الحال!

واستمرت قصة الحب بين الفتاة السمراء والمسؤول الكبير، وقرر المسؤول أن يتزوج بها، وعلم رئيس الدولة بهذا الخبر فطلب من محافظ القاهرة أن يمنع هذا الزواج، فتظاهر المحافظ بأنه وقع في هوى الفتاة السمراء، وسرق منها الأشرطة التي سجلت عليها الأحاديث الغرامية وأعطاها للمسؤول الغارق في حبها وهواها، وهكذا قضى على مشروع الزواج!

وكتبت هذه الفتاة مذكراتها وأرادت أن تنشرها، ولكن أحداً لم يجرؤ على نشرها..

وماتت قبل أن يعرف الناس قصة العاشقة السمراء التي كانت قصة حبها تبحث في اجتماعات مجالس الوزراء!

الطمع.. القاتل!

نكبة هذه المنطقة في عدد من الأفراد الجشعين، لا يكتفون، ولا يشبعون، ولا يقنعون. كلما نهبوا وسلبوا انفتحت شهيتهم للنهب والسلب. لم يقرأوا التاريخ، ولم يعرفوا أن دولاً أسقطها الجشع، وأن أفراداً أفلسهم الطمع، وأن ثروات ضاعت بسبب «العين الفارغة» التي لا تشبع!

الواحد منهم ينتهز قربه من صاحب نفوذ أو صلته بصاحب سلطان، حتى يمد يده إلى جيوب الناس يأخذ ما فيها، أو يعبث بأصابعه في خزائن الدولة فيغرف منها.

فهو يشارك في المناقصات ويتقاسم في الصفقات، ويساهم في الشركات. ولا يهمه أن يكون شريكاً في مصنع للعقول الألكترونية أو في محل لبيع الأحذية! ولا يضيره أن يكون مالكاً لمصرف كبير وشريكاً في الوقت نفسه في كوخ صغير! لا يهم نوع العمل، المهم أن يكسب في كل شيء، ولا يترك أحداً في المدينة يربح بغير أن يقاسمه ربحه، ويتعب صاحب المشروع ويشقى ويضع أمواله في المشروع ويغامر بها، أما صاحب النفوذ فيضع ساقاً على ساق ينتظر أن تمطر السماء ذهباً وفضة دون أن يقوم بأي مجهود!

هؤلاء الناس يسمون أنفسهم «كبار رجال الأعمال من محاسيب أصحاب النفوذ والسلطان» ويسميهم أهل البلد «كبار لصوص البلد من محاسيب أصحاب النفوذ و[illegible]ان..!»

وكثيراً ما لا يعرف صاحب النفوذ والسلطان بما يجري تحت أنفه، وبما يحدث وراء ظهره، ولكنه دائماً يدفع الثمن من سمعته وكرامته ونزاهته! فهو يبدأ على السنة الناس مغفلاً لا يعرف ما يجري من حوله، وينتهي به أن يعتبره الناس شريكاً بالنصف أو بأكثر من النصف في العمليات والصفقات والخبطات!

وفي الحبشة يقولون أن ثورة الجيش بدأت عندما رأى بعض صغار الضباط، بعض الذين حول الأمبراطور هيلاسلاسي يستغلون نفوذهم، ويثرون على حساب ما يسرقون من أموال الدولة في صفقات وعمولات. . وبدأ الهمس الذي تحول إلى زئير!

وفي أفغانستان بدأت الثورة على الأمير داود رئيس الجمهورية عندما بدأ الحزب الشيوعي يذيع معلومات ومبالغات عن ثروة الأمير داود وأفراد أسرته وأعضاء حاشيته.

وفي إيران كان الثراء غير المشروع للأمبراطور ورجال الدولة هو الذي أشعل نار السخط على الشاه وأدى إلى انفجار البركان!

وكان السبب دائماً: أنهم يريدون أن يكوشوا على كل شيء، وأن يشاركوا في كل صفقة وأن يأخذوا عمولة على كل مشروع!

اللهم نجنا من الجشعين الذين يخسرون في النهاية كل شيء لأنهم يريدون أن يستولوا على كل شيء!

الأساتذة الكبار..
الوزراء الصغار!!

جربنا في مصر أن نقيم معهداً للاشتراكية وكانت النتيجة أن ألغينا المعهد عندما اكتشفنا أن الشيوعيين تسللوا إلى المعهد وأصبحوا يعلمون التلاميذ كيف يكونون شيوعيين منظمين!

وبذلت محاولات في بلاد أخرى لإنشاء معاهد تكون مهمتها إخراج شبان وشابات موالين للحاكم، هاتفين بحياته بأسلوب ثقافي وفلسفي!

وهذه المعاهد لا تقوم عادة إلا في البلاد الشيوعية والفاشستية، فقد أنشأ موسوليني مدرسة تعلم الأطفال الصغار كيف يكونون فاشستيين كباراً! وتبعه هتلر فأنشأ معهداً لتعليم الفلسفة النازية، وموسكو أنشأت جامعة لتدريب الشيوعيين من جميع أنحاء العالم كيف ينشرون الشيوعية وكيف يقلبون الحكم!

ولم أر في الدول الديموقراطية معاهد أو كليات تعلم الطلبة كيف يكونون أحراراً أو كيف يكونون ديموقراطيين.

وفي مدرسة العلوم السياسية التابعة لجامعة جورج تاون بأمريكا، التي تخرجت فيها مادة اسمها الشيوعية والنظريات الشيوعية ومادة اسمها الاشتراكية ومادة اسمها الاتحاد السوفياتي، وكان الأساتذة يناقشون الشيوعية بأسلوب علمي لا تعصب فيه ولا انحياز. فالمفروض في الجامعة هو حرية الفكر، ويوم تتحول الجامعة إلى نظريات جامدة لا

تقبل المناقشة تفقد اسمها وطابعها والغرض منها!

وكل أستاذ جامعة يحترم نفسه يرفض أن يذهب ليلقي محاضرات في تلك الكليات التي مهمتها إخراج مؤيدين ومصفقين ومطبلين ومزمرين للحكومة القائمة.

أذكر أن أحد الوزراء طلب من أستاذ في الجامعة أن يحضر إلى مبنى الحزب ليلقي محاضرات.. ورفض أستاذ الجامعة وقال:

- الحزب يجيء إلى الجامعة.. أما الجامعة فلا تذهب إلى الحزب.. إذا كان أحد أعضاء حزبكم يريد أن يسمع محاضراتي فليحضر إلى الجامعة.. أما أنا فلا أذهب إلى الحزب!

ولكن بعض أساتذة الجامعة الضعفاء هرولوا يوماً إلى الحزب ليصبحوا وزراء صغاراً... بعد أن كانوا أساتذة كباراً!

إتفضل قهوة!!

زارتني ثلاثون طالبة من إحدى مدارس البنات، ومعهن أساتذتهن. ومكثت معهن نصف ساعة أرد على أسئلتهن، وبعد أيام تلقيت خطاباً من مدرس بالمدرسة يشتمني ويهاجمني ويتهمني بالبخل الشديد لأنني لم أقدم للطالبات والأساتذة كوكاكولا أو عصير برتقال أو أي نوع من المرطبات!

ومن عيوبنا أننا في بلادنا لا نفرق بين مكاتب العمل والمقاهي! ولا نتصور أن في بلاد العالم لا يقدمون المرطبات في المكاتب، بل إذا شعر الموظف أنه يريد أن يشرب كوب ماء خرج إلى الفناء الخارجي ليشرب الماء ثم يعود إلى مكتبه!

وبعض الناس يزورك في مكتبك ويقول لك أنه كان يمر بهذا الشارع فرأى أن يزورك! وهو يحضر بغير موعد سابق، ويتصور أن واجبه أن تترك أعمالك لتتفرغ للترحيب به ولسؤاله عن صحته ولتسليته. وما زال البعض منا يعتقد أن الوقت لا ثمن له. وفي أوربا وأمريكا يقولون أن الوقت من ذهب، وأن الذي يضيع وقتك كالذي يسرقه تماماً، ومن حقك أن تسلمه إلى أقرب شرطي.

ولو فعلنا ذلك في بلادنا لملأنا مراكز الشرطة بمئات الألوف من الضيوف الأعزاء!

جاءني من أيام رجل طلب مقابلتي، وقال أنه كان زميلي في سجن أبو زعبل!

وأنا دخلت سجن المخابرات والسجن الحربي وسجن الاستئناف وسجن القناطر وسجن طره ومعتقل القصر العيني، ولكني لم أدخل سجن أبو زعبل هذا!

وأصر الرجل على أنني كنت معه في سجن أبو زعبل، ورفض أن ينصرف قبل أن أستقبله. وخرجت إليه وقلت له أني لم أره قبل الآن، ولم أدخل سجن أبو زعبل هذا.

وإذا بالرجل يقول: يظهر سيادتك نسيت! أنت كنت معي في سجن أبو زعبل.

قلت: في أي سنة؟

قال: في سنة ١٩٦٠

قلت: إنني لم أسجن إلاّ في سنة ١٩٦٥.

فإذا به يقول: سيادتك نسيت! أنت كنت مسجون معي سنة ١٩٦٠. وأمام إصراره سألته لماذا يريد أن يقابلني!

قال: أريد أن نتسامر معاً ونستذكر أيام السجن!

واستطعت أن أحتفظ بأعصابي وودعته بما يستحق من الاحترام والاجلال!

يعني طردته!

كيف أصبح فرعون فرعوناً؟

توهم أنه ملك الدنيا ومن عليها! أصبح متحكماً في رقاب العباد، في يده أرزاق الناس. كلمة منه تجعل الصعلوك وزيراً، وكلمة أخرى تجعل الوزير صعلوكاً! الدولة في جيبه. مرة يضعها في جيبه الأيمن فتصبح دولة يمينية، ومرة يضعها في جيبه الأيسر فتصبح الدولة يسارية، ومرة يضع الدولة في جيبه العلوي ليتباهى بها، ومرة يضع الدولة في جيبه الخلفي ليجلس فوقها!

أصبح بابه هو باب الجنة، وهو رضوان حارسها. صفوف طويلة واقفة أمام الباب تتوسل رضاءه، وتتسول سلطانه. وتستجدي عفوه وغفرانه. وهو في الوقت نفسه حارس النار، يلقي في جحيم الفقر والبطالة كل من يقف في طريقه، أو يرفع رأسه في مواجهته، أو يهمس بكلمة نقد له. وهو قادر أن يرفع الذي يرضى عنه إلى السماء السابعة، فإذا غضب عليه هوى به إلى الأرض السابعة. وهو جبار لا يرحم. يعتبر العفو ضعفاً والتسامح تخاذلاً والرحمة تراجعاً!

وتصور أن الدنيا ستبقى إلى الأبد واقفة في بابه، وأن السيف سيبقى دائماً مشهوراً في يده، وذات يوم وجد نفسه يهوي من هذا السلطان والجبروت وأصبح شخصاً عادياً. يمر عليه الناس ولا يتوقفون! لا يستطيع أن يغني أو يفقر، ولا أن يجيع ويشبع، ولا أن يحيي ويميت.. فقد كل ما كان له من سيطرة وسلطان، وفتح كفيه فلم يجد فيهما السيف الذي يقطع به الرقاب، ولا المال الذي يحني به الرقاب!

وتحول هذا الجبروت إلى تضاؤل! انكمش الرجل. أصبح نحيفاً بعد أن كان سميناً. أصبح قصيراً بعد أن كان طويلاً. أصبح عجوزاً بعد أن كان مليئاً بالحيوية والشباب.. وعجبت لأمره هل السلطان هو الذي كان يملأ جسمه بالشحم ويملأ وجهه بالدم. هل كان طويلاً حقاً وقصر، أم أن جبروته هو الذي كان يجعله يكبر في عيوننا ونصغر نحن في عيون أنفسنا. هل العبيد هم الذين يصنعون الطغاة بتراجعهم أمامهم. بخوفهم منهم. بسكوتهم على جبروتهم..

هل لو كنا صددنا هذا الطاغية الصغير قبل أن يكبر أكان سيقف عند حده...

هل نحن الذين جرأناه علينا بضعفنا، وشجعناه ليستبد بنا بتخاذلنا!

هل معقول أننا كلنا نخاف من هذا الشبح!

إن في مصر مثلاً شعبياً قديماً يقول «قيل لفرعون. من فرعنك؟ قال لم أجد أحداً يصدني!».

حياتي قصة حب!

غداً عيد ميلادي!

أحس أنني عشت ألف سنة! ما أكثر الأحداث التي وقعت في حياتي! واحدة منها تكفي عمراً بأكمله! ولكنني عشت عمراً من الأحداث والأزمات. وفي كل عام أتصور أنني رأيت ما يكفيني، وإذا بي أرى في العام التالي أكثر مما رأيت وأخطر مما توهمت!

ولا أعرف كيف يحسب عمر الإنسان؟ هل يحسب بالأيام السعيدة التي عاشها. أم بالأهوال التي صادفها. أم بالأزمات التي مر بها!

أعترف أن الله أعطاني أياماً سعيدة كثيرة أكثر مما تمنيت. وأعترف أيضاً أن الله حقق أحلامي وعيناي مفتوحتان، أجمل مما كانت أحلامي وأنا مغمض العينين. وأعترف أنه لم يتخل عني في الظلام فمنحني شعاع النور، ولا في يأس الليل فأعطاني أمل النهار، ولا في وحدة الزنزانة فأعطاني الإيمان بانتصار الحرية!

بعض أيامي كانت صعبة، وقد تغلبت على شقائها بمقاومتها. لم أستسلم لهزيمة. كلما سقطت حاولت الوقوف. وكلما هويت إلى القاع عدت أحفر طريقي بأظافري، إلى القمة، وكلما شعرت بضعفي أحسست بقوة الله!

كانت أصعب المحن التي صادفتها عندما فقدت الذين أحبهم واحداً بعد واحد.

كان عذابي قاسياً، واحتملت بإيماني، وكان فراقي لهم مؤلماً كأن قطعة من جسمي انتزعت مني بالسكين! وعجيب مثلاً أن تموت أمي منذ أكثر من ثلاثين سنة ما زلت أشعر أن جرحها ينزف حتى الآن. وعجيب أن يموت أخي التوأم منذ ثلاث سنوات أحس كأنه لا يزال يعيش معي، ولا يزال يعيش فيَّ. نحن نفقد أحبابنا عندما ننساهم، وعندما نذكرهم نستبقيهم معنا طوال الحياة، نحس بهم، نتحدث إليهم، نسمع أصواتهم الحلوة تغني في آذاننا!

أنا لا أقيم حفلاً في عيد ميلادي! أحتفل به دائماً بطريقة غريبة.. أستعيد أيام عمري. أحاول أن أعيش فيها من جديد، كأنني أقلب ألبوم صور، وأستمتع بوجوه الذين أحببتهم وأحبوني!

كانت حياتي قصة حب!

اللسان الأعمى !!

لسانه أعمى، لا يفرق بين الطيب والخبيث. كل الوجوه سود. لأنه يعيش في ظلام قلبه. يرمي الناس بالطين ليبقى وحده النظيف. يدوس عليهم ليرتفع. يلطخهم بما في داخله من حقد وضغينة ليغطي بياضهم بسواد نفسه!

يضر كل الناس ليخدم شخصه. ويتهمهم في سمعتهم ليصبح وحده حسن السمعة. إذا ذكرت أي اسم أمامه تحول لسانه إلى خنجر يطعنه وإلى ضبع ينهشه.

لا يتركه حتى يمزقه، ويشوهه، ويصفه بأحط الصفات والأوصاف!

الذي لا يعرفه رجل سيء، والذي يعرفه رجل أسوأ. كل إنسان هو نصاب أو لص أو مجرم أو تاجر رقيق أو مهرب مخدرات! كل امرأة فاسدة أو عاهرة أو تاجرة أعراض. كل فقير غبي، وكل غني قاطع طريق.

ما من مرة أخطأ ومدح إنساناً! فهو يحتفظ في داخله بكمية من الحقد، يشوه بها الناس، يلوث شرفاءهم ويلطخ كرماءهم، ويهين أعزاءهم، وإذا سمعك تمدح شخصاً أحس كأنك تشتمه هو. فهو لا يطيق كلمة خير في إنسان. ولا يتحمل ثناء على زميل أو مديحاً في صديق!

ويحدث أن تثبت الأيام أن شخصاً ما سيء، ويجيء إليك فرحاً مزهواً، ويقول لك: ألم أقل لك أن فلاناً سيء فلم تصدقني!؟

وأقول له: كان رأيك سيئاً في جميع الناس، فإذا حدث وأساء واحد من مليون منهم، فليس معنى ذلك أن كل المليون من الأشرار! ولكنه لا يقتنع، ويدعي أن أحداً لم يخدعه طول حياته لأنه لم يحسن الظن بإنسان، ولم يثق بصديق، ولم يطمئن إلى زميل.

وكنت أقول له أن لسانه الأعمى هو سبب تعاسته في الحياة! إنه لكثرة ما لطخ الناس بالسواد يشعر كأنه يعيش في ليل لا آخر له. لأن كل ما حوله أسود حالك السواد. الأمكنة والأشخاص والأعمال! وهو يدعي أنه سعيد بكراهيته للناس.

وقد عاقبه الله على ظلمه للناس فجعله أشبه بطير الشؤم! ما وضع يده في عمل إلا وأفلس. وما عمل في تجارة إلا وبارت، وما مشى في طريق إلا وجده مسدوداً!

الذين يحبون الناس يحبهم الله!

النجم السياسي!

السياسة ليست سهلة كالسينما! في السينما يمكن للمخرج أن يصنع نجماً. يسلمه إلى مدير الدعاية فيسلط عليه الأضواء، وضع على لسانه الحكم فتحسبه أرسطو، ويضع على شفتيه النكت فتتوهم أنه فؤاد المهندس أو عادل إمام، ويروي عنه القصص المخترعة والمغامرات المكذوبة فيبدو في صورة دون جوان!

ولكن جمهور السياسة لا يمكن الضحك عليه مثل جمهور السينما! قد يصفق للبطل المصنوع في أول الرواية، ولكنه يكتشف حقيقته في وسطها، ويرميه على الأرض ويدوسه بالأقدام في نهاية الرواية!

أعرف رجل أعمال فكر في أن يخترع نجماً سياسياً ليفيده في أعماله، ويساعده في صفقاته، ويدافع عنه في خبطاته وضرباته!

وجاء رجل الأعمال برجل تافه، لا قيمة له، ولا فكر، ولا رأي، ولا تاريخ. وقرر أن يعلن عنه بنفس الطريقة التي يعلن بها عن مشروعاته، ليلفت إليه الأنظار!

وكما يعلن محل الأحذية عن موضة جديدة من الأحذية أعلن رجل الأعمال عن النجم الجديد. فظهرت صورته في الصحف وهو يبتسم، وظهرت له أحاديث في المجلات، فإذا استفتت مجلة كبار الصحفيين عن رأيهم في أحداث إيران سألت النجم الجديد. وإذا سألت مجلة كبار الفنانين عن رأيهم من هي راقصة مصر الأولى ضمت النجم السياسي

إلى كبار الفنانين. وإذا أرادت الإذاعة أن تطلب آراء رجال الدين عن مولد النبي، وجدنا اسم النجم السياسي محشوراً بين رجال الدين!

وهكذا أصبح النجم السياسي «جوكر» في كل إذاعة، وقاسماً مشتركاً في كل برنامج تليفزيون، وضريبة مفروضة على كل جريدة!

ولم يأخذ الناس النجم السياسي الجديد مأخذ الجد، فهم يقرأون أنباءه كما يقرأون إعلاناً عن شاي زوزو، وكما أن مؤسسة شاي زوزو مثلاً تهنيء الشعوب الإسلامية والعربية في مشارق الأرض ومغاربها بالمولد النبوي وتعلن لهذه المناسبة عن أفخر أنواع الشاي السيلاني لكل الأذواق، فكذلك يفعل النجم السياسي الجديد فهو يهنيء أهل طنطا بمولد السيد البدوي، ويهنيء أهل القاهرة بمولد السيدة زينب، ويهنيء أهل قنا بمولد سيدي عبد الرحيم القنائي!

إن رجل الأعمال يستطيع أن يفرض على الناس منتجاته من المصنوعات ولكن لا يستطيع أن يفرض عليهم نجماً سياسياً!

الشعوب هي الأضواء التي تصنع النجوم!

ولكن أوراق البنكنوت والشيكات لا تصنع نجوم السياسة!

التوقيع على المقالات!

عملت تحت رئاسة أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام سنوات طويلة. كان رجلاً أميناً نزيهاً. كان في مكتبه أشبه براهب في صومعة. وكان يكره أن يوقع محرر مقالاً بإمضائه، وكان من رأيه أن يكون اسم رئيس التحرير هو الإسم الوحيد الذي يظهر على جريدة الأهرام بصفته رئيس التحرير المسؤول. وأن تنشر كل المقالات في الأهرام بغير توقيع المحررين. وكان أنطون الجميل يطبق هذه القاعدة على نفسه فلم يوقع طول حياته في الأهرام مقالاً واحداً، وكان ينسى دائماً أن اسمه على الصفحة الأولى! وبقيت أعمل في الأهرام سبع سنوات، وكتبت مئات المقالات والتحقيقات الصحفية، ولم ينشر اسمي إلا ثلاث أو أربع مرات! وهذا الحرمان هو الذي جعلني أحرص عندما أصدرت أخبار اليوم أن أنشر اسم المحرر تحت مقاله، وأحياناً في بداية مقاله، وأحياناً كنت أنشر اسم المحرر في المانشيت!

والكاتب يشعر بتعاسة لا حد لها عندما يحرم من أن يوقع باسمه. مكثت في مطلع عملي الصحفي أكتب بلا توقيع عشر سنوات كاملة! وكانت لي توقيعات مستعارة كثيرة منها مصمص ومقصوف الرقبة وجو و م. . وم. أ. ومشاغب. والصحفي المجهول وغيرها. وأول مقال وقعته باسمي قدمت بسببه إلى محكمة الجنايات وحكم علي بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ!

وعندما دخلت السجن بقيت ثماني سنوات ونصف سنة أكتب في

صحف بيروت وغيرها بإمضاء مستعار هو (الكاتب المصري ×).

ومكث علي أمين عدة سنوات محروماً من أن يوقع مقالاً باسمه، وكان معنى التوقيع باسمه أن تصادر الجريدة التي يكتب فيها، ثم كان يوقع باسم «السندباد البحري».. وقيل له أن ولاة الأمر في مصر هم الذين منعوا نشر اسمه.. وبعد تولي الرئيس السادات الحكم بعامين كتب بتوقيعه للمرة الأولى!

وبعض كتابنا الكبار كتبوا بأسماء مستعارة، فقد كتب فكري أباظة بإمضاء الجاسوسة الحسناء، وكتب محمد التابعي بإمضاء «آنسة حكمت ف.» وتصور كثيرون أن هذه المقالات بقلم الراقصة المعروفة في تلك الأيام حكمت فهمي!

لهذا كان من عادة أنطون الجميل باشا إذا تسلم مقالاً من محرر قرأ الصفحة الأخيرة قبل أن يقرأ الصفحة الأولى، فإذا وجد في نهاية الصفحة الأخيرة إمضاء المحرر، طوى المقال ووضعه في السلة الخاصة بالمقالات المؤجلة!

نسيت المحفظة!

أكبر فصل بارد يتعرض فيه الإنسان عندما يدعو بعض الغرباء لتناول العشاء في مطعم في أمريكا أن يكتشف في نهاية العشاء أنه نسي أن يضع في جيبه حافظة النقود!

وقد حدث في عام ١٩٥٣ أن دعوت السيدة أم كلثوم في مطعم فاخر في واشنطن لتناول العشاء!

وأرادت أم كلثوم أن تنتقم مني فأخذت تضع أصبعها على أغلى أصناف الطعام..

ومجاملة لها اخترت نفس الأطعمة التي طلبتها!

وجاءت فاتورة الحساب، وحملقت أم كلثوم في وجهي وهي تضحك، فقد أرادت أن ترى تعاستي وحسرتي بعد أن أعرف المبلغ المطلوب. وأردت أن أحرمها من متعة الشماتة بي، فتمالكت نفسي، ولم أنفعل ولم أذعر، وتظاهرت كأن المبلغ المطلوب بسيط!

ثم وضعت يدي في جيبي لأخرج حافظة النقود. وإذا بيدي تخرج بيضاء من غير سوء! ووضعت يدي في كل جيوبي فلم أجد أثراً للمحفظة.. وكانت أم كلثوم تراقب حيرتي وتعاستي بسعادة لا حد لها! وبين كل لحظة وأخرى تطلق نكتة على المفلس الذي دعا الضيوف إلى العشاء! قلت لها أنني نسيت محفظتي في الفندق، ورجوت منها أن تبقى في المطعم حتى أذهب وأعود بالمحفظة، وإذا بها تقول ساخرة أنها ترفض

أن تنتظر لأنها تخشى ألا أعود!

وطلبت منها أن تقرضني ثمن العشاء، وفتحت حقيبة يدها، وأغلقتها وقالت أنها نسيت هي الأخرى أن تجيء بنقود!

وصدقتها، فقد كانت ممثلة بارعة. وقلت لها أن معنى ذلك أن مدير المطعم سيأخذني إلى نقطة البوليس وسوف يضعنا في السجن حتى يجيء من يدفع المبلغ!

واستمرت أم كلثوم تضحك وتتحدث عن المانشيتات التي ستنتشر في صحف مصر بعنوان «القبض على أم كلثوم وصحفي لأنهما حاولا أن ينصبا على مطعم كبير في واشنطن». .

وفجأة فوجئت بملاك من السماء! لقد كان أيوب رزق صاحب أكبر محل للأزياء في واشنطن وما كاد يرى أم كلثوم حتى أصر أن يدفع لنا الحساب.

وكانت أم كلثوم تقول: موش ممكن! مستحيل!

وكنت أنا أقول: إدفع يا أيوب بك! مفيش فرق أبداً!

المليونير ابن الخادم!

أعرف وزيراً عربياً بدأ حياته ساعياً في إحدى الشركات، يحمل الأوراق من مكتب إلى مكتب، ثم عمل مندوباً للشركة في التخليص على الرسائل والطرود والطلبات الحكومية. وكان يدرس في الليل. وحصل على شهادة الابتدائية، ثم على الشهادة الثانوية ثم على شهادة الجامعة. كل ذلك وهو يعمل بالنهار ويدرس بالليل. وبعد أن حصل على شهادته الجامعية بدأ يصعد درجات المناصب بسرعة القطار الأكسبريس، حتى أصبح وزيراً مرموقاً.

وأعرف أحد الباشوات في مصر، وكان له ولدين، وأدخلهما المدرسة الابتدائية، وكان يعمل عنده خادم قديم له ابن صغير، ورأى الباشا أن يدخله المدرسة الابتدائية مع ولديه ليسليهما، ويحمل الكتب عنهما في طريقهما إلى المدرسة والعودة منها. وحصل الثلاثة على الشهادة الابتدائية وعلى شهادة البكالوريا. وقرر الباشا الأب أن يرسل ولديه إلى إنجلترا للحصول على شهادة الهندسة. . ورأى الباشا أن ولديه في حاجة إلى خادم يصحبهما ليطهي لهما الطعام، ويغسل ملابسهما، وينظف الشقة التي يقيمان فيها. . وفكر أن يكلف ابن الخادم الحاصل على شهادة البكالوريا أن يقوم بهذه المهمة لأنه يجيد اللغة الإنجليزية!

وسافر الولدان إلى إنجلترا ومعهما ابن خادم أبيهما. ودخلا الجامعة. ولم يستطيعا فهم الدروس، فصحبا معهما ابن الخادم إلى الجامعة. . وتقدم ابن الخادم إلى امتحان القبول فحصل على مجانية

التعليم وأصبح طالباً في الجامعة. في الصباح يستيقظ وينظف الشقة ويعد طعام الإفطار للبهوات، ثم يذهب معهما إلى الجامعة، ويحضر الدروس ثم يعود ويعد طعام العشاء للبهوات، وبعد ذلك يذهب إلى غرفة الخادم ويستذكر دروسه إلى ساعة متأخرة من الليل!

وسقط ابنا الباشا في الامتحانات! أضاعا وقتهما في السهر، وفي صحبة الفتيات الجميلات، وفي تعلم الرقص، وفي تمضية الوقت في الأندية الليلية والكباريهات!

أما ابن الخادم فقد مكث ٤ سنوات في إنجلترا لم يدخل دار سينما أو مسرحاً ولم يشهد مباراة كرة القدم! وبعد أربع سنوات أصبح ابن الخادم مهندساً، وعاد ابنا الباشا إلى مصر بغير شهادة عليا! وكافح ابن الخادم وجاهد وعمل وصبر، وأصبح واحداً من أكبر أغنياء الشرق الأوسط!

وورث ابنا الباشا ثروة طائلة أضاعاها في الليالي الحمراء!

ومن الغريب أن ابن الباشا يقول لأصدقائه أن حظ ابن الخادم سعيد، وإلا لما حقق كل هذه الثروة الطائلة، وإن حظ ابن الباشا سيء لأنه فقد كل شيء!

إنها قصة مغفل ابن باشا.. وذكي ابن خادم..

قصيدة غزل في المدير العام!

كان لطفي أفندي موظفاً في الشركة، يحرص كل صباح أن يدخل مكتب المدير العام ويقرئه تحية الصباح ويسأل عن الصحة. وعند انصرافه يصحبه إلى باب سيارته ويفتح له بابها بعد أن ينحني باحترام. وكان يمشي بين المكاتب يشيد بعبقرية المدير العام وذكاء المدير العام وعظمة المدير العام! وكان يؤلف في المدير العام المقالات التي تشيد بمآثره، وينظم القصائد التي تتغزل في مزاياه..

وذات يوم تولى رئاسة مجلس إدارة الشركة رئيس جديد، ووضع لطفي أفندي على الرف، وعين خالد أفندي مديراً عاماً للشركة!

ولم يعد لطفي أفندي يحيي المدير السابق الذي فقد سلطانه! إذا مرض تمنى له أن يموت حتى تخلو درجته وتحدث حركة ترقيات بين موظفي الشركة، وإذا غاب تمنى لو أنه لا يعود حتى تتخلص الشركة من وجهه النحس. لا عمل للطفي أفندي إلا البحث والتنقيب في الملفات القديمة عن أخطاء للمدير السابق، ويمشي بين المكاتب يشهر به، ويعلن أن سياسته العقيمة أدت إلى خسارة الشركة للملايين، بينما أن خالد أفندي المدير الجديد استطاع بثاقب رأيه، وبعد نظره، وكفايته المذهلة أن يحول الخسائر إلى أرباح، ويسد الثقوب، ويعدل المائل، ويحول فسيخ الشركة إلى شربات!

وبدأ لطفي أفندي ينظم قصائد الغزل في خالد أفندي العبقري!

ولم يتعب نفسه في نظم قصائد جديدة، كان يحذف اسم عادل المدير المركون ويضع اسم خالد المدير الجديد، ولم يكن يهمه أن يكسر بيت الشعر، بعد أن كسر كل مبادىء الأخلاق!

واستيقظ لطفي أفندي من النوم ذات صباح ومد يده إلى الجريدة وقرأ فيها نبأ إحالة المدير خالد أفندي إلى المعاش، وإعادة تعيين عادل مديراً عاماً للشركة!

وجلس لطفي أفندي ينظم قصيدة غزل في عادل! ومر على موظفي الشركة يجمع منهم نقوداً لإقامة حفلة تكريم لسعادة المدير الجديد العبقري الذكي العظيم!

وفوجىء لطفي أفندي بقرار بإحالته إلى المعاش!

وعجب لطفي أفندي، لأن صديقه القديم الأستاذ عادل تنكر للصداقة القديمة ونسي العيش والملح، ونسي قصائد الغزل التي نظمها في محاسنه ومزاياه!

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد من موظفي الشركة ينظم قصائد الغزل في المدير العام!

ومعنى ذلك أن أحداً لن ينظم قصيدة هجاء في المدير العام إذا أحيل إلى المعاش!

صينية اللحم بالبطاطس!

الأم الصغيرة خريجة جامعة، وتتولى منصباً كبيراً في أحد البنوك، وعندها مربية تعني بطفلتها الصغيرة، وذات يوم استقالت المربية، وثارت الأم الصغيرة وقالت أنها لن تقبل استعباد المربيات بعد الآن، وأنها ستتولى طهي الطعام لطفلتها الصغيرة المريضة!

وانقطعت الأم الصغيرة عن عملها في البنك لتتفرغ لطهي طعام الطفلة.. وسألت أمها ماذا تفعل فهذه أول مرة في حياتها تدخل المطبخ. وقالت لها الأم ضعي بطاطسة وجزرة في ماء لمدة نصف ساعة، وسألت الأم الصغيرة الأم الكبيرة وكيف أعرف أن الطعام نضج؟قالت الأم أحضري شوكة واغرسيها في قطعة البطاطس فإذا دخلت بسهولة فمعنى ذلك أن الطعام نضج.

وخرجت الأم الكبيرة من البيت، وعادت بعد ست ساعات لتجد الأم الصغيرة تقول لأمها أن البطاطسة والجزرة لم تنضجا بعد مرور ست ساعات! وعجبت الأم الكبيرة ودخلت إلى المطبخ واكتشفت أن الأم الصغيرة لم تضع الإناء على النار! وتوهمت أنه يكفي أن تضع البطاطسة والجزرة في إناء به ماء ليطهى ويصبح طعاماً بغير أن يوضع على النار! واحتجت الأم الصغيرة لأن أمها لم تقل لها في تعليماتها أن تضع البطاطسة والجزرة على النار!

إن المشكلة الكبرى في بيوت خريجات الجامعة أن الكثيرات منهن

لم يدخلن المطبخ قبل أن يتزوجن! كثير من البيوت أصبحت تعتمد على الأطعمة المعلبة.. ارتفعت أسعار الطهاة، وأصبح من الصعب أن تجد طاهياً ماهراً بمبلغ لا يقل عن مرتب أحد الوزراء في مصر!

ومنذ وقت قليل استقال دفعة واحدة ١٢ طاهياً من فندق هيلتون بالقاهرة وانتقلوا إلى العمل بالسعودية، وحدثت أزمة في الفندق لأنه لا يوجد طهاة يحلون محلهم..

ويجب أن تعود الأمهات إلى تعليم بناتهن الطهي من جديد كما كانت تفعل أمهاتنا، ولقد كان توفيق الحكيم يقول أن المرأة تستطيع أن تدخل قلب الرجل عن طريق معدته! وكان وهو أعزب يقول لنا أنه عندما يقرر الزواج سيمتحن المرأة التي يختارها في صنع صينية لحمة بالبطاطس.. فإذا أعجبه طعم الأكلة تزوج العروس!

ولكن توفيق الحكيم عندما أحب المرحومة زوجته نسي أن يسألها إذا كانت تعرف كيف تطهي صينية اللحم بالبطاطس!

توارد خواطر..
بين ثورة الخميني وثورة سعد زغلول!

الذين يكتبون عن ثورة الخميني لا يخفون ذهولهم كيف استطاع وهو في المنفى بعيداً عن إيران أن يدير الثورة؟ وكيف استطاع من هذه المسافة البعيدة أن يسيطر على كل شيء متحدياً القصر والحكومة!

ولا يعرف الكثيرون أن هذا هو نفس الذي حدث في ثورة ١٩١٩ في مصر!

وكان يرسل تعليماته السرية إلى أنصاره في مصر مكتوبة بماء البصل على محضر جلسة مجلس العموم البريطاني.

وكان الدكتور أحمد ماهر يتسلم محضر مجلس العموم من رسول.. ويمر على الورق بمكواة ساخنة، فتظهر تعليمات سعد زغلول السرية!

وكان بعض الرجال والنساء من الذين يعملون في الجهاز السري للثورة هم الذين يحملون محاضر جلسات مجلس العموم..

وكانت المخابرات البريطانية ورجال البوليس في مصر يفتشون هذه المحاضر، ولم يخطر ببالهم أنه مكتوب فيها بماء البصل كل التعليمات في كيفية الانقضاض على الإنجليز والسلطان فؤاد!

واستمرت هذه الرسائل سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ ولم يحدث مرة أن ضبطت رسالة واحدة من هذه الرسائل!

وكان عبد الرحمن فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية هو الذي يتسلم الرسائل السرية بعد كشف رموزها، ويصدر التعليمات الخاصة بها إلى الجهاز السري الذي كان يعمل تحت الأرض . .

ولم يعلم أعضاء الوفد الذين كانوا في باريس بأمر هذه الرسائل السرية . وكانوا يذهلون كيف أن الشعب المصري يتحرك كما يريد سعد زغلول وكأن لديه أزراراً سحرية يدق عليها فتحرك كل شيء في مصر!

ولم يكن في الإمكان إرسال برقيات رمزية لأن البرقيات كانت تراقبها السلطة العسكرية البريطانية وكذلك الخطابات، ولم يكن هناك خط تليفون بين القاهرة وباريس، ولم يكن التلكس قد اخترع ولا الراديو! .

فهل هذا توارد خواطر بين ثورة سعد زغلول وثورة الخميني؟

إعادة طبع كتب كبار الكتاب

شيء غريب أن الكاتب الكبير المغفور له فكري أباظة لم يؤلف سوى كتاب واحد هو «الضاحك الباكي» خلال ستين سنة من اشتغاله بالأدب والصحافة!

وفي رأيي أنه يمكن جمع الكثير مما كتبه عن ذكرياته ورحلاته وآرائه السياسية ورأيه في كبار رجال السياسة والفنانين في عشرات الكتب!

وقال لي الأستاذ كامل دياب نجل الكاتب الكبير توفيق دياب أن أسرته تفكر في جمع بعض ما كتب وتقسمه إلى عدة كتب. ولا شك أن توفيق دياب يستطيع أن يثري المكتبة العربية بكثير مما كتب. .

وقالت لي السيدة أرملة قاسم جودة الكاتب المعروف ونقيب الصحفيين السابق إنها تفكر كذلك في جمع بعض ما كتب قاسم، وقد كان قاسم في شبابه من أنبغ الكتاب المصريين في الثلاثينات. وكان هو أول من هاجم الملك فاروق في مقالات بتوقيع صريح كان كثيرون يتصورون أن كاتبها هو مكرم عبيد أو نجيب الهلالي!

ومما يؤسف له أن الكتاب والصحفيين الكبار في مصر لم يتركوا وراءهم أولاداً وبنات ورثوا عنهم حب الصحافة، وبذلك كان يمكنهم جمع مثل هذه المقالات المتناثرة في كثير من الصحف والمجلات. .

إن من حسن حظ الأستاذ العقاد أن ابن شقيقه عامر العقاد شاب نشيط، مكب على جمع تراثه الأدبي والسياسي ونشره في كتب قيمة.

والدكتور محمد حسين هيكل له ابن هو الأستاذ أحمد هيكل المحامي يجمع بعض ما كتبه الدكتور هيكل . .

ومن الأسف أن أحداً لا يفكر في إعادة طبع كتب ابراهيم عبد القادر المازني ولا محمد التابعي ولا عبد القادر حمزة ولا الشيخ علي يوسف ولا غيرهم من كبار الكتاب الذين اختفت كتبهم من الأسواق منذ سنوات طويلة .

إننا في حاجة إلى مؤسسة طباعة تعيد طبع الكتب التي هزت في وقت من الأوقات كل بلاد الشرق الأوسط، مثل كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» وهو الكتاب الذي استقال بسببه أربعة وزراء من مجلس الوزراء المصري، والذي أدى إلى حدوث ائتلاف بين الأحزاب للوقوف ضد رجعية الملك فؤاد!

هل معقول أننا لا نجد مثل هذا الكتاب في المكتبات العربية؟

العشرة الأوائل!

لم أكن تلميذاً نابغاً! كان أبي يقول لي كلما رآني: عندما كنت في سنك كنت دائماً من العشرة الأوائل!

وعبثاً حاولت أن أكون من العشرة الأوائل.

فقد كنت أعمل في الصحافة وعمري ١٤ سنة، ولم أستطع التوفيق بين العمل الصحفي الشاق المضني وبين أن أكون من العشرة الأوائل!

وفي إحدى السنوات أصبحت من العشرة الأوائل. وكنت طالباً في الجامعة الأمريكية، وكان من عادة الجامعة الأمريكية أن تجري امتحانات شهرية لطلبتها، وأن تصدر شهادات شهرية بترتيب الطلبة في الفصل . .

وفي شهر أصبحت التاسع، وفي شهر ثان أصبحت العاشر، ثم عدت وأصبحت التاسع من جديد وهكذا!

وكان أبي سعيداً بهذا التفوق الباهر!

وذات يوم تلقى أبي خطاباً من عميد الجامعة الأمريكية يقول له أن ابنك غير مواظب على حضور الجامعة وغير ملتفت إلى دراسته، وفاشل في امتحاناته!

وذهل أبي، وذهب إلى عميد الجامعة الأمريكية وقال له غاضباً :

ـ كيف تقولون عن ابني أنه غير مواظب على حضور الجامعة، وغير ملتفت إلى دراسته، وفاشل في امتحاناته. مع أنه في هذا العام، ولأول مرة في حياته الدراسية كان دائماً من العشرة الأوائل في كل امتحان!

وقال له عميد الجامعة بهدوء:

ـ لأن عدد طلبة الفصل هو عشرة تلاميذ فقط!

ولو كان الأمر في يدي لما دخلت الجامعة، ولما حصلت على شهادة جامعية فقد كنت نائباً لرئيس تحرير مجلة روز اليوسف، وكانت أكبر مجلة سياسية في مصر وقتئذ، وعمري ١٧ سنة!

وكنت أترأس محررين يحملون شهادات في الحقوق والآداب، وكنت في ذلك الوقت طالباً في المدارس الثانوية!

وكان من رأي الأستاذ التابعي ألا أتم دراستي، وأن أترك المدرسة وأتفرغ للصحافة!

ولكنني اضطررت أن أتم دراستي وأحصل على شهادة ماجستير في العلوم السياسية لأرضي أمي!

ولولا أمي لما حصلت على شهادة الكفاءة ولا على شهادة الثانوية العامة!

وكانت أمي تقنعني بالاستمرار في الدراسة بدموعها.

ودموع الأمهات أقوى وسائل الاقناع في الدنيا!

الأكسبريس ليس قطار النجاح!

عندما أرى شاباً طموحاً يتعجل النجاح، ويريد أن يقفز بسرعة اتساءل هل نحن نظلم شباب هذه الأيام عندما نتهمهم بالتسرع وبقلة الصبر؟ وهل نحن نخطىء عندما نقيس سرعة انطلاقهم بسرعة انطلاقنا!

في أيامنا كانت الناس تركب الحمير والجمال والقطارات والسيارات.

وفي أيامهم أصبحت الناس تركب الكونكورد وتتحدث عن الصاروخ!

اليوم تستطيع أن تفطر في القاهرة وتتغدى في لندن وتتعشى في نيويورك فهل نطلب من شاب اليوم أن يركب حماراً أو جملاً وينطلق إلى أحلامه!

في أيامنا كان الصبر مفتاح الفرج، وفي أيامه يصبح الانطلاق هو المفتاح! جاءني شاب لم يصل بعد إلى سن الثلاثين وقال لي إنه يفكر في الاستقالة من عمله، لأنه مضى عليه وقت طويل جداً بغير أن يحصل على علاوة أو ترقية! وسألته عن هذا الوقت الطويل جداً، فأجاب أنه خمسة أشهر و ٢١ يوماً!

وتذكرت أنني عندما كنت في مثل عمره كنت محرراً في جريدة الأهرام ومكثت ثماني سنوات دون أن أحصل على علاوة واحدة! ولم

أغضب ولم أحتج ولم أفكر في الاستقالة. فهل كنت في تلك الأيام شاباً بلا أحلام وبلا طموح؟ كلا؟! كانت أحلامي كبيرة، وكنت أعلم أن تحقيق هذه الأحلام يحتاج إلى عمل كبير، وإلى جهد كبير، وإلى عرق يبذل، وإلى أعصاب تحرق ولقد قلت لهذا الشاب أن تجربتي في الحياة أن الفرص لا تنتظر في الشارع! إنها دائماً تدخل المكاتب، وتذهب إلى الذين يشغلون وظائف، فإذا وجدت شاباً بغير وظيفة وبغير عمل تركته إلى شاب آخر يعمل، وانتزعته من وظيفته لتعطيه فرصة أكبر! بمعنى أن الفرص لا تدق الجرس على أبواب العاطلين، وإنما تدق باب العاملين الناجحين. تجربتي أن الشاب الناجح الذي يبقى في عمله يزاوله، ويتحمل متاعبه، ويصبر على الأجر غير الكافي، سوف يجد يوماً من يدق الباب ويعرض عليه مرتباً أكبر وعملاً أكبر وفرصة أكبر وأكبر!

ولم يقتنع الشاب برأيي وأصر أن يستقيل. ورفض أن يصبر. وقال إن فلسفتي قديمة عفى عليها الزمن. وإن الدنيا تغيرت، وأن الفرص لم تعد تدق أبواب العاملين. إنها تنتظر الناس في الفنادق والحانات والكباريهات والشارع العام!

واستقال صاحبي الشاب من وظيفته وجلس في بيته ينتظر.

ومضى عامان ولم يدق الباب حتى الآن!

يبدو أن «الفرصة» هي الأخرى من الجيل القديم الذي لا يركب الكونكورد والصواريخ!

الوزير الطرطور؟

ليست مهمة الوزير الجديد أن يبدأ عمله بإلغاء قرارات الوزير القديم! الوزير الصغير هو الذي يهدم البناء القديم، والوزير الكبير هو الذي يستأنف بناء ما بدأه الذين سبقوه!

الوزير الجديد الذكي هو الذي يبدأ عمله بزيارة سلفه في بيته، ليستفيد من خبرته وتجاربه، لا أن يعتبر الوزير القديم عدواً يجب القضاء عليه، والتشهير به..

فليس الطريق لإثبات عبقريتك أنت أن تثبت أن الذي كان يجلس على كرسيك هو حمار لا يفهم، وجاهل لا يعلم، وتافه لا رأي له!

إنك لو قلت ذلك لوضعت تقليداً سوف يتبعه الذين يخلفونك على هذا الكرسي، فيقولون عن معاليك أنك حمار وجاهل وتافه، ولا تصلح فراشاً لهذه الوزارة!

لو أنك تريد أن تضمن سطراً طيباً في التاريخ فحاول أن تثني على الوزير الذي سبقك. حاول أن تجد له عملاً طيباً تشيد به. حاول أن تكون رحيماً مع معاونيه. لا تشردهم ولا تبطش بهم. إذا أردت أن تجيء بمن تثق بهم، فعليك أن تسأل الذين عاونوا الوزير السابق عن الأمكنة التي يريدون أن ينقلوا إليها ويستريحون فيها!

أعرف وزيراً سمع نصيحتي وزار الوزير السابق. وسأله عن كبار الموظفين الذين كان يثق بهم ليعتمد عليهم..

وأخبره الوزير بأسماء سبعة من كبار الموظفين!

وفي اليوم التالي أصدر الوزير قراراً بإحالة هؤلاء السبعة جميعاً إلى المعاش! وتصور الوزير الجديد أنه ملك الوزارة كلها عندما تخلص من الموظفين السبعة لاعتقاده أنهم من محاسيب الوزير السابق وحوارييه!

وبعد فترة اكتشف الوزير الساذج الفاجعة الكبرى!

كان الوزير السابق رجلاً ذكياً، وأحس أن الوزير الجديد رجل غادر لا يطمئن إليه ولا يثق به فأملى الوزير الجديد أسماء سبعة من أعدائه وخصومه في الوزارة الذين كانوا يقفون ضده وينتقدون مشروعاته وأعماله!

وهكذا عاش الوزير الجديد تافهاً في وزارته!

وتصور موظفو الوزارة أن الوزير السابق هو الذي يسيطر على الوزارة فهرولوا إليه يتلقون منه التعليمات والاتجاهات!

وعاش الوزير الجديد طرطوراً في وزارته إلى أن خرج من الوزارة!

الصالونات الأدبية

متى تعود الصالونات الأدبية إلى بلادنا؟ الصالونات التي كانت تجمع الوزراء والشعراء والأدباء وكبار الصحفيين. حيث كانت تولد أروع القصائد وأجمل الأفكار وأعظم الاتجاهات!

كان في مصر صالون أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام، وقبله كان صالون توفيق دياب صاحب الجهاد، وبعدها صالون أخبار اليوم.

واستمر صالون أخبار اليوم إلى سنوات الثورة الأولى. وكان يجمع الوزراء والكتاب والصحفيين. ثم بدأت التقارير تصل إلى قادة الثورة تتهم الصالون بأنه ينقد الحكام والناس العظام، وأن فيه تؤلف النكت وتوضع القفشات!

وأممت الصحافة، وانتقل الصالون إلى بيتي في الزمالك. وكنا نجتمع مساء يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع وكان يجمع علي أمين وكامل الشناوي وموسى صبري وأنيس منصور وأحمد رجب وسعيد سنبل وجليل البنداري وكمال الملاخ وناصر النشاشيبي وإحسان عبد القدوس ومحمود السعدني ومن الفنانين محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل. وكان يتردد على الصالون من وقت لآخر بعض كبار الفنانين. وكانت تدور مناقشات ممتعة! وفي هذا الصالون وضع محمد عبد الوهاب بعض ألحانه الرائعة، ونظم كامل الشناوي قصيدة «لا تكذبي». ودخلت السجن فأقفل الصالون بالضبة والمفتاح. وكان من

بين الصالونات الأدبية بار اللواء أمام جريدة الأهرام حيث يجتمع الصحفيون كل مساء. وبار الأنجلو ومحل صولت. وماتت هذه الصالونات بهدمها وإقامة عمارات مكانها. وفي محل صولت الحلواني كان يجلس أمير الشعراء أحمد شوقي ينظم قصائده ويكتبها على ظهر علبة سجائر مصرية!

وكان بار الأنجلو وكر الإشاعات ضد الوزارات، وكان يتردد عليه شيخ معمم خبير في إطلاق الإشاعات وترويج الأخبار، وأطلقوا عليه اسم «الشيخ روتر» نسبة إلى وكالة روتر للأنباء!

وفي بار اللواء عقدت أول نقابة للصحفيين إجتماعها، وكانت نقابة شجاعة تحتج على حبس الصحفيين، وتطالب بحرية الصحافة، وتهدد الحكومة بالاضراب إذا وضعت قوانين تصادر حرية الرأي!

وكانت الحكومات ترتعد من نقابة الصحفيين. وكانت تجمع أصحاب الصحف والمجلات والمحررين. وكان أول نقيب للصحافة هو جبرائيل تقلا صاحب الأهرام!

وقد حاولت الحكومة القائمة في تلك الأيام أن تسقطه..

ولكن النقابة هي التي أسقطت الحكومة!

وكان أهم مطلب للنقابة هو حرية الصحافة!

وبعد ذلك تضاءل شأن النقابة وأصبح أهم مطلب هو دخول حديقة الحيوانات مجاناً!..

ثم جاء زمن كان انتخاب النقابة بالتعيين!!

الصحافة الحرة هي التي تنشيء نقابة الصحافة القوية!

عذر الوزير البليد!

من قواعد الفشل المعروفة إنه إذا فشل الوزير، وخشي أن يغضب عليه رئيس الوزراء ويخرجه من الوزارة مستغنياً عن خدماته أن يذهب الوزير الفاشل إلى رئيس الوزراء ويقول له أن الصحف هي السبب في فشل الوزير! لولا أن الصحف قليلة الأدب نشرت خبر اصطدام قطار الاكسبريس بقطار الركاب وموت ١٨ راكباً لما عرف الشعب أن حالة القضبان سيئة. ولما شكا الناس من سوء حالة المواصلات! ولولا أن الصحف كتبت أن التليفونات لا تدق، لما عرف الناس أن التليفونات فقدت النطق!

ولولا أن الصحف تتحدث عن أزمة المواصلات لوجد كل راكب لنفسه مكاناً في الأوتوبيس والترام والقطار، فإذا لم يجد مكاناً سار على قدميه ساكتاً دون أن يفتح فمه!

الصحف دائماً هي المسؤولة! إذا كذب مسؤول في تصريح رسمي فهذا ليس خطأ الوزير الكذاب، وإنما خطأ الجريدة التي نشرت الخبر، ولم تفترض أن من حق أي وزير أن يكون حراً في أن يقول ما يشاء! إن أمهاتنا ولدتنا نحن الوزراء أحراراً ندلي بتصريحات كما نشاء، ونكذب كما نشاء، وليس من حق الصحف أن تحاسبنا على تصريحاتنا، أو تقول لوزير من الوزراء بأنك في سنة ١٩٥٢ قلت أنك ستبني كل سنة مائة ألف بيت، ولم تقم إلا ببناء خمسة بيوت وغرفة فوق السطوح!

الصحف هي التي تفسد العلاقات بين الشعوب والحكومات.

هي التي توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وترشد الحائرين، وتنير الطريق للتائهين! ولو تركت الصحف النائمين يغطون في نومهم، والغافلين غارقين في غفلتهم، والحائرين تائهين في حيرتهم لكان الشعب أسعد الناس!

وأصحاب هذه النظرية ينسون أن الصحافة كانت مقيدة في إيران، وألسنة الصحفيين مقطوعة، ومقالات الكتاب خاضعة للرقابة، وأخبار الفساد والتعذيب والطغيان ممنوعة، ومع ذلك عرف الشعب كل شيء بغير صحف وبغير تليفزيون وبغير إذاعة!

إن ألسنة الناس أكثر عدداً من توزيع أكبر صحيفة في العالم!

والحل الوحيد مع هؤلاء الوزراء الذين يشكون من الصحافة أن يصدروا قراراً بقطع ألسنة الناس فلا يتكلمون، وخرق آذانهم فلا يسمعون. وقلع عيونهم فلا يرون، وقطع أصابعهم فلا يلمسون ما يجري تحت أنوفهم!

وبهذا فقط سوف يستريح كل وزير فاشل من أن يعرف الناس أنه فاشل!

الغلطة المطبعية..!!

كثرت الأخطاء المطبعية والأغلاط النحوية في الصحف والمجلات العربية، حتى لا تكاد تقرأ جريدة عربية واحدة بغير أن تعثر على عشرات من الأخطاء المطبعية!

وفي وقت من الأوقات كان مصحح الجريدة يختار من أكبر الأدباء. كانت جريدة الأخبار لصاحبها الأستاذ أمين الرافعي اختارت أديباً كبيراً هو الأستاذ محمد صادق عنبر، لتصحيح الجريدة.

وعندما أغلقت الأخبار أبوابها انتقل صادق عنبر إلى جريدة الأهرام وتولى تصحيح مقالاتها!

وبدأ كامل الشناوي حياته مصححاً!

وكذلك أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة، والدكتور زكي مبارك وغيرهم من كبار أدباء مصر.

ثم هبط مستوى المصححين، أصبحنا نجد من لا يعرفون اللغة العربية يتولون مهمة مراجعة المقالات!

وكان أنطون الجميل نائب رئيس تحرير الأهرام يحرص أن يقرأ مقاله بنفسه ويصحح الأخطاء بنفسه.

وكذلك عبد القادر حمزة باشا صاحب جريدة البلاغ، ومحمد التابعي عندما كان رئيساً لتحرير مجلة روز اليوسف.

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد يحضر من بيته في مصر الجديدة إلى دار أخبار اليوم ليصحح مقالاته بنفسه.

وكان العقاد يطلب مني أن أختار له عناوين مقالاته في اليوميات ولا أذكر أنه اعترض على واحد من هذه العناوين!

ولكن إذا حدث ووجد خطأ مطبعياً واحداً في مقاله هاج وماج واعتقد أنها مؤامرة من بعض العمال الشيوعيين في المطبعة!

والواقع أنه لم يكن هناك أحد يتآمر على العقاد. فقد كنا جميعاً نحسب لغضبه ألف حساب، وكنا نعتبره أستاذاً لنا. وكان أكثر كتاب أخبار اليوم انتظاماً في تقديم مقالاته لرئيس التحرير، يرفض أن يرسلها مع خادم بل يحرص أن يجيء بنفسه ويسلمها إليه يداً بيد.

وكان إذا سافر إلى أسوان ليغيب شهراً كتب كل المقالات قبل أن يسافر، خشية أن تتأخر بالبريد، أو تضيع في المواصلات.

إنني لا أنسى غلطة مطبعية كادت أن تذهب بي إلى محكمة الجنايات وأنا محرر صغير في مجلة روز اليوسف. لقد كتبت كلمة عن وزير المعارف فسقط حرف الواو وجاء الخبر بعنوان «زير المعارف»! وكانت مصيبة لأن وزير المعارف هذا كان معروفاً بأنه زير نساء!

زوجة الجنرال!

عاد الجنرال إلى بيته ساخطاً غاضباً شاكياً. وجلس في غرفة نومه يبكي. وأقبلت زوجته عليه مذعورة تسأله ماذا جرى!

قال لها الجنرال في صوت متهدج أن جلالة الامبراطور وقع اليوم مرسوماً أمبراطورياً بإحالتي إلى المعاش! لقد طردت من منصبي في الأمن العام طرداً، لم أرتكب ذنباً! لم أسرق. لم أظلم. لم أنهب. لم أشهد زوراً. لم ألفق تهمة لبريء. لم أعذب سجيناً. صفحتي بيضاء بشهادة الجميع. وأنا رجل مؤمن بالله. أصلي وأصوم وأتقي ربي! تصوري! زملائي في العمل المعروف أنهم لصوص بقوا في مناصبهم! الذين بطشوا وظلموا وعذبوا لم يمسهم سوء! الذين يمضون لياليهم في أندية القمار وبيوت الليل، آمنون مستقرون.

كيف يسمح الله بأن يظلم المؤمن ويثاب الكافرون الفاسقون الفاسدون! قالت له زوجته: لا بد أنها حكمة من الله. شاء أن يلقي بك بعيداً عن هذه الطغمة الفاسدة! لا بد أن زلزالاً سيقع في طهران وسيهدم إدارة الأمن العام، وستنهار كل المكاتب فيها، وأراد الله أن ينقذك أنت دون سواك قبل أن يقع الزلزال!

قال لها الجنرال: يا لك من امرأة جاهلة! إن مكاتب الأمن العام في طهران مبنية بالحديد والأسمنت المسلح. لا يمكن أن يؤثر فيها زلزال، ولا يمكن أن تهدمها قنبلة ذرية! إن فيها مخابىء تحت الأرض محصنة

تحصيناً مذهلاً! ملايين الدولارات أنفقت في عملية التحصين. إذا حدث ووقعت طهران كلها في يد العدو، فستبقى إدارة الأمن العام قلعة حصينة!

ومضت الأيام. . . والجنرال المعزول يبكي حظه التعيس!

وقامت ثورة الخميني. .

وذات يوم هاجمت جموع الشعب الهائج الثائر القلعة الحصينة التي لا تهدمها قنبلة ذرية!

واقتحمت الجماهير الغاضبة الأبواب الحديدية والأسلاك الشائكة، وانتزعوا الجنرالات من كبار موظفي الأمن العام من مقاعدهم وقتلوهم واحداً واحداً!

وعرف الجنرال المعزول أن زوجته لم تكن جاهلة! وأنها كانت على حق عندما توقعت أن الله أراد أن يبعد زوجها عن مكان الكارثة!

فإذا وقعت لك مصيبة فلا تيأس. . فقد تكون هذه المصيبة هي الطريق الوحيد للنجاة!

مرتبات الصحفيين

عاشت الصحافة في البلاد العربية سنوات طويلة في ضنك وفقر واضطراب . كان بعض أصحاب الصحف يكسبون الذهب، وكان بعض الصحفيين يأكلون الطوب!

وكانت الصحف تتعرض للمصادرة والتعطيل، والصحفيون يتعرضون للسجن والتشريد والجوع. وكان كثير من الصحف يعجز عن دفع مرتبات المحررين في آخر الشهر.

وفي مصر مثلاً كانت جريدة الأهرام وحدها التي تدفع للمحرر مرتبه في أول يوم في الشهر، وكان المحرر في الأهرام هو الصحفي الوحيد الذي يسدد أجر بيته ويدفع ما يستحقه البقال والجزار!

وكانت دار الهلال تعامل المحرر بالقطعة، فأحياناً يرتفع دخل الصحفي إلى ثلاثين جنيهاً، وأحياناً يهبط دخل نفس الصحفي إلى ثلاثة جنيهات!

وكان الدكتور فارس نمر باشا صاحب جريدة المقطم يكره دفع المرتبات للصحفيين، وقد مكث خليل ثابت باشا رئيساً لتحرير المقطم ثلاثين سنة ولم يرتفع مرتبه عن ثلاثين جنيهاً في الشهر. وكان فارس باشا أغنى صحفي في مصر، وكان يملك ألف فدان غير الملايين التي يملكها في البنوك، ومع ذلك كان يعطي المحرر مرتباً لا يزيد عن ثلاثة جنيهات، ويقول له إن من حقه أن يحتفظ لنفسه بالبقشيش، أي أن المحرر يحتفظ

لنفسه بما يتقاضاه أجراً لما ينشره من أخبار. وأذكر أنني كنت تلميذاً في السنة الأولى بالمدرسة الثانوية وذهبت إلى محطة مصر لتوديع قريبي بهي الدين بركات باشا المسافر إلى الخارج. وبعد قيام القطار قابلني مندوب جريدة المقطم في محطة مصر وقال لي إنه مستعد أن يسفرني إلى الإسكندرية ويعيدني إلى القاهرة بخمسة قروش! ودفعت له الخمسة القروش، وإذا بجريدة المقطم تظهر في اليوم التالي وفيها خبر بأن «الأديب المعروف مصطفى أمين سافر إلى الاسكندرية أمس وعاد منها في المساء»!

ولم أكن يومها أديباً معروفاً ولا أديباً مجهولاً، ولم أغادر القاهرة، وإنما الخمسة القروش التي دفعتها لمندوب المقطم كانت هي بساط الريح الذي حملني إلى الاسكندرية وأعادني منها إلى القاهرة في المساء!

واليوم أصبح الصحفي في العالم العربي يملك سيارة، وبعضهم يملك البيت الذي يعيش فيه، ويقبضون مرتباتهم في آخر كل شهر. ولا ينقصهم إلا الحرية والاستقرار. فلا يزال الصحفي مهدداً بالفصل والتشريد. وقد نجد اليوم صحفياً يرأس مجلس إدارة صحفية، وفي ظل تعدد ملكية الصحف، فعندما تملك الدولة كل الصحف، فمعنى ذلك أنك إذا غضبت عليك جريدة غضبت عليك كل جرائد بلادك، وأقفلت كل أبواب الرزق في وجهك! وأذكر قراراً صدر منذ سنوات ضد أنيس منصور ينص على أنه يرفت أنيس منصور من أخبار اليوم، ويحرم من المكافأة والمعاش، ويمنع من أن يعمل في أي جريدة مصرية أو أي جريدة خارج مصر، وتمنع جميع المطابع من طبع أي كتب له، ويمنع من العمل في الإذاعة والتليفزيون. . ومعنى ذلك الحكم على كاتب بالاعدام الأدبي!

وسوف يبقى كل صحفي مهدداً إلى أن تستمتع الصحافة العربية بالحرية الكاملة!

الشلوت المؤلم!

قال لي وهو يتحسس ظهره، لينظف بنطلونه من آثار الشلوت الذي وجهه إليه الوزير:

– لم أتصور أن هذا الطاغية يركلني بقدمه، بعد كل ما فعلت من أجله! إنني ضحيت من أجله بصحتي وشبابي، ثم كانت النتيجة أن جازاني جزاء سنمار.

أخذني لحماً وتركني عظماً! ارتفع فوق ظهري ثم داس على رأسي.

قلت له: إنك نسيت أكبر تضحية قدمتها إليه! أنك ضحيت بضميرك من أجله. نسيت الله وذكرته! كفرت بالشعب وآمنت بالسلطة. دست على القانون والأخلاق والكرامة لترتفع فهويت!

عيبكم أيها الناس الذين تخدمون الطغاة الصغار والكبار أنكم لا تتعظون! ترون السيف يقطع رؤوس من سبقوكم فلا تتحسسون رقابكم. وتشهدون مصارع المقربين قبلكم، وتتوهمون أنكم أذكى من أن تكون هذه نهايتكم، وأكبر من أن يكون هذا مصيركم!

كل الذين كانوا بجوار الطاغية كانوا يتوهمون أنهم في قلعة منيعة لا تسقط أبداً! رضا الطاغية هو الدرع الواقي. القرب من الطاغية هو السد العالي. ولم يعرفوا أن حاشية الطاغية يجلسون على صينية اللونابارك. هذه الصينية الدوارة التي نراها في ملاهي الأطفال، تجلس فوقها، ثم تدور ببطء ثم تدور بسرعة، وتلقي الراكبين واحداً واحداً

إلى خارج الصينية! لا أحد ينجو. إذا لم يفتك بك الطاغية، ألقاك إلى السباع الجائعة لتأكلك حتى يلهيها عن التهامه هو! وإذا استطعت أن تحتفظ بمكانك فإن الشعب لا يلبث أن يلتهم الطاغية، ويسلك أسنانه بحاشيته وندمائه الذين حللوا له الحرام، والذين أخفوا عنه الحقيقة، والذين قدموا له التقارير الزائفة، والذين أوهموه أن صراخ الشعب هو أنغام موسيقى الجاز الصاخبة، وأن صراخ البطون الجائعة هو شدو البلابل والعصافير تغني لمقدمه السعيد!

قبل أن تشكو من الشلوت تذكر ألوف المظلومين الذين أغلقت آذانك لكيلا تسمعهم. تذكر ألوف الضحايا الذين أغمضت عينيك حتى لا تراهم. تذكر كم شكوى ألقيتها في سلة المهملات دون أن تفتحها!

الشلوت يؤلمك؟ ما بالك بالمشانق وحبالها تحيط أعناق الأبرياء! ما بالك بالسياط وهي تهوي على ظهور المعارضين المسجونين التعساء.

إنك لم ترحم الناس فلماذا تريد من الناس أن ترحمك اليوم!

وقال الجلاد السابق وهو يهز رأسه:

- بلد لم تعد فيه إنسانية!!

دولة كيكو كوكو!

سيجيء يوم تطالب فيه الشعوب العربية بأن تكون الإذاعة والتليفزيون هيئة مستقلة وليست مصلحة تابعة للدولة كمصلحة المجاري!

ولقد أساءت الحكومات بأن جعلت الإذاعة والتليفزيون بوقاً لها، يطيع أوامرها وينفذ تعليماتها، وينطق بلسانها.

وأصبحت التليفزيونات تفرض علينا صور الحكام حتى أن زوجة في أحد البلاد العربية شكت لي أنها ترى صورة الحاكم في بيتها أكثر مما ترى زوجها!

ويحدث أحياناً أن يعين لإدارة التليفزيون أو الإذاعة أحد المرتزقة الذين يجدون الشرف كل الشرف في أن يكونوا خدماً في بلاط الحاكم، فيحول هذا الجهاز العظيم الذي هو لسان الأمة إلى ممسحة يمسح بها حذاء الحاكم في الصباح وفي المساء!

يتصور مثل هذا المرتزق أن الشعب مشتاق لأن يرى صورة الوزراء في الصباح وفي الظهر وفي العصر وفي المغرب وفي المساء! يقومون ويقعدون، ويمشون ويقفون، ويأكلون ويشربون ويسافرون ويعودون!

لم تعد في الدنيا أنباء مهمة سوى أنباء حكام دولة «كيكو كوكو» التي فيها تليفزيون!

تقوم الحرب بين الصين وفيتنام ولكن تليفزيون دولة «كيكو كوكو» يبدأ نشراته بأن حاكم كيكو كوكو تلقى برقية من فخامة رئيس جمهورية شك شك بي يسأل عن صحته التي هي غاية المراد من رب العباد!

يحدث زلزال ضخم في دولة كيكو كوكو، ويموت مئات من البشر، وتهدم آلاف من البيوت، ولكن تليفزيون كيكو كوكو يعتبر هذا نبأً تافهاً لا يستحق إلّا رقم تسعة في النشرة الاخبارية أما النبأ الخطير العظيم المهم فهو أن سيادة رئيس وزراء كيكو كوكو افتتح اليوم دكان بقالة لابن أخت خال معالي وزير المواصلات!

الذين يشرفون على التليفزيونات لا يعلمون أنهم بهذه الطريقة السمجة يجعلون الشعوب تكره حكامها، ولا تطيق رؤية وجوههم، وتفضل أن تسمع أغنية السح الدح امبو على أن تسمع خطاباً لوزير خارجية دولة كيكو كوكو في الأمم المتحدة!

لماذا لا نتعلم من التليفزيون البريطاني الذي يبدأ بالأنباء العامة حتى ولو كانت عن صعلوك إنجليزي داسته سيارة في أحد شوارع اليابان!

في بريطانيا يعتبرون كل مواطن إنساناً له أهمية.. وفي بلاد أخرى لا يعتبرون الإنسان مهماً إلّا إذا كان يتولى منصباً كبيراً!

الفرق بين جيلي وجيلها؟

سألتني طالبة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن الفرق بين جيلي وجيلها؟

قلت لها: إننا في جيلنا كنا أكثر ارتباطاً بأهلنا من الجيل الحاضر. هذا الجيل ضعفت روابطه العائلية. وقد كنا في جيلنا الماضي أكثر احتراماً لآبائنا من أبناء الجيل الحاضر! قد لا تصدقيني يا آنستي أنني لم أضع ساقاً على ساق أمام أمي إلى أن ماتت. إذا كنت جالساً في غرفة ودخلت أمي وقفت لها احتراماً... وكان يحدث أن تدخل أمي وتخرج من الغرفة عشر مرات فأقف احتراماً لها عشر مرات! كنت أفعل ذلك وأنا عضو في مجلس النواب وأنا صاحب دار أخبار اليوم، وكنت لا أستطيع أن أدخن سيجارة في حضرة أمي، مع أن السيجارة لا تفارق فمي أبداً. فإذا لم أستطع أن أصبر على السيجارة غادرت غرفة أمي ودخنت سيجارة خارج الغرفة! ولا أذكر أنني قلت لأبي أو أمي «أنت»! كنت أقول لهما «حضرتك» وقد ألغى الجيل الحديث هذه التقاليد، وبدأنا نسمع في بعض المجتمعات عن أبناء ينادون آباءهم بأسمائهم! ولقد وجدت متعة لا حد لها في احترام أبي وأمي وفي تقبيل يديهما. ولم أشعر بمهانة وأنا أحني رأسي لأمي وأقبل يدها.. بل كنت أحس أن هذه القبلة هي جواز مرور إلى رضاء الله!

وفي جيلنا كانت الصداقة تعني أكثر مما تعني الآن! لم تكن الصداقة مآدب نحضرها، ولا سهرات نمضيها، ولكنها كانت رابطة قوية تكاد

تصل إلى رابطة الدم! رأينا أصدقاء يضحون بحياتهم من أجل أصدقائهم. ورأينا أصدقاء يبذلون ثرواتهم لإنقاذ أصدقائهم. ورأينا صداقات تعيش العمر كله. لا تتأثر بتقلبات الأيام. اليوم أمر في الشارع وأرى جنازة في بعض الأحيان، يسير خلفها ثلاثة أشخاص! وأتساءل في دهشة هل هذا الرجل الذي عاش سبعين عاماً لم يدخل في حياته إلا ثلاثة أشخاص؟ في الماضي كان الشارع كله يخرج لتشييع جنازة أحد أفراده. وكانت القرية كلها تخرج وراء أحد أبنائها! كان الناس يعتبرون أن ما بينهم وبين الأموات هو واجب مقدس يجب أن يؤدوه كاملاً، سواء كان الميت له أقارب من ذوي النفوذ والسلطان أو كان رجلاً مجهولاً مغموراً لا منصب له ولا جاه!

وقديماً قالوا أن كلب السلطان مات فخرجت المدينة كلها تشيع الكلب وتبكيه..

وعندما مات السلطان لم يخرج خلف نعشه أحد!

ويظهر أن هذا الجيل يعتبر كل الناس سلاطين!

إحترام حرية الرأي!

دخل النائب الوفدي عبد الحميد البنان إلى مكتب سعد زغلول رئيس الوفد ورئيس مجلس النواب، وقدم له سؤالاً برلمانياً إلى علي الشمسي باشا وزير المعارف الوفدي يسأله كيف سمح بكتاب الشعر الجاهلي لمؤلفه الدكتور طه حسين، الذي فيه آراء لا تتفق مع الإسلام. قال له سعد زغلول: إن مهمة البرلمان أن يطالب بالحرية لا أن يدافع عن الاستبداد!

قال عبد الحميد البنان: أليس من حقي كنائب أن أناقش رأياً لا يتفق مع عقيدتي!

قال له سعد زغلول: هذا حقك.. من حقك أن تناقش الرأي الآخر، وليس من حقك أن تصادره!

وسأله عبد الحميد البنان غاضباً: وهل من حقك كرئيس حزب ورئيس المجلس أن تصادر رأيي؟

قال سعد زغلول: بل قد يدهشك أنني أوافقك على رأيك في كتاب طه حسين ولكن هذا شيء، وأن أطلب مصادرة الكتاب شيء آخر.. إن من رأيي أن تهاجمه وأن ينشر الذين يخالفونه كتباً يعارضون رأيه.. ولكن يبقى كتاب طه حسين حراً بغير مصادرة وبغير قيود!

قال النائب عبد الحميد البنان: تذكر أن طه حسين كان يهاجمك

يوماً في جريدة السياسة والإنجليز يحبسونك في سيشيل! كان يهاجمك وأنت مقيد بالسلاسل وممنوع من الرد أو الدفاع عن نفسك!

قال سعد زغلول: ولهذا لا أريد أن ترتكب في سنة ١٩٢٦ غلطة طه حسين في سنة ١٩٢٢. إن طه حسين غير ممثل في مجلس النواب فإذا هاجمته فمن يدافع عنه؟

قال النائب الوفدي: إن علي الشمسي باشا وزير المعارف يهدد بالاستقالة من الوزارة إذا أخرج طه حسين من الجامعة.

قال سعد زغلول: وقد جاءني علي الشمسي يستأذنني وهو وزير وفدي في أن يتخذ هذا القرار فقلت أنه يشرفني أن يدافع وزير وفدي عن حق خصم من خصوم الوفد في إبداء رأيه!

وسأله عبد الحميد البنان في دهشة: وهل ستدافع عن طه حسين، قال سعد ضاحكاً: كلا.. سأترككم تفترسونه.. وقبل أن تزهقوا روحه سوف أتقدم لإنقاذه من أياديكم!

وهكذا أنقذ سعد زغلول الدكتور طه حسين من براثن نوابه!

تهنئة عليوه أفندي!

رباه وعلمه. رعاه ودربه. أخذ بيده حتى وصل من أدنى السلم إلى قرب قمته. كان مبهوراً بأدبه وإخلاصه ووفائه. إذا سافر كان أول من ودعه، وإذا عاد كان أول من استقبله. وإذا مرض كان أول من عاده.

وسنحت فرصة أن يكافىء هذا الموظف الوفي، قررت الشركة إرسال أحد موظفيها في بعثة إلى أمريكا لدراسة آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا.

وسافر عليوه أفندي إلى أمريكا..

وفي هذه الأثناء حدث انقلاب في الشركة، جعل من سافلها عاليها.. وفقد المدير الطيب منصبه..

وتلقى المدير الطيب خطابات وبرقيات من عماله وموظفيه يحيونه، ويقولون له أنهم معه بقلوبهم وعواطفهم. وتسابق كل واحد منهم في التعبير عن حبه وإخلاصه وولائه.

وانتظر المدير الطيب بريد أمريكا ليقرأ خطاباً من الشاب الذي صنعه، والذي فضله على كل موظفي وعمال الشركة.

ولم يصل الخطاب المنتظر. واعتقد المدير الطيب أن عليوه أفندي لم يعلم بنبأ عزله! لا بد أن وكالات الأنباء لم تهتم بالخبر، أو أن الصحف

الأمريكية أهملت النبأ، أو أن أحداً لم يشأ في مصر أن يزعج عليوه أفندي في غربته ويكتب له النبأ الفاجع فقد يصاب المسكين في وحدته بصدمة عنيفة ينتج عنها ذبحة صدرية. . أو قد تسود الدنيا في عينيه بعد أن حرم من الأستاذ والنصير والصديق والسند!

وبعد أيام جاء المدير الجديد يزور المدير الطيب في بيته ليتلقى نصائحه وإرشاداته وسأله المدير الجديد: هل تعرف عليوه أفندي؟

قال المدير الطيب السابق: أعرفه؟ أعرفه جيداً إنه مثل ابني!

قال المدير الجديد: إنه موظف مؤدب جداً! تصور أنه أرسل يهنئني بالتلغراف. وأرسل إلى زوجتي يهنئها بالتلغراف وأرسل إلى ابنتي يهنئها بالتلغراف. ولم يكتف بذلك بل كلف أكبر محل للزهور في القاهرة أن يرسل لي أكبر باقة ورد رأيتها في حياتي. ولم يكتف بذلك بل اتصل بي تليفونياً من نيويورك ليقدم لي تهانيه القلبية ويقول لي أنه يرغب في إنهاء دراسته في أمريكا فوراً.

وسأله المدير القديم: وهل تعرف عليوه أفندي من قبل؟

قال المدير الجديد: أبداً. . لم أعرفه. . ولم أعرف اسمه إلاَّ من تلغرافات التهنئة وباقة الورد والمحادثة التليفونية.

وهز المدير القديم رأسه في حسرة فقد اكتشف أنه لم يعرف عليوه أفندي أبداً. .

عرفه الآن فقط!

الرهان الأخير؟

لا أعرف من ألعاب الورق إلاَّ لعبة «الولد» ولعبة «الشايب»! حتى لعبة البريدج لا أعرفها، فأنا لا أطيق أن أجلس ساعة على مائدة ممسكاً بأوراق اللعب في يدي. . ولا أتصور أن يلعب إنسان مع أصدقائه وإخوانه ليخرب بيوتهم، أو يفلسهم، أو يجعل الواحد منهم يعجز عن دفع إيجار بيته في آخر كل شهر!

وأذكر أنني قامرت مرة واحدة في حياتي.

كنت طالباً في كلية الحقوق في القاهرة، وكنت محرراً في مجلة آخر ساعة. وبين الأبواب التي كنت أكتبها باب «سباق الخيل». كنت أذهب إلى نادي الجزيرة أو نادي مصر الجديدة وأحضر السباق وأكتب أسبوعياً عن الشخصيات التي أراها هناك. ولم أكن أفهم في الخيل ولم أحاول أن أراهن مرة واحدة على حصان. .

وفي ذلك اليوم كنت أحمل في جيبي القسط الثاني لمصروفات كلية الحقوق وكانت ١٨ جنيهاً. وذهبت إلى نادي مصر الجديدة. وقابلت هناك صديقي ابراهيم فهمي كريم باشا وزير المواصلات وكان خبيراً في الخيول. وإذا به يهمس في أذني ويقول إلعب بكل الفلوس التي في جيبك على حصان اسمه «تلغراف».

وأخرجت الثمانية عشر جنيهاً التي هي مصاريف الكلية وراهنت بها على تلغراف. . وجرت العادة أن يوزع على المشتركين في السباق نشرة

عن مقدار ما يكسبه كل حصان إذا فاز بـالسباق وحملقت في النشرة فـإذا بها تقول أن الحصان تلغراف إذا ربح فسيكسب الجنيه مائة جنيه . .

وبدأ السباق، وجرت الخيول، وإذا بالحصان تلغراف هو الحصان الأول سابقاً الخيول الأخرى بمسافة طويلة! ورقص قلبي من الفرح! أصبحت مليونيراً! سأقبض ١٨٠٠ جنيه! سأشتري أفخر سيارة في المدينة وكان ثمنها ١٦٠٠ جنيه في تلك الأيام. وأعيش كملك بالمائة جنيه الباقية!

ولم تطل الفرحة دق جرس الإعتراض وأسرعت إلى جلبة فحص الجياد، فإذا بالأطباء يكتشفون أن الحصان تلغراف محقون بمادة مخدرة، ولهذا ألغوا فوزه وأصبح الحصان الثاني هو الحصان الأول!

وفي لحظة تحول الفرح الذي كان في قلبي إلى مأتم. وفي لحظة أصبحت أشقى رجل في العالم بعد أن كنت أسعد رجل في العالم! . . .

وأمضيت أياماً شقية مؤلمة تعيسة حتى استطعت أن أجمع وأقترض الثمانية عشر جنيهاً لأدفع مصاريف الكلية!

وكان هذا هو آخر عهدي بالخيول. . . وبالحمير!

عيد الأم

كتبت أدعو لأول مرة للاحتفال بعيد الأم في البلاد العربية في كتابي الأول «أمريكا الضاحكة» الذي صدر في عام ١٩٤٣ ولكن أحداً لم يلتفت لهذه الدعوة!

وبعد ذلك بأكثر من عشر سنوات جاءت سيدة إلى أخبار اليوم وطلبت مقابلتي وعلي أمين، وشكت لنا أنها كرست كل حياتها لتربية ولدها بعد وفاة زوجها وهي شابة. رفضت أن تتزوج. كافحت وجاهدت حتى حصل ولدها على بكالوريوس الطب وأصبح طبيباً ناجحاً، وخطبت له فتاة جميلة، ودفعت له المهر، وفرشت له شقة، وعندما خرج من بيتها ليسكن مع عروسه الشقة الجديدة لم يقل لها «شكراً» وبعد أن خرجت قلنا أن كل الأبناء ينسون أن يقولوا لأمهاتهم شكراً واتفقنا على الاحتفال بعيد الأم.

وبدأ علي أمين يدعو في «فكرة» للاحتفال بها. وهوجمت الفكرة من الصحف الأخرى. واتهمتنا جريدة الحكومة أننا ندعو للاحتفال بعيد الأم لتنصرف الأذهان عن الغزو التركي لسوريا! وذات صباح اتصل بي الرئيس جمال عبد الناصر تليفونياً وقال لي أنه يرى أن الاحتفال بعيد الأم فكرة سخيفة. . فهو لا يذكر أمه. . وقد ماتت وهو طفل صغير جداً. ولا يعرف كيف يحتفل بها. فهو لا يعرف أين دفنت، ولهذا يحسن العدول عن هذه الفكرة الغريبة!

وأسقط في يدنا، وذهبنا إلى كمال الدين حسين وزير المعارف في

تلك الأيام، وكان يعبد أمه وعرضنا عليه فكرة عيد الأم فتحمس لها، وقلنا له أن الرئيس عبد الناصر يرفضها، فأخذني وذهبنا إلى الرئيس عبد الناصر وكانت له دالة عليه، واستطاع أن يقنعه. وعدنا ندعو لفكرة عيد الأم من جديد.

ونجح عيد الأم نجاحاً مذهلاً، وانتقل إلى البلاد العربية، وأصبح عيداً قومياً.

ثم حدث أن سجنت في عام ١٩٦٥ ونفي علي أمين إلى الخارج.. ومنع ذكر اسمينا! وخشيت مراكز القوى أنه إذا احتفلت مصر بعيد الأم في ٢١ مارس سنة ١٩٦٦ أن يتذكر الناس إسم علي أمين واسمي!

وصدر قرار جمهوري بتغيير عيد الأم إلى عيد الأسرة.

وانهالت الاحتجاجات من الأمهات على الرئيس جمال عبد الناصر، من أمهات السعودية والكويت والعراق وسوريا والسودان واليمن والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والخليج!

كل أم في البلاد العربية اعتبرت إلغاء عيد الأم اعتداءً على كل أم عربية!

ابتسم الرئيس عبد الناصر لثورة النساء العربيات عليه وأصدر أمره بالعودة للاحتفال بعيد الأم.

ومات عيد الأسرة بقرار جمهوري كما ولد بقرار جمهوري!

الأستاذ المطرود!

كان الدكتور عبد الرزاق السنهوري يسكن في بيت مقابل لبيتي في شارع الأخشيد بمنيل الروضة.

كان أستاذاً لنا في كلية الحقوق. كان جاراً لا تسمع له صوتاً. يدخل بيته ويذهب إلى مكتبه ويقفل الباب ولا يفتحه إلاَّ في ساعة مبكرة من الصباح. كان يقرأ كثيراً وكان ينام قليلاً. وكنت وأنت تحدثه تشعر أنه مجلد ضخم أكثر مما هو رجل عادي يتكلم كما يتكلم باقي الناس.

وذات يوم رأت وزارة اسماعيل صدقي أن تفصله من كلية الحقوق وتفصل طه حسين من كلية الآداب. وقامت قيامة الجامعة. عقدنا الإجتماعات ونظمنا الاضرابات، وخرجنا إلى الشوارع نهتف بسقوط صدقي المجرم.

وسقط اسماعيل صدقي، وصدر قرار بعودة الدكتور طه حسين والدكتور السنهوري إلى الجامعة. وقرر طلبة الجامعة إقامة حفلة تكريم للدكتورين العملاقين لمناسبة انتصار الحرية على الرجعية.

وذهبنا إلى الدكتور طه وعرضنا عليه حضور حفلة التكريم فوافق. وذهبنا إلى عبد الرزاق السنهوري وعرضنا عليه حضور الحفلة فرفض! وقال أن الوقت الذي يمضيه في حفلة التكريم يمكن أن يمضيه في تأليف عدة صفحات من كتاب قانون! وأن الشاي الذي سيشربه

والجاتوه الذي سيأكله سوف يتحلل بعد ساعات . . ولكن ما يكتبه سيعيش عمراً كاملاً!

قلنا له : إننا نكرم فيك أستاذاً في الجامعة صمد بشجاعة أمام الطغيان!

قال الدكتور السنهوري : المفروض في كل أستاذ جامعة أن يصمد بشجاعة أمام الطغيان وإلاَّ فإنه لا يصلح أن يكون أستاذاً في الجامعة!

قلت له : أنت عندك بنت . . إذا تزوجت البنت فهل ستحضر زفافها؟

قال : طبعاً!

قلت : نحن ندعوك إلى زفاف الجامعة إلى الحرية! لقد طلق صدقي باشا الحرية من الجامعة، وعشنا مفترقين عن الحرية ثلاث سنوات، وعودتك وطه حسين إلى الجامعة هي عودة الحرية للجامعة. وهذا يوم يجب أن نسجله ونحتفل به . .

قال الدكتور السنهوري : إن كلمة الحرية أقنعتني أكثر كثيراً من كل مرافعتكم! إن رأيي أن جامعة بغير حرية هي أشبه بأحد الكتاتيب! الجامعة هي مدرسة الحرية، فإذا منعنا الحرية في الجامعة خرجنا عبيداً، ولم نخرج أحراراً!

وحضر الدكتور عبد الرزاق السنهوري حفلة التكريم!

وبعد الحفلة ذهب إليه بعض الطلبة يعرضون عليه أن يرأس حزباً فضحك وقال :

– أنا لا أصلح إلاَّ أستاذ جامعة!

المليونير الشحاذ!

كان رجلاً بخيلاً .

أهدى زوجته ذات مرة مروحة يد لتروح بها عن نفسها في فصل الصيف الحار، ولاحظ الزوج البخيل أن زوجته تهز يدها بالمروحة . .

وقال لها : أحسن هزي وجهك أمام المروحة حتى لا تذوب المروحة!

وحدث أن جاء من قريته في الصعيد ليشتري ألف فدان من المحكمة المختلطة بالقاهرة .

وحمل الغني البخيل ألوف الجنيهات في «مقطف» من الخوص غطاه برغيف من الخبز وبعض البصل، وركب القطار في الدرجة الثالثة من الصعيد إلى القاهرة وهو يحتضن المقطف بين ذراعيه .

وكان قطار الصعيد يصل إلى محطة القاهرة في الساعة السابعة صباحاً، وكانت المحكمة المختلطة لا تفتح أبوابها إلاَّ في الساعة التاسعة، ومشى المليونير البخيل على قدميه من محطة القاهرة، إلى ميدان الإسعاف حيث تقع المحكمة المختلطة .

لم يهن عليه أن يدفع عشرة قروش في سيارة تاكسي أو خمسة قروش في عربة حانطور، أو خمسة مليمات في الدرجة الثانية في الترام .

وصل إلى المحكمة المختلطة ووجد أبوابها مغلقة، ولم يهن عليه أن

يجلس في المقهى المجاور حتى لا يضطر إلى شرب فنجان قهوة ودفع قرش صاغ!

وجلس المليونير على السلالم الرخامية الموصلة إلى المحكمة. ووضع المقطف بجواره، ومد يده واقتطع جزءاً من الرغيف، وجزءاً من البصلة.. فقد خشي لو أخرج الرغيف كله والبصل كله أن تقاسمه يد فيها!

ومر في الشارع رجل في طريقه إلى المحكمة، ورأى رجلاً غلبان رث الثياب يجلس على درجات سلم المحكمة، ويأكل في نهم لقمة الرغيف وقطعة البصل.

وتصور الرجل أنه شحاذ، فوضع يده في جيبه وأخرج قرش صاغ ومد يده بالقرش إلى المليونير!

ولم يرفض المليونير القرش الصاغ، بل أخذه وقبله ووضعه على رأسه، ثم دسه في جيبه واستأنف الطعام!

وبعد أن افتتحت أبواب المحكمة المختلطة، دخل ودفع عشرات الألوف من الجنيهات، ثمناً للألف فدان.

ثم مشى على قدميه إلى ميدان المحطة، وتوجه إلى قطار الصعيد وجلس في مقعد في الدرجة الثالثة!

ومات هذا المليونير المصري وهو يملك ثلاثين ألف فدان!

ولم يركب مرة في حياته في الدرجة الأولى، أو يأكل في مطعم، أو يذهب إلى سينما، بل لم يرتد مرة ثوباً جديداً!

كان حريصاً دائماً أن يرتدي الملابس القديمة، وكان يقول أنه يتشاءم من الملابس الجديدة!

اتفضل.. مسدس!

إلتقيت بالسيدة خديجة حفني محمود أصغر أولاد حفني محمود باشا.. وقد كان حفني محمود صديقي، ولا أذكر أنني ضحكت في حياتي كما ضحكت وأنا معه. كان رجلاً خفيف الدم، حاضر النكتة، رائع الذكاء، وكان أستاذاً في فن المقالب. ما ترك رجلاً كبيراً في مصر إلا وسخر منه أو عبث به!

وكان يختار دائماً الرجال ثقلاء الدم، أو الذين يشمخون بأنوفهم ويتعالون عن باقي الناس.

ذات ليلة كنت معه في النادي الليلي بفندق سان استفانو برمل الاسكندرية.. وكان عدد من الشخصيات المرموقة يلعب البوكر..

ووقفت مع حفني محمود باشا نتفرج على اللعب المجنون!

وكان بين اللاعبين الخواجه شاؤول، وهو ثري يهودي يعمل وكيلاً لأعمال البارون أمبان أغنى رجل في مصر كلها!

وكسب الخواجه شاؤول الدور، وبدأ يجمع النقود التي كسبها من اللاعبين..

وكان المبلغ طائلاً..

وفجأة صاح أحد اللاعبين: أنت تغش في اللعب يا مسيو شاؤول!

وانتفض مسيو شاؤول كالنمر الهائج وصرخ بأعلى صوته :

– والله . . والله . . والله . . لو كان مسدسي في يدي لأطلقته عليك فوراً!

وهنا وضع حفني محمود يده في جيبه وأخرج مسدسه وقدمه لمسيو شاؤول وهو يقول :

– تفضل خذ مسدسي يا شاؤول بك!

وأبعد مسيو شاؤول المسدس وهو يقول :

– بلاش هزار يا حفني بك!

وأعاد حفني محمود المسدس إلى مسيو شاؤول :

– اتفضل خذ المسدس بتاعي يا شاؤول بك . . مفيش فرق!

وصاح مسيو شاؤول :

– يا سلام يا حفني بك! بلاش هزار يا أخي!

وأصر حفني محمود أن يقدم المسدس .

وأصر مسيو شاؤول أنه لا يحب الهزار!

وأعاد مسيو شاؤول النقود التي كسبها إلى اللاعبين وخرج وهو يقسم أنه لن يلعب في مكان فيه حفني محمود!

الخمسة عشر عظيما!

سألني صحفي أمريكي عن أعظم خمسة عشر رجلاً عرفتهم في حياتي من الذين انتقلوا إلى رحمة الله، وماذا استلفتني في كل واحد منهم .

فقلت : سأذكرهم بترتيب لقائي بهم .

١ – سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ لسحره العجيب وهو يخطب في الجماهير .

٢ – المهاتما غاندي زعيم ثورة الهند لبساطته وروحانيته .

٣ – هتلر فوهرر ألمانيا : عيناه المليئتان بالجاذبية .

٤ – موسوليني دوتش إيطاليا : إصلاحاته الداخلية .

٥ – الملك فيصل : ذكاؤه ودهاؤه .

٦ – شارلي شابلن : فيلسوف في مهرج وابتسامة في دمعة!

٧ – رياض الصلح رئيس وزراء لبنان : رجل كبير في بلد صغير .

٨ – أحمد ماهر : أشجع سياسي رأيته في حياتي .

٩ – ونستون تشرشل : لم يفقد إيمانه بالنصر في أحلك ساعات الهزيمة!

١٠ - الجنرال ديجول: رأيته وهو مهزوم مطرود مشرد يتصرف كأنه أمبراطور!

١١ - الملك عبد العزيز آل سعود: أعظم ملوك الشرق في القرن العشرين.

١٢ - فرانكلين روزفلت رئيس جمهورية أمريكا: المقعد المشلول الذي جعل أمريكا الجامدة تتحرك!

١٣ - إيزنهاور: الذي وقف مع مصر في عام ١٩٥٦ ضد حلفائه الثلاثة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وقامر بفرصته في انتخابات رئاسة الجمهورية من أجل أن ينصر الحق المعتدى عليه.

١٤ - جمال عبد الناصر: الرجل الذي حول انقلاباً عسكرياً إلى ثورة.

١٥ - العالم أينشتين: نقل بعلمه العالم ألف سنة إلى الأمام!

وسألني الصحفي الأمريكي عن أعظم قواد الثورات الذين اجتمعت بهم. وذكرت الأمير عبد الكريم قائد ثورة الريف وسلطان باشا الأطرش قائد ثورة الدروز ورشيد عالي الكيلاني قائد ثورة العراق والملك محمد الخامس قائد ثورة مراكش. وسألني ومن هو قائد الثورة الذي تتمنى أن تراه.

قلت: روح الله آية الله الخميني طبعاً!

المرابي يعقوب أبو ربيع!

كان عمري ١٥ سنة، وكنت أصدر مع أخي علي أمين مجلة للطلبة اسمها مجلة التلميذ. وحرمنا أنفسنا من الغداء ووفرنا ثمنه لننفق على المجلة ولم يكف ثمن الغداء، وبعنا بسكلتاتنا ولم يكف ثمن البسكليتات، وبعنا آلاتنا الفوتوغرافية فلم تكف لتسديد مصاريف المجلة.

وفي أحد الأعداد لم نجد ثمن الورق. وفي شارع زين العابدين بالسيدة زينب رأيت لافتة مكتوباً عليها «بنك يعقوب أبو ربيع». تسليف نقود تحت رهونات. تأسس سنة ١٩٢٨ بأمر الحكومة. ودخلت البنك فإذا به من غرفة واحدة. واستقبلني المرابي اليهودي، وخلعت ساعتي الذهبية، وقلت أنني أرغب في رهنها، وفحصها المرابي بين يديه وقال أنها ساعة ذهبية عيار ١٨ قيراط وأنه مستعد أن يرهنها بمبلغ ستين قرش صاغ!. وصرخت: ستون قرش صاغ فقط! قال: نعم وتدفع عشرة قروش لمدة ثلاثة شهور!

وخضعت مرغماً ووقعت على ورقة أخرى أتعهد فيها بدفع الفوائد الباهظة المركبة!

ولم أستطع أن أسدد الستين قرشاً بعد ثلاثة شهور! وبعد عام توفر معي مبلغ الستين قرشاً، وذهبت إلى المرابي لأسدد الدين وأتسلم ساعتي الذهبية! وأخرج المرابي يعقوب العقد وقام بعمليات حسابية وقال أن

المبلغ ارتفع من ستين قرشاً إلى ستة جنيهات! ولم تكن معي ستة جنيهات وعدت أدراجي، ولم أتمكن من اقتصاد ستة جنيهات إلاّ بعد عامين. . وعدت إلى المرابي يعقوب ومعي الجنيهات الستة التي طلبها فإذا به يخرج العقد مرة أخرى ويجمع ويطرح ويضرب، ويشطب ويضيف، ويراجع ويعيد ثم يقول لي أن المبلغ أصبح ستة عشر جنيهاً!

قلت له مستحيل يا خواجه يعقوب أن يقفز الدين من ستين قرشاً إلى ستة عشر جنيهاً. . وعاد الرجل يحسب من جديد، ثم اعترف أنه أخطأ حقيقة وأن المبلغ المطلوب هو ستة عشر جنيهاً وثلاثون قرشاً وسبعة مليمات! ولم يكن معي المبلغ أيضاً! وفي سنة ١٩٤٨ خطر ببالي أن أذهب إلى بنك يعقوب أبو ربيع، فلم أجده، وقال لي جيرانه أنه سافر إلى فلسطين ومعه ساعتي الذهبية عيار ١٨ قيراط!

وحمدت الله أنه سافر وإلاّ لطالبني في ذلك العام بأن أدفع ستة ملايين جنيه لأسترد الساعة الذهبية عيار ١٨ قيراط التي رهنتها في مقابل ستين قرشاً!

كل ما أتمناه ألاّ يكون الخواجه يعقوب أبو ربيع وزيراً في الوزارة الإسرائيلية التي ستنفذ اتفاق السلام!

حزب بغير جريدة حزب أخرس

سألني أحد زعماء الأحزاب السياسية هل من الضروري أن يصدر حزبه جريدة؟

قلت له: حزب بلا جريدة هو إنسان بلا لسان. تراه ولا تسمعه. والحزب الأبكم لا قيمة له لأنه لا صوت له!

قال: وما هي صفات من يرأس تحرير جريدة الحزب؟

قلت: أن يكون مؤمناً بمبادىء الحزب. ويفضل الرجل الذي حارب معارك الحزب. أما رؤساء التحرير الأجراء الذين تستأجرهم الأحزاب فهم أشبه بسيارات التاكسي! كان عبد القادر حمزة يهاجم سعد زغلول في جريدة الأهالي، ثم انضم إليه وهو يخوض معاركه الكبرى مع الإنجليز، ووقف يدافع عنه عندما نفاه الإنجليز إلى عدن ثم سيشل ثم جبل طارق. ومن منفاه كتب سعد إلى الوفد يقول أنه يتمنى لو أصدر عبد القادر حمزة جريدة يومية فصدرت جريدة البلاغ وكانت جريدة سعد الأولى!

وتوفيق دياب كان حراً دستورياً، وعندما عطل محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين الدستور والبرلمان استقال من الأحرار الدستوريين وهاجم محمد محمود وأصبح أقوى كتاب المعارضة ثم أصدر جريدة وادي النيل وكان رئيساً لتحريرها، ثم جريدة اليوم ثم جريدة الجهاد الوفدية. ابحث يا سيدي في حزبكم عن كاتب مناضل، يقف معكم وأنتم في المعارضة، لا ينضم إليكم وأنتم في الحكم. إبحث عن مقاتل يحارب في الصف الأول، لا عن فأر يقفز من السفينة في أول عاصفة!

إن الجريدة الحزبية تنتعش وهي في المعارضة وتموت وهي في الحكم. لأن الناس تحب النقد، وتحتقر التطبيل والتزمير وحرق البخور.

إن أحسن جريدة حزبية عربية في رأيي كانت جريدة السياسة في مصر. وكانت لسان حال حزب الأحرار الدستوريين الذي يرأسه عدلي يكن باشا، وكان من رأي عدلي باشا أن يكون لطفي السيد هو رئيس تحرير السياسة، ولكن لطفي السيد رشح قريبه وتلميذه الدكتور محمد حسين هيكل المحامي رئيساً للتحرير، واختار الدكتور حافظ عفيفي طبيب الأطفال مديراً للتحرير. وإذا بطبيب الأطفال هذا يثبت أنه أعظم صحفي في مصر في تلك الأيام. فقد درس جريدة التيمس الإنجليزية وطريقة تحريرها وأدخلها إلى جريدة السياسة، واستعان بعدد من أكبر كتاب مصر مثل الدكتور طه حسين ومحمد توفيق دياب ومحمود عزمي والدكتور منصور فهمي والدكتور شوقي ضيف والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ علي عبد الرازق والشيخ عبد العزيز البشري والدكتور سيد كامل. وكان حزب الأحرار محافظاً، ولكن الجريدة اختطت لنفسها سياسة تحررية. وعند صدور الجريدة قاطعها الشعب المصري لأنها تهاجم سعد زغلول. وكان القارىء لا يستطيع أن يقرأ السياسة في مكان عام وإلا ضربه الناس. وكان بائع الصحف يبيعها سراً كأنها قطعة حشيش! ولكن الجريدة المكروهة استطاعت بقوة أسلوبها الصحفي وبفضل كتابها الكبار أن تقف على قدميها، وأن تحتل مكاناً مرموقاً بين صحف مصر.

وجاء وقت كانت جريدة السياسة تهز الحكومات وتسقط الوزارات. ومن الصحف الحزبية الناجحة جريدة «الإستقلال» التي كان يصدرها حزب الاستقلال في العراق ويرأس تحريرها فائق السمرائي. وكانت جريدة مليئة بالجرأة والحيوية وكانت تجعل نوري السعيد باشا ديكتاتور العراق لا ينام الليل!

ولكن بعض الصحف الحزبية كانت بالنسبة للحكام كالمخدرات التي تساعد على النوم!

قبر لمحمود أبو الوفا

لو أننا كتبنا عن عباس محمود العقاد في حياته نصف ما كتبناه عنه بعد مماته، لعاش العقاد خمسين سنة أخرى!

فمن الغريب أن البعض منا يهاجم العباقرة وهم أحياء، ويهوي عليهم بالمطارق، ويقتلهم بالخناجر والسكاكين، وبعد أن يتأكد من موتهم يحمل الجثة على ظهره ويبدأ في اللطم والعويل!

وأذكر أنني منذ عامين علمت أن الشاعر الكبير محمود أبو الوفا يعيش في محنة قاتلة ولا يكاد يجد طعامه اليومي، وأنه يعيش في غرفة رطبة لا تدخلها الشمس، وأن أمنيته في الحياة أن يجد شقة في حارة تدخلها سيارة الإسعاف!

وكتبت عنه في «فكرة» وفي اليوم التالي جاءت سيدة مجهولة رفضت ذكر اسمها وأعطتني ألف جنيه لأعطيها للشاعر، فقد أسعدتها في شبابها قصيدة «عندما يأتي المساء» التي غناها عبد الوهاب!

وما كدت أنشر النبأ حتى توالت التبرعات، وزاره وكيل وزارة الثقافة ووكيل أول وزارة الثقافة ومحافظ القاهرة ووعده بأنه في خلال أيام سوف ينقل إلى شقة من شقق المحافظة تليق بالشاعر العظيم..

وكرمه رئيس الجمهورية ومنحه وسام الفنون في عيد الفن..

وتصورت أن الشاعر أبو الوفا حصل على بيت أنيق جميل بدل «الجب» الذي كان يعيش فيه!

ومضى عام وطلبت الأستاذ محمود أبو الوفا في التليفون أسأله عن عنوان بيته الجديد لأزوره فيه!

فقال أبو الوفا: بيت؟ إنني لم أحصل من الحكومة إلاَّ على بيت شعر!

قلت له: ولكن الصحف كلها قالت أن المحافظ قرر أن يعطيك بيتاً!

قال ضاحكاً: لقد أسكنوني في تصريحات الوزراء وفي مقالات الصحف. ولكني ما زلت أعيش كما أنا في العراء!

قلت له: لا بد أن نطالب لك بالبيت الذي وعدوك به.

قال: أرجوك.. لا أريد بيتاً لأنني لن أعيش حتى أسكن فيه.. كل ما أريده هو قبر!

وبعد أيام مات محمود أبو الوفا.

ومع ذلك لم يجد قبراً!

وجد قصائد الرثاء!!

مناظر.. هانم!

مناظر هانم سيدة غريبة. تهتم اهتماماً عجيباً بالمناظر والمظاهر! تهمل ملابسها وهي في بيتها، فإذا خرجت من البيت ارتدت أفخر الأثواب وتزينت بأغلى المجوهرات، وحرصت أن تبدو كالمانيكان!

وهي لا تقدم لزوجها وأولادها الطعام إلاَّ في وجود الضيوف، عندئذ تقيم مأدبة ملكية فيها جميع الأصناف والألوان، والفاكهة والحلوى، والخمور، والشامبانيا، أما إذا خلا البيت من الضيوف فإن زوجها وأولادها يأكلون ما بقي من المأدبة الملكية، ويستمرون يأكلون الطعام «البايت» إلى أن تقيم مناظر هانم مأدبة جديدة!

وهي تغطي جميع المقاعد في البيت بأغطية نايلون، وكذلك السجاجيد والصور الزيتية. ولا يذكر زوجها أنه جلس على مقعد بلا غطاء إلاَّ في حضرة كبار الضيوف والزائرين! فإذا دخلت البيت في غير حفلة ساهرة أو مأدبة خيل إليك أن أهل البيت سافروا في رحلة طويلة، ولهذا غطوا كل شيء وأخفوا كل شيء، خشية أن تأكله العتة أو يسرقه اللصوص!

ومناظر هانم سيدة على درجة كبيرة من الثراء، ولكنها تستخسر شيئاً لا يراه الناس، ولا تبخل بمال على أي شيء تستعرض به ثراءها وكرمها وعظمتها أمام الناس!

وصديقاتها يقلن أنها تشتري ثوب السهرة من لندن وباريس

ونيويورك وتدفع في الثوب الواحد حوالي الثلاثة آلاف دولار، ولكن كل ثمن ملابسها الداخلية لا يتجاوز سبعين قرشاً!

وهي تشبه نفسها بفردة العجلة الكاوتش في السيارة، الجزء الداخلي رخيص، والجزء الخارجي غال!

ومناظر هانم لها شخصيتان. فهي في بيتها تضرب الخدم وتشتمهم وتهينهم، ولكنها في الخارج ترأس جمعية للرفق بالحيوان، وهي بخيلة إلى درجة الشح عندما تكون وحدها، وكريمة إلى درجة الجود عندما تكون مع الناس، إذا كانت تقود سيارتها مع صديقاتها وجاء المنادي يفتح لها الباب نفحت المنادي جنيهاً كاملاً وبدت كأنها أم المحسنين، وإذا قادت السيارة وكانت وحدها، وجاء المنادي، فإنها تعطيه قرشاً صاغاً وهي تتصور أنها ابنة حاتم الطائي!

إنها أشبه بحائط ديكور من الورق يخفي خلفه خرابة!

الآنسة خليفة سيدنا أيوب!

قالت لي موظفة البنك الحاصلة على درجة جامعية: لقد أصبحت من الموظفين المنسيين في البنك! مضى علي مدة طويلة جداً بغير أن أحصل على ترقية وبغير أن أحصل على علاوة!

وسألتها كم مضى عليك من الوقت بلا ترقية ولا علاوة؟

قالت: ستة أشهر!

قلت: يا سلام! إنك ضربت الرقم القياسي الذي سجله سيدنا أيوب عليه السلام في الصبر! كيف تحملت هذا الظلم طوال هذه المدة الطويلة؟!

قالت: ولكنني لن أصبر بعد الآن! إنني أفكر أن أقدم استقالتي من البنك احتجاجاً على أنهم نسوني وأهملوني!

قلت لها: يا ابنتي إنني كنت محرراً في جريدة الأهرام سبع سنوات. وكنت في سنك تماماً، ولم آخذ علاوة واحدة طوال هذه السنين! ولم أكن محرراً مهملاً، بل كنت أكتب كل ليلة في مكتبي حتى الساعة الثالثة صباحاً! ولم أغضب ولم أحتج ولم أهدد ولم أتوعد.. ولم أطلب علاوة!

الموظف الناجح لا يطلب علاوة، وإنما يطلب عملاً أكثر! لا يحتج على قلة المرتب، وإنما يحتج على قلة العمل.



قالت لي: الدنيا تغيرت. نحن الآن في عصر السرعة!

قلت: في أيامنا كانت الطائرات، وفي أيامكم ستكون الصواريخ، ولكن سرعة التقدم في الحياة لم تتغير. لا يزال التقدم يطلب العمل الشاق والاستمرار والجهد والصبر والتفاني. الذين يصعدون إلى القمة في المصاعد الكهربائية يلقى بهم من فوق القمة إلى السفح. لا تصدقي الذين يقولون أن من الممكن أن شاباً يستطيع أن يصبح مدير بنك في شهور! هذا العمل يحتاج إلى تجربة ودراسة وعلم وبحث وشخصية ومران، يحتاج إلى إنسان يعطي حياته كلها لعمله. ولقد عرفت شاباً مصرياً كان يعمل ساعياً في بنك أمريكي، وفي خلال عشر سنوات أصبح نائب رئيس مجلس إدارة البنك، وقال لي أنه في خلال هذه السنوات لم يذهب مرة واحدة إلى السينما، ولم يشهد مسرحية ولم يمض ليلة حمراء!

وعندما سألته: وماذا فعلت مع زوجتك؟

قال: لم أجد وقتاً لأفكر في الزواج! الطريقة الوحيدة لكي أتزوج أن تجيء فتاة عربية إلى البنك وتفتح حساباً!. فإذا أعجبتني الفتاة تزوجتها؟ قلت: تريد أن تعرف أولاً رصيدها في البنك!

قال: أريد أن أعرف أولاً هل تستطيع أن تبقى عشر سنوات بدون أن تذهب إلى السينما!

وفهمت من هذا أنه يريد أن يصبح رئيس مجلس إدارة البنك!

علي أمين..

كان الشبه عجيباً بيني وبين أخي التوأم علي أمين!

كان صوتنا متشابهاً حتى أن أمي كانت تخطىء في معرفة أينا يحادثها في التليفون!

وكان مدرسونا يخطئون في معرفة الواحد منا من الآخر، وكم من المرات ضربوا أخي لذنوب ارتكبتها أنا!

وكان الواحد منا يذهب إلى الترزي على انفراد ويختار نفس لون القماش الذي اختاره أخوه.

وكان هذا يسبب حرجاً لنا عندما نرتدي ثياباً بلون واحد ونسير في الشارع معاً، فقد كان منظرنا العجيب يثير فضول المارة، فيقفون ويتفرجون على التوأمين المتشابهين! ولهذا كنت قبل أن أخرج أسأل أخي أي بذلة سيرتدي اليوم فإذا اختار البذلة السوداء اخترت البذلة الرمادي، وإذا اختار اللون الرمادي اخترت البذلة السوداء!

وكان إذا بدأ يكتب مقالاً أستطيع أن أتمه، دون أن أسأله ماذا كان يريد أن يقول، وكان هو يفعل نفس الشيء!

وكنت أحياناً أسافر بجواز سفره، وكان هذا يفيدني كثيراً في عملي، فقد كان علي مهندساً موظفاً في الحكومة، وكنت أنا صحفياً،

وكان يحدث كثيراً أن يصدر قرار بمنع الصحفيين من السفر، فأسافر بجواز سفر أخي المهندس!

وحدث ونحن أولاد صغار أن أحببنا ابنة الجيران! وكانت ابنة الجيران تظن أنني وعلي شخص واحد، وكنا نحن نظنها أختين متشابهتين مثلنا!

وكنا نحلق ذقنينا عند حلاق واحد! ندفع له عشرين قرشاً في الشهر على أساس أننا فرد واحد! وكان أخي يذهب في الصباح ويحلق ذقنه، وأذهب أنا في المساء وأحلق ذقني، وكان الحلاق الطيب يتصور أنني شاب ينبت شعر لحيته بسرعة غريبة لم ير مثلها في حياته! وضبطنا الحلاق عندما ذهب أخي في الصباح ليحلق ذقنه، بعد أن كنت أنا حلقتها بعشر دقائق!

وكثيراً ما كنت أنظر في المرآة فأتصور أنني أرى صورة أخي!.. وعندما أقلب صوري وصوره أستطيع بصعوبة أن أعرف أين أنا وأين علي أمين!

وكان علي أمين أكبر مني بخمس دقائق!

وكنت أعامله كأنه ابني!

لا أصدق أنه مضى على وفاة علي أمين ثلاث سنوات!

هل تعرفين من أنا؟

كان عدد من العملاء يقف أمام شباك البنك.

وجاءت سيدة تزاحم الواقفين والواقفات، ثم تقدمت بشيك إلى صرافة البنك تطلب صرفه.

وقالت الصرافة: انتظري دورك يا مدام!

وصرخت السيدة: أنتظر دوري؟ ألا تعرفين من أنا؟ أنا فلانة زوجة فلان.

وذكرت السيدة اسم شخصية كبيرة كانت تشارك في حكم البلد في وقت من الأوقات!

وقالت لها الصرافة: لو كنت زوجة رئيس الجمهورية يجب أن تنتظري دورك.

وخرجت السيدة من المصرف غاضبة ساخطة وهي تقول بلد ليس فيه أخلاق!

الواقع أن البلد الذي ليس فيه أخلاق هو الذي لا يحترم الأسبقية في صرف الشيك!

الذي يجعل الساعي ينتظر الساعات ليخدم الوزير في دقائق. الذي لا يعرف فيه الناس أن كل الناس يتساوون أمام شباك تذاكر السينما أو شباك تذاكر السكك الحديدية أو شباك صراف البنك!

لقد رأيت ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا واقفاً في الصف أمام دار سينما في لندن. وعندما رآه من يسبقونه في الصف فتحوا له الطريق ليتقدم إلى الصف الأول. ولكن تشرشل رفض هذه المجاملة، وأصر أن يقف في الصف ينتظر دوره! وهذا الموقف لم ينل من هيبة تشرشل، بل رفع من قيمته أمام مواطنيه الذين رأوا أن رئيس وزراء بريطانيا يعرف آداب الطابور!

ولقد خدم تشرشل بلاده، وأنقذها من هزيمة محققة في الحرب العالمية الثانية، وله الفضل الأول في الانتصار على هتلر... ولكن كل هذا لم يعطه الحق في أن يتقدم طابور الواقفين أمام شباك تذاكر السينما!

وليس من الوفاء أن أدوس القانون مجاملة لعظيم أو لزوجة عظيم ولا هو أن أجعل زوجة رجل مشهور تجيء إلى محل الجزار متأخرة فأعطيها الحق أن تسبق زوجة العامل التي مضى عليها نصف ساعة تنتظر دورها في الطابور! الوفاء للمبادىء يجب أن يسبق الوفاء للأشخاص.. ولو كانت زوجة المسؤول السابق تريد أن تكرم زوجها حقيقة وتحافظ على اسمه ومكانته لشكرت الآنسة الصرافة لأنها رفضت أن تدوس على حق زوجة عامل من أجل أن تجامل زوجة أحد الذين اشتركوا في حكم مصر في وقت من الأوقات!

كانوا يقولون أنها مغفلة..!

كل الناس كانوا يقولون عنها أنها مغفلة!

الذين يحبونها كانوا يقولون أنها ساذجة!

والذين لا يحبونها كانوا يقولون أنها عبيطة!

إذا أساء إليها إنسان لا ترد الإساءة، وإنما تقول «سامحه الله..»! وإذا أغضبها إنسان ابتسمت وكأنها تشكره! وإذا سرقها لص لا تثور، بل تقول «مسكين! ربما كان محتاجاً لهذا المال الذي سرقه»!

وكان الذين يعرفونها يتوقعون لها أنها ستموت من الجوع.. لقد ورثت عن أبيها قطعة أرض، وأعطتها لابن عمها ليديرها، فأكل «ابن العم» الإيراد، ونصحها أقاربها أن ترفع دعوى على ابن عمها أمام المحاكم فرفضت وقالت «عيب أن أقول عن ابن عمي أنه حرامي»!

وكان لديها مال في البنك وكانت إذا سمعت عن مأزوم أنجدته، أو عن مريض أسعفته، أو عن فقير منحته بعض المال!

وكانت تقرض المحتاجين نقوداً ولا تستردها.

وكانت كل صديقة لها ترثي لها، وتقول ماذا ستفعل هذه السيدة التي تبلغ الأربعين من عمرها إذا امتد بها العمر، واحتاجت إلى الطعام فلا تجد ثمن الطعام، واحتاجت إلى الدواء فعجزت عن شراء الدواء!

وكانوا يقولون أنها مجنونة، لا تعرف أنه يجب على كل إنسان أن يحسب حساب اليوم الأسود ليقتصد من أجله القرش الأبيض!

ولكن هذه السيدة العجيبة رفضت أن تستمع إلى نصائح الصديقات المحبات المشفقات على هذه السيدة العبيطة!

وكانت تملك قطعة أرض فضاء، وأرادت من عشرين عاماً أن تبيعها، ثم علمت أن سيدة فقيرة أقامت في الأرض كوخاً من الخشب تسكن فيه، ورفضت السيدة أن تبيع هذه الأرض إكراماً لهذه السيدة البائسة المريضة.. ومرت عشرون سنة، وماتت ساكنة الكوخ، وفوجئت السيدة العبيطة بأن قطعة الأرض ارتفع ثمنها في العشرين سنة وأصبح مليون جنيه!

وقال بعض الناس أنها لم تكن عبيطة.. وإنما كانت أذكى من كل صديقاتها اللاتي احتفظن بالقرش الأبيض لينفع في اليوم الأسود!

وقال أناس آخرون أن الخير يدر مالاً، وأن العمل الطيب يربح أضعاف ما تربحه الأموال في البنوك!

كان أفقر الوزراء
ويتصرف كأنه أغنى الوزراء!

كان الدكتور علي الجريتلي وزيراً للمالية في وزارة الرئيس جمال عبد الناصر، وكان وزيراً شاباً معروفاً بشجاعته وصراحته.

وذات يوم اختلف علي الجريتلي مع الرئيس جمال عبد الناصر فكتب استقالته من الوزارة وأرسلها إلى رئيس الوزراء.

وذهب الوزراء يرجون وزير المالية أن يعدل عن استقالته فرفض أن يتزحزح عن موقفه وأصر على الاستقالة.

واتصل بي الرئيس جمال عبد الناصر تليفونياً وقال لي إن إصرار الدكتور علي الجريتلي على الاستقالة يؤكد أنه غني جداً، وليس في حاجة إلى مرتب الوزير..

قلت للرئيس: الذي أعرفه أن علي الجريتلي لا يملك شيئاً على الإطلاق!

قال الرئيس مستحيل أن يترك هذا المنصب إلا إذا كان غنياً جداً.. وعلى كل فقد كلفت المخابرات أن تبحث عن ثروته ورصيده في البنوك!

وبعد أيام قال لي الرئيس جمال عبد الناصر أنه تلقى تقارير المخابرات، وأنه فوجىء أن كل رصيد علي الجريتلي في البنك هو أربعة

وثلاثون جنيهاً فقط لا غير!

ولكن الجريتلي عندما استقال من منصب وزير المالية لم يفكر كيف سيعيش، ولم يفكر أن معنى ذلك أن يجوع أولاده.. ولكنه استجاب لصوت ضميره فقرر الاستقالة أو كما قال يومها «لا يهمني لو أدت بي هذه الاستقالة إلى السجن»!

وعاش الجريتلي بضعة شهور في فقر مدقع، إلى أن اختارته الأمم المتحدة خبيراً في الأردن، ثم في باكستان، ثم في أندونيسيا، ثم رأس بنك اسكندرية.

وعرض الرئيس جمال عبد الناصر على الدكتور الجريتلي منصب نائب رئيس الوزراء ولكنه رفض!

ولم يخسر علي الجريتلي لأنه قال «لا». بل انه كسب كثيراً، وكسب احترام جمال عبد الناصر، حتى أنه كان في كل تغيير وزاري كان يفكر دائماً في أن يسند منصب وزير المالية لعلي الجريتلي.. الوزير الذي فضل الجوع ليقول «لا»..

ورفض منصب أكبر وزير في الوزارة وهو لا يملك إلاَّ ٣٤ جنيهاً!

كل شيء تمام .. يا أفندم!

قلت له: صديق الحاكم الحقيقي هو من يصارحه، لا من يسايره!

قال: إنني إذا صارحته خسرته، وإذا سايرته كسبته!

قلت له هذا هو الفرق بين الصديق والتاجر! صديقي ينبهني إلى أخطائي، وعدوي يتستر عليها لتتضاعف وتتزيد. ولو أنك واجهته بالخطأ الأول لما ارتكب الجريمة الأخيرة!

قال إنني أحب الحاكم ولا أريد أن أشقيه بالحقائق، وأفضل أن أسعده بالأكاذيب. أقول له أنه محبوب وأنا أعرف أنه مكروه. أؤكد له أنه عبقري وأنا أعرف عنه أنه جاهل. أوهمه أن دولته أكبر دولة في العالم وأنا أعلم أنها أصغر دولة على الخريطة! فأنا إذا أرضيته فتح لي قلبه، ودخلت فيه بآرائي وأفكاري ومشروعاتي وأعمالي، وصفقاتي وخصوماتي... أما إذا أغضبته بذكر مساوىء حكمه أو متاعب رعيته فسوف أنكد عليه حياته، والحاكم بشر لا يحب أن يرى الذين يحملون له أنباء السوء، فهو يتشاءم منهم كأنهم غربان أو طيور شؤم، يهرب من رؤيتهم، وينزعج من لقائهم...

قلت له: إنك واحد من الذين يقال لهم «رجل الصفقة الواحدة»! أنت لا تعلم أن هذا النوع من الصداقة يضعف الحاكم وينهي حكمه ويقضي عليه!

كل الذين فقدوا عروشهم فقدوها لأنهم قربوا إليهم المتزلفين

والمنافقين وكلاب السلطة. وهؤلاء حقنوا الحكام بأفيون النفاق فغابوا عن الوعي، وفتحوا عيونهم بعد ذلك ليجدوا أن كل شيء ضاع منهم لأنهم زهدوا في الحقيقة وأدمنوا على الأكاذيب. تصوروا أن صوت الحاشية المضللة هو صوت الشعب، وعندما زأر الشعب تحولت الحاشية إلى فئران تغادر السفينة قبل أن تغرق!

لقد قال الشاه لأحد السفراء الأجانب في المغرب:

– إن الخميني ليس هو الذي أشعل ثورة إيران، الذي أشعل الثورة هم وزرائي وأفراد حاشيتي، الذين كذبوا علي وخدعوني طوال هذه السنين، وتصوروا أنهم يتملقونني عندما يخفون عني الحقيقة، ولكنهم هم الذين مهدوا الطريق للخميني!.. لقد كان الطريق مفروشاً بتقاريرهم الكاذبة التي تؤكد أن «كل شيء تمام يا أفندم»!

لو كان شاه إيران فتح النوافذ لرأى كل شيء ولكنه أغلق النوافذ فلم ير شيئاً!

النوافذ هي حرية الصحافة!

القانون ليس وحده الحمار!

تولى رئيس مجلس الإدارة الجديد منصبه في الشركة الكبيرة.

وفي اليوم التالي جمع الموظفين في اجتماع هام، ووقف فيهم خطيباً.

هل معقول أن شركة ضخمة كهذه الشركة لا يكون فيها إدارة قانونية لتدافع في المحاكم عن مصالح الشركة، وتبحث عقودها، وتدرس قضاياها، وتفتي في مشاكلها!؟

وأصدر رئيس مجلس الإدارة الجديد قراراً بإنشاء إدارة قانونية ضخمة، تليق بمقام الشركة العظيم، وجاء بأحد كبار المحامين وعينه مديراً عاماً للإدارة القانونية، وجاء بمحام آخر وعينه نائباً لمدير الإدارة القانونية، وجاء بمحام ثالث وعينه سكرتيراً عاماً للإدارة القانونية!

وعين للإدارة القانونية عشرة محامين، وعشرين كاتباً، وعشرين سكرتيراً، واستأجر لها مكاتب فخمة في طابق في إحدى العمارات!

وكلما جاء زائر للشركة صحبه معه إلى الإدارة القانونية ليرى آخر ما وصل إليه فن الإدارة الحديث! ولم يصدق الرأي الذي يقول: أن أرخص تسوية للخلافات هي التي تجري بعيداً عن المحاكم! وأصبحت كل ورقة تمر على الإدارة القانونية! كل موظف في الشركة يكتفي بأن يكتب على أي ورقة «ما رأي الإدارة القانونية»! كل عقد يحال على الإدارة القانونية! كل قرار بتعيين موظف يحال على الإدارة القانونية!

واتسع نفوذ الإدارة القانونية، واستأجرت مكاتب جديدة، وعينت عشرة محامين جدد وعشرين كاتباً جديداً، وعشرين سكرتيراً جديداً!

وتكومت الأوراق في الإدارة القانونية! وتوقفت الأعمال، وتعطلت المشروعات، وتعثرت الانشاءات!

وبعد أن كانت الشركة تكسب مئات الألوف أصبحت تخسر مئات الألوف، وبعد أن كانت الأعمال تسير فيها بسرعة الصاروخ أصبحت تتهادى بسرعة السلحفاة! وبعد أن كنت تدخل إلى مكاتب الشركة فتجدها أشبه بخلية النحل توقف كل شيء وتعطل كل شيء وتأجل كل شيء!

وأصبح نشاط الشركة واضحاً في المحاكم... يتردد اسمها باستمرار في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف ومحاكم النقض والإبرام!

كلما وقع خلاف بينها وبين عميل لجأت إلى القضاء، حتى أصبحت الإدارة القانونية أكثر إدارات الشركة إنتاجاً وعملاً!

ولم يهتم رئيس مجلس إدارة الشركة العبقري بانهيار الشركة، ولا بنقص إيراداتها، ولا بزيادة خسائرها!

كان يقول أن القانون حمار!!

ويظهر أن القانون ليس وحده هو الحمار!

إن رئيس مجلس الإدارة هو القانون، والقانون هو رئيس مجلس الإدارة!

صحف الإثارة!

سألني صاحبي ما معنى صحف الإثارة؟

قلت له: إنها الصحف التي تثير أعصاب الحكام. تقول ما لا يرضيهم. تكتب ما لا يعجبهم. تسلط الأضواء على ما يريدون أن يبقى خافياً في الظلام. تظهر الأقزام في حجمهم الطبيعي. تنشر مظالم الناس. تواجه الظالمين وتتحدى المستبدين.

هي صحف قليلة الأدب. ترفع صوتها في حضرة الطغاة. تزأر بمطالب الشعب ولا تهمس باسترحاماته. تدافع عن الضعفاء ولا تبرر جرائم الأقوياء.

تخاف الله ولا تخاف الحكام والناس العظام!

هي صحف تحدث ضوضاء. توقظ النائمين. تحرك الغافلين. وتهز عروش المتجبرين، وتسترد للمسحوقين حقوقهم المهضومة.

وفريق من الحكام لا تعجبه إلاّ الصحف «المستأنسة». التي تسير في المواكب. تدق الطبول، وتنفخ المزامير، وتطلق الزغاريد، وتوزع البخور، وتفرش الأرض بالرمل الأصفر تحية للقادمين والذاهبين!

والصحف المستأنسة لا تثير الأعصاب كصحف الإثارة، بل هي تخدر الأعصاب، وتريح المتعبين، فكل كلمة يقولها الحكام «حكمة»، وكل مشروع يضعه الحكام هو «وحي وإلهام». وكل خطأ يرتكبه الحكام

هو عبقرية سوف تشهد لها الأجيال القادمة. وكل جهل ينطق به الحكام هو آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا!

وفي قصور السلاطين كان يوجد نوع من الناس اسمه الأغوات، وهم جماعة من الرقيق السود، يقطعون أجهزتهم التناسلية، ويطلقونهم في حريم السلاطين، مطمئنين أن لا خوف منهم على حريم السلطان!

والصحفيون المستأنسون هم هذا النوع من الأغوات البيض، ينطلقون في حريم الحكم، لا يخيفون، ولا خوف منهم على جارية أو على سلطانة!

وهم جماعة من الناس انتزعت أظافرهم فلا يخربشون، وانتزعت أسنانهم فلا يعضون، وانتزعت ضمائرهم فلا يثورون ولا يغضبون!

وهم تلامذة في حصة إملاء! يمليهم الحاكم ما يريد أن يقول، فيكتبون دون أن يراجعوه أو يناقشوه، ودون أن يجرؤوا على تنبيهه أنه أخطأ في نصب المبتدأ، وفي رفع خبر كان.. فالحاكم لا يخطىء حتى ولو داس بقدميه على عنق سيبويه ونفطويه.. وأبو الأسود الدؤلي!

الصبر مفتاح الفرج

قلت للشاب الذي يبحث عن وظيفة أن الصبر مفتاح الفرج!

وعاد الشاب بعد شهر وقال أن مفتاحي لم يفتح الباب المغلق!

قلت له: وماذا فعلت؟

قال: تقدمت بطلب إلى شركة بيع المصنوعات فلم ترد علي!

قلت: شركة واحدة؟

قال: نعم!

قلت: إن معنى الصبر أن تتقدم إلى مائة شركة وأن تطرق كل باب. أن تدق على كل شباك. ليس معنى الصبر أن تجلس في بيتك وتنتظر شهراً حتى يدق ساعي البريد باب بيتك ويسلمك خطاب التعيين!

قال الشاب: ولكنك أوصيتني بالصبر!

قلت الصبر كما أفهمه أن تكافح، وتحاول، وتستمر، وتصر، ولا تتوقف أبداً!

الصبر ليس صفة القاعدين ولا الكسالى ولا المنتظرين.. الصبر هو جرأة واندفاع وانطلاق مع الاستمرار. فالمقصود بالصبر أن تستمر لا أن تتوقف، وأن تداوم الطرق على الأبواب لا أن تجلس أمامها حتى تفتح لك على مصراعيها!

أذكر عندما كان عمري ١٤ سنة أن بدأت أبحث عن عمل في

الصحافة. قابلت عبد القادر حمزة صاحب البلاغ فرفضني. قابلت أحمد حافظ عوض صاحب كوكب الشرق فسخر مني. قابلت الدكتور فارس نمر صاحب المقطم فهرب مني. قابلت داود بركات رئيس تحرير الأهرام فاستمهلني عشر سنوات حتى أحصل على شهادة عالية!

قابلت اسكندر مكاريوس صاحب مجلة اللطائف فأجلسني مع البواب ثلاثة أيام ثم رفض مقابلتي! ومع ذلك لم أيأس. الضربات لم توقعني على الأرض وإنما دفعتني إلى الأمام. الأبواب المغلقة لم تغلق في وجهي أبواب السماء بل شجعتني على أن أحاول من جديد. كان معنى الصبر عندي ألا أيأس. أن أبذل جهداً. أن أبحث عن ثقب أنفذ منه إلى صاحبة الجلالة الصحافة! ولم أجد الثقوب التي أدخل منها. حفرت بأظافري ثقباً صغيراً. وعملت ثلاث سنوات باسم مستعار وبلا مرتب. وكان هذا هو بعض صبري!

ثم دخلت من ثقب الباب، وأصبحت صحفياً صغيراً جداً! قبلت كل عمل أسندوه إلي. إذا غاب سائق سيارة السيدة روز اليوسف قدت السيارة بدلاً منه! إذا مرض مصحح المجلة سهرت الليل كله أصحح البروفات! إذا سافر بواب المجلة إلى قريته في الصعيد جلست مكانه أستقبل زائري الجريدة! لم أتعال على أي عمل! لم أتأفف من أن أؤدي عمل الذين يكبرونني سناً، أكتب أنا وهم يوقعون بإمضاءاتهم على مقالاتي. لا أشكو ولا أتململ، ولا أضيق بأنهم يدوسونني ولم أطالب بمكتب لي! كنت أقدم مكتبي لأي محرر! وكانت نتيجة هذا الصبر أن أصبحت فجأة نائب رئيس تحرير مجلة روز اليوسف وعمري ١٧ سنة! هذا هو ما أقصده بالصبر يا بني!

وخرج الشاب من مكتبي ولم يعد أبداً!

بدأ من الصفر ثلاث مرات!

عندما قرر طلعت حرب إنشاء شركة مصر للتأمين اختار الدكتور حافظ عفيفي باشا سفير مصر في لندن رئيساً لمجلس إدارتها!

وكان حافظ عفيفي طبيب أطفال، ثم أصبح سياسياً، ثم أصبح صحفياً، ثم أصبح وزيراً للخارجية ثم أصبح سفيراً. ولم يكن يعرف شيئاً في شؤون التأمين، ولكنه امتاز بأنه رجل يستطيع أن يدرس كل مهنة ويتفوق فيها!

واختار حافظ عفيفي شاباً صغيراً خريج كلية التجارة، وكلفه أن يكون هو مدير حسابات الشركة، ومديرها المالي، ومجلس إدارتها، وجمعيتها العمومية والكاتب الوحيد على الآلة الكاتبة فيها! وكان الشاب أحمد عنان يقوم بكل هذه المناصب! يستقبل الزبائن ويحرر العقود ويكتب التقارير، كان الساعي والفراش والسكرتير والذي يحمل رسائل الشركة إلى صندوق البريد!

وأصبحت شركة مصر للتأمين أكبر شركات التأمين في الشرق الأوسط، وأصبحت تملك عشرات العمارات الضخمة، وتبني أكبر عمارات مصر، وأصبح أحمد عنان هذا أكبر خبير للتأمين في مصر! واختارته أخبار اليوم أول مدير عام لها بجانب عمله في شركة مصر للتأمين! وأصبح الشاب الصغير خبيراً عالمياً في التأمين. ثم جاء وقت على مصر رأت الاستغناء عن العمالقة والاستعانة بالأقزام!

وجد أحمد عنان نفسه في الشارع!

وسافر إلى ليبيا وبدأ من جديد! بدأ كما فعل وهو شاب صغير. لم يتردد أن يقوم بأصغر الأعمال، وأنشأ شركة ضخمة للتأمين في ليبيا! وعاد أحمد عنان عملاقاً كما كان. ثم تغيرت الأحوال!

وترك ليبيا. . وذهب إلى السعودية، وبدأ من الصفر، وأنشأ شركة تأمين امتدت أعمالها إلى أنحاء العالم. . . وعاد عملاقاً من جديد!

ثلاث مرات يبدأ من الصفر! كلما وقع على الأرض وقف، وكلما وجد نفسه في الشارع بلا عمل وبلا مال بدأ من جديد، لم يحدث في يوم من الأيام أن قال يكفي ما فعلت! لم يغضب على الذين انتزعوا منه نجاحه.

كان يرد على المطرقة التي هوت على رأسه، بأن يمسح الدم من على رأسه، وينظف التراب من على بنطلونه. . ويبدأ في إنشاء ناطحة سحاب بدل التي دمرتها المطرقة الهائلة!

المؤمنون بقدسية العمل لا يبقون طويلاً ساقطين على الأرض!

إنهم مثل الكرة الكاوتشوك، كلما دفعتها إلى الأرض ارتفعت إلى فوق!

الوزير الذي مات وهو على قيد الحياة!!

الوزير الصغير هو الذي يسعى أن تنشر صورته في الجريدة كل يوم، فإذا خلت الجريدة ذات يوم من صورته البهية أقام الدنيا وأقعدها، واتهم صاحب الجريدة ورئيس التحرير والمحررين والعمال بالتآمر عليه!

وهو الذي يحرص على أن يدلي بتصريحات في المسائل التافهة، ويتوهم أن تصريحاته الساذجة ستهز العالم، ويعجب من سطحية محطات الإذاعة والتليفزيون لأنها لم تبدأ نشراتها بتصريحه الخطير!

وهو الذي لا يعمل شيئاً، ويعتقد أن الأعمال بعدد السطور، فإذا كتبت عنه الصحف مائة سطر فهذا يخلده أكثر مما لو بنت وزارته عمارة من مائة طابق يسكن فيها الذين لا يجدون مأوى لهم. . . ويعتقد أنه لو كتب اسمه في مانشيت جريدة فهذا سيدخله التاريخ إلى جوار نابليون بونابرت والإسكندر الأكبر وتوت عنخ آمون!

أذكر أن وزيراً من هؤلاء الصغار استدعاه رئيس بلاده ووبخه أن وزارته لا تنتج. ولم تقم بأي مشروع. لم تبدأ أي إصلاح. وإذا بالوزير يقول إن الصحف هي السبب! إنها تقاطعه! ولو أنها كتبت عنه وأشادت به لأحس الناس بأعماله الجليلة التي يجب أن تسير بها الركبان!

واتصل رئيس بلاده بأحد أصدقائه من رؤساء التحرير وقال له:

ـ لماذا لا تكتبون عن الوزير فلان!

قال رئيس التحرير: لأنه لم يفعل أي شيء في وزارته!

قال رئيس الدولة: وما هي الطريقة لكي تكتب الصحف عنه.

قال رئيس التحرير: الطريقة الوحيدة أن يموت.. وعندئذ سننشر صورته واسمه في الصفحة الأولى!

ومضت الأيام... ولم تنشر الجريدة اسم الوزير الصغير رغم احتجاجه، وبعد شهور خرج في أول تعديل وزاري...

ولم تهتم الصحف بنبأ خروجه، كما لم تهتم بنبأ دخوله الوزارة.. فإن الأصفار لا يشعر بها الناس حتى لو جلست في مقاعد الوزراء ثم حدث أن توفي الوزير السابق..

ولم تنشر جريدة واحدة نبأ وفاة الوزير السابق في الصفحة الأولى!

كلها نشرت النبأ في صفحة الوفيات!

وكان النبأ إعلاناً بالأجر!

بعض الناس يموتون وهم على قيد الحياة...

حتى وهم وزراء!

أنفها كبير!..

كان للأب ثلاث بنات، تعلمن في الجامعة، وحرص أن يزوجهن من شباب من أسر كبيرة..

تزوجت الأولى شاباً أصبح وكيل وزارة!

وتزوجت الثانية رجلاً يتولى إدارة مصلحة كبيرة..

وبقيت الثالثة لا تتزوج!

وكان عيبها أن أنفها كبير.. وكلما علم شاب بأمر أنفها الكبير الذي يحتل نصف وجهها تقريباً فزع، ولم يعد!

والتحقت الفتاة بأحد البنوك الأجنبية وحصلت على مرتب كبير. ولكنها لم تكن تنفق منه مليماً واحداً، واقتصدت مبلغاً كبيراً، ثم سافرت إلى باريس وأجرت جراحة تجميل عند طبيب عالمي هناك..

واختفى الأنف الكبير الذي كان يشبه ثمرة الكمثري، ليحل محله أنف صغير دقيق يشبه النبقة أو الكرزة!

وتحولت الفتاة القبيحة إلى ملكة جمال! فيها شبه عجيب بممثلة السينما الإيطالية صوفيا لورين..

وأبرقت إلى أسرتها بموعد وصولها.. وذهبت الأسرة إلى المطار تستقبل ابنتها التي أخفت عنها إجراء جراحة تجميل في باريس، بل ادعت أنها سافرت إلى فرنسا لتمضي إجازتها السنوية على حساب البنك!

ونزلت صوفيا لورين الجديدة من الطائرة فلم يعرفها أحد من أفراد أسرتها. لا أبوها ولا أمها ولا أختها!

وعندما قدمت الأخت نفسها لأسرتها ذهلت الأسرة من هذا التغيير المذهل العجيب..

وبدأ الشباب يتزاحمون على باب أبيها يطلبون يدها!

وإذا بالفتاة ترفض كل الذين تراجعوا عن خطبتها عندما رأوا أنفها الكبير.

وقالت إن الذي رفضني وأنا قبيحة الوجه.. أرفضه وأنا ملكة جمال!

واختارت الفتاة شاباً من زملائها في البنك أحبها عندما كان أنفها مثل الكمثري!

وقالت لي: إن الجمال يذبل! من يضمن لي أن يبقى الزوج الذي تقدم لخطبتي بعد أن أصبحت ملكة جمال! إن الزمن يفعل في وجه المرأة عكس ما يفعله طبيب التجميل!!

العظيم الواحد!

توجد في حياتنا أماكن شاغرة كثيرة. مقاعد كبيرة لم يملأها أحد. حاول أقزام كثيرون أن يجلسوا في مقاعد العمالقة، وبقيت المقاعد خالية حتى وهم يشغلونها!

هل معقول أن تمضي عشرات السنين على وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي، ولا يزال مقعده خالياً! في حياته كان ينافسه حافظ ابراهيم وخليل مطران، وبعد أن مات شوقي الذي قيل أنه يحجب الشعراء لم يظهر شاعر كبير بهذا الحجم، وبهذا البيان وبهذا التأثير!

ومضت سنوات على وفاة عباس العقاد وطه حسين، ولم يتقدم أحد ليخلفهما. ولم يفكر أحد من الأدباء أن يكون طه حسين الجديد أو عباس العقاد الجديد. ولا يمكن تعيين أديب كبير بمرسوم ملكي أو قرار جمهوري، وإنما هو يصعد إلى مكانته فوق هرم من كتب ألفها ومقالات كتبها وأبحاث وضعها ومواقف صمد فيها. فالعقاد ليس شعره فقط ولا أدبه فقط ولا علمه فقط، وإنما قبل كل هذا صراعه من أجل الحرية والديموقراطية والاستقلال. ولولا المطارق التي هوت على رأس طه حسين تصادر رأيه وتقيد فكره وتخرس صوته لما وجدنا أمامنا طه حسين الذي دخل التاريخ!

ومضت سنوات على وفاة أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، وكان يقال لنا أن شمس أم كلثوم هي التي حجبت كل نجوم

الغناء، وغابت الشمس وانتشر الظلام! لم نر مغنية واحدة سطعت بعد أم كلثوم ولم نر مطرباً واحداً برز بعد عبد الحليم وفريد الأطرش.

وقد ثبت مما شاهدناه أن وجود العمالقة يخلق عمالقة جدداً، واختفاء العمالقة ينهي عصور العمالقة ويبدأ عهد الأقزام!

مولد شاعر واحد كبير معناه مولد عصر من الشعراء الكبار، ومولد كاتب كبير معناه مولد عصر من الكتاب العظام، ومولد فنان عملاق هو إيذان بعصر الفنانين العمالقة. لم يحدث أبداً أن ظهر عبقري واحد فقط في عصر. فهو دائماً يفتح الطريق لكل أنواع وألوان من العبقرية..

وعندما نهدم عبقرياً واحداً لا نهدمه هو وحده، وإنما نهدم عصراً بأسره. إن ظهور هتلر هو الذي خلق عظمة تشرشل وضخامة روزفلت وقوة ستالين. وظهور نابليون هو الذي فجر كفاءة نلسون ودهاء مترنيخ. فليس في الدنيا شيء اسمه العظيم الواحد! عظيم واحد وحوله عدة أصفار يحول العظيم إلى صفر عظيم!

إن العظيم الواحد فوق قمة الجبل يموت من الوحدة!

مظلوم... تيتو!!

حذار أيها الشاب أن تحاول أن تتشبه بأبيك! إنك لن تكون مثل أبيك أبداً. أبوك خدمته ظروف لن تتكرر. والذي ولد منذ عشرين سنة لا يمكن أن يشبه الذي ولد من خمسين عاماً! منذ خمسين عاماً كانت الدنيا مختلفة عن هذه الدنيا التي تحياها اليوم. لو ارتديت نفس ملابسهم فسوف يسخر بك ناس هذه الأيام. لو فكرت تفكيرهم فسوف يسخرون منك. الأسباب التي كانت تؤدي إلى الثروة منذ خمسين سنة تؤدي إلى الإفلاس الآن... والوسائل التي كانت تتبع منذ نصف قرن وتؤدي بك إلى كرسي الوزارة ستؤدي بك اليوم إلى السجن!

وبعض الناس يحاولون التشبه بأحد عظماء التاريخ. كل الذين حاولوا أن يقلدوا نابليون بونابرت لم ينجحوا إلا أن يكونوا صورة مشوهة منه. الرجل العبقري لا يقلد. إنه أشبه بورقة بنكنوت من مائة دولار. ممكن أن تقلدها إذا كنت رساماً ماهراً، ولكن مهما كانت براعتك في الرسم فهي ورقة مزيفة... سوف يكتشف أمرها، فلا تساوي مليماً واحداً!

الطريق أن تكون أنت نفسك! كل هؤلاء العظماء الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه لم يقلدوا شخصاً أعظم منهم.. كان سعد زغلول في شبابه معجباً بالشيخ جمال الدين الأفغاني. ولكنه لم يطلق لحيته مثله، وخلع عباءة الأزهر وارتدى الملابس الافرنجية، واختط لنفسه طريقاً غير طريق جمال الدين. وكان مصطفى النحاس وهو تلميذ معجباً بعامل تلغراف في سمنود، وكانت أمنيته أن يكون عامل تلغراف مثله،

وفعلاً عمل في الإجازة الدراسية مساعداً لعامل التلغراف هذا. ثم شق طريقه بعد ذلك لنفسه فأصبح قاضياً ومناضلاً ومحامياً، وبعد أن خلف سعد زغلول رفض أن يقلده، وأصر أن تكون تصرفاته تختلف عن تصرفات سعد زغلول، وكان أول ما فعله أن تخلص من سكرتارية سعد، ومن رجاله المقربين.

وكان اسماعيل صدقي باشا معجباً بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، وكان ثروت يسمي صدقي تلميذه الوحيد. وقال لي صدقي باشا أنني خشيت أن أكون صورة من ثروت، فتعمدت أن أختلف عنه، وكلما واجهت أزمة قلت لنفسي ماذا كان يفعل ثروت إذا كان مكاني، وعندئذ أعمل شيئاً عكس ما كان يفعله ثروت تماماً! لأن ثروت كان في سنة ١٩٢٢ وأنا كنت في سنة ١٩٣٠، وثماني سنوات في سياسة بلد تساوي ألف سنة!

ولكن محمود فهمي النقراشي باشا كان على خلاف اسماعيل صدقي. وكان يقول في كل أزمة يقابلها ماذا كان يفعل سعد زغلول لو كان مكاني! وكان يفعل دائماً ما يعتقد أن سعد زغلول كان سيفعله لو كان على قيد الحياة!

وكان الرئيس جمال عبد الناصر معجباً بتيتو... وكان المصريون يتصورون أن تيتو هو الذي ينصح الرئيس عبد الناصر بكل إجراء عنيف يتخذه.. وكلما زار تيتو مصر كان المصريون يضعون أيديهم على قلوبهم!

وكانت الحقيقة أن هذه الإجراءات كانت دائماً مقررة قبل وصول تيتو إلى القاهرة.

وكان يتصادف دائماً أن تعلن بعد سفر تيتو من القاهرة! مظلوم تيتو!

الوزراء الفراشون!

عرفت بعض الوزراء الطراطير، يحملون لقب الوزير وليس لهم نفوذ الوزير ولا سلطات الوزير. يتظاهرون أمام الناس أنهم أسود، وهم في الحقيقة فيران. ينحنون للسلطان ويتجبرون على الشعب. عبيد في حضرة الملك وطغاة في مواجهة الرعية! عرفت منهم رئيس وزراء كان لا يخجل من أن يعترف أنه «طرطور». ولا يخجل من أن يقول للصحفيين أنه «عبد مأمور» لا يملك ولا يحكم، وإنما يؤمر فيطيع!

وكان هذا الرجل هو أحمد زيور باشا الذي رأس وزارة مصر في العشرينات، وقد أتى به الإنجليز والملك فؤاد لمقاومة سعد زغلول، فكانوا أشبه بمن يجيء بفأر صغير ليحارب عشرة أسود في أسد واحد!

وكان زيور «جريئاً» ولم يكن شجاعاً! وقبل الإنذار البريطاني الذي رفضه سعد زغلول بعد نقل السردار، وسلم السودان للإنجليز، وحل مجلس النواب بعد اجتماعه بسبع ساعات فكان أقصر البرلمانات عمراً في العالم! وكان فخوراً بأنه صاحب سياسة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» فلم يكن يرفض للإنجليز طلباً، ولم يعص للملك فؤاد أمراً. وكان صريحاً في استسلامه. وقد سأله الصحفيون يوماً ماذا تنوي الحكومة أن تفعل في مسألة حيوية فقال ببساطة «إسألوا الخواجة» والخواجه كان المندوب السامي البريطاني! ومن الطريف أنه عندما عهد إليه الملك فؤاد بتأليف الوزارة لأول مرة، لم يتركه الملك يختار وزراءه، بل كلف رئيس ديوانه

حسن نشأت باشا باختيار الوزراء، ودعاهم إلى مكتبه بقصر عابدين ليقابلوا رئيس الوزارة الجديد.

وجلس زيور باشا في مكتب نشأت باشا، ورأى رجلاً يدخل من الباب فناداه وقال له: هات فنجان قهوة سكر زيادة!

وتسمر الرجل في موقفه، ولم يتحرك، فصاح فيه رئيس الوزارة:

- ألا تعرف اللغة العربية؟ قلت لك هات فنجان قهوة سكر زيادة!

وقال الرجل:

- أنا لست فراشاً في القصر الملكي! أنا السيد باشا علي وزير الحربية الجديد.

وقام زيور باشا من مقعده معتذراً بضعف نظره! ولم يكن ضعيف النظر، بل كان يبدي رأيه وهو أن جميع الوزراء الجدد هم فراشون في القصر الملكي!

وفي سنة ١٩٤٣ في أثناء الحرب العالمية الثانية التقيت بأحمد زيور باشا في نادي محمد علي وسألته أن يدلي بحديث عن رأيه في الموقف السياسي.

فقال لي: لن تجرؤ على نشر حديثي!

فقلت: لا.. إنني سأنشر الحديث مهما كان.

قال: رأيي أن الملك إيطالي والحكومة إنجليزية والشعب ألماني!!

ولم أجرؤ طبعاً على نشر هذا الحديث!

قال أناتول فرانس!

كانت هوايته الكبرى أن يدعي أنه خبير بالثقافة الفرنسية. إذا نطق جملة باللغة العربية أضاف إليها كلمة فرنسية، وكثيراً ما كانت هذه الكلمة لا علاقة لها بالجملة على الإطلاق!

وكان حريصاً ألا يظهر عبقريته في اللغة الفرنسية إلا إذا كان سامعوه يجهلون الفرنسية، ولا يعرفون إذا كان الشانزليزيه شارعاً في باريس أو اسم أحد أعضاء الأكاديمية!

وكان أصدقاؤه يسخرون منه ويقولون إنه يقول «قال أناتول فرانس أن الناس خيبتها السبت والحد، وأنا خيبتي ما وردت على حد»! وأن فيكتور هيجو هو صاحب المثل الذي يقول «القرد في عين أمه غزال»! وأنه قابل في باريس منذ أيام السياسي الفرنسي المشهور كليمنصو، مع أن المعروف أنه مات منذ حوالي خمسين سنة!

ولكن «عطوة الفرنساوي» كان لا يهتم بسخريتنا به، ويهزئنا بمعلوماته عن فرنسا.

وذات يوم زار القاهرة صحفي فرنسي كبير، وأقمنا له مأدبة، ودعونا صديقنا عطوة الفرنساوي أن يلقي خطاباً باللغة الفرنسية يرحب بالصحفي الفرنسي الكبير!

ووقف عطوة الفرنساوي وخطب..

وفوجئنا بالصحفي الفرنسي الكبير يقول: كم تمنيت أن أعرف اللغة العربية لأفهم ما يقوله الأستاذ عطوة!

وأغرقنا في الضحك، فقد كان الأستاذ عطوة يخطب باللغة الفرنسية، أو بما يتصور أنه اللغة الفرنسية، بينما كان الصحفي الفرنسي يتصور أنه يخطب باللغة العربية!

وما كادت تنتهي المأدبة حتى أحطنا بصديقنا عطوة الفرنساوي نسخر منه، ونعبث به، ونهزأ بجهله التام باللغة الفرنسية، وقد أفهمنا أنه أستاذ في الأدب الفرنسي ودكتوراه في الشعر الفرنسي..

وإذا بعطوة يقول لنا بجرأة غريبة:

- لقد اكتشفت أن هذا الصحفي لا يعرف اللغة الفرنسية ولكن لم أشأ أن أفضحه لأنه ضيف عندنا!

ورجونا عطوة أفندي أن يدعي أنه خبير باللغة اليابانية، ووعدناه بألا ندعو أي صحفي ياباني إلى حفلة تكريم!

أمين الرافعي

الجريدة تستطيع أن ترفع حزباً، ولكن الحزب لا يستطيع أن يرفع جريدة! فالأقلام هي الأعمدة التي تقوم عليها الأحزاب في البلاد الديموقراطية، ولم يحدث مطلقاً أن استطاع حزب من الأحزاب أن يفرض كاتباً على الشعب! ولقد كان الحزب الوطني هو جريدة اللواء! فإن مصطفى كامل أنشأ اللواء أولاً وبعد ذلك التف قراء اللواء حول مصطفى كامل وأنشأوا الحزب الوطني! والشيخ علي يوسف أنشأ جريدة المؤيد، ونجح المؤيد نجاحاً ضخماً، فأنشأ علي يوسف حزب الإصلاح.. ولولا المؤيد لما وجد حزب الإصلاح عضواً واحداً!

وجريدة السياسة في مصر كانت هي كتابها، الدكتور محمد حسين هيكل وتوفيق دياب ومصطفى عبد الرازق وسيد كامل وعبد العزيز البشري. ومع أن حزب الأحرار الدستوريين كان دائماً حزب الأقلية إلا أن جريدته كانت من أقوى صحف مصر بسبب قوة الكتاب الذين يكتبون بها.

وقد رفض سعد زغلول أن تكون أي جريدة لسان حال الوفد، لأنه كان يرى أن الوفد هو الأمة كلها، ولهذا فيجب أن تصدر الصحف مستقلة عن الوفد، يملكها أصحابها، ولا يملكها الحزب، وهكذا لا يتقيد الحزب بما يصدر فيها من آراء.. وبذلك تكون الجريدة حرة في التعبير عن رأيها..

وقد كان أمين الرافعي صديقاً حميماً لسعد زغلول، واشترك في ثورة ١٩١٩ وكان يصدر جريدة «الأخبار» وكانت الجريدة تعتبر لساناً من ألسنة سعد زغلول. ثم حدث أن اختلف أمين الرافعي مع سعد زغلول في الرأي السياسي..

وكانت جريدة الأخبار قد وصلت في توزيعها أن أصبحت أوسع صحف مصر انتشاراً! كانت توزع في تلك الأيام حوالي الخمسين ألف نسخة!

ولم يصدر سعد زغلول قراراً بمقاطعة الجريدة.. كل ما فعله أن قال في إحدى خطبه «أنا لا أقرأ جريدة الأخبار»!

وفي اليوم الثاني هبط توزيع الأخبار من خمسين ألف نسخة إلى ثلاثة آلاف نسخة!

ولقد كان أمين الرافعي من أطهر الكتاب السياسيين الذين ظهروا في مصر، ومن أعفهم يداً، ومن أخلصهم في خدمة البلد، ومن أصدقهم وطنية وحباً لمصر..

ومع ذلك لم يغفر له الرأي العام أنه اختلف مع سعد زغلول! ولو بقي أمين الرافعي مع سعد لكان من أول المرشحين لخلافة سعد زغلول.

ولكنه فضل أن يقول رأيه ويموت!

كم يعيش الحب؟

سألتني الزوجة الصغيرة: كم يعيش الحب!!

قلت لها إن الحب لا عمر له! إنه قد يموت بعد أيام وقد يموت بعد سنوات طويلة!

قالت: ولكن القصص تتحدث عن حب إلى الأبد!

قلت لها: لا يوجد شيء اسمه الحب الأبدي! فالحب يتطور ويتغير. فهو يشبه الإنسان، يولد وينمو، ويصير طفلاً، ثم يصبح ولداً، ثم شاباً ثم يشيخ!

وليس معنى ذلك أن الحب يموت، فهو يعيش بأشكال مختلفة، من غرام مشبوب إلى انسجام كامل إلى صداقة وطيدة إلى تفاهم تام.

أما الحب الملتهب فلا يستمر ملتهباً إلى الأبد. فهو أشبه بالنار، والزمن، أشبه بسيارة المطافىء.. فهي تسلط خراطيمها على هذا الحب فينطفىء قليلاً قليلاً إلى أن يتحول إلى رماد! ولكن ليس معنى انطفاء اللهب أن ينطفىء الحب، بل كثيراً ما يتحول الحب الملتهب إلى شيء أقوى من الحب وهو ما نسميه بالانسجام الكامل.. عندما يشعر المحب أنه جزء لا يتجزأ من المحب الآخر، عندما تصبح مصلحتهما مشتركة، عندما تربطهما رابطة قوية لا انفصام لها كالأولاد مثلاً أو عندما يحبان الشيء الواحد ويكرهان الشيء الواحد. كل مكان يجمعهما فهو مكان رائع، كل طعام يأكلانه معاً هو طعام شهي. كل كلامهما معاً موسيقى.

أحلامهما واحدة ومتاعبهما واحدة. هذه علاقة أقوى من الحب، لأنها يمكن أن تعيش مائة سنة. تقوى ولا تضعف، تزداد شباباً ولا تشيخ أبداً.

إن من حسن حظ جوليت وروميو أنهما انتحرا في رواية شكسبير، وكذلك قيصر وكليوبترا، لو أن هذا الحب عاش بهذا العنف فصلاً آخر في المسرحيتين لتحول الحب إلى خناقة. لبدأنا نسمع خلافاً على مصاريف البيت، وعلى تأخر روميو عن موعد عودته المعتادة في المساء خمس دقائق، وعن مغازلة أنطونيو للخادمة أو تأخر كليوبترا في طهي الغداء!

الحب المشبوب الملتهب لا يمكن أن يبقى مشتعلاً إلى الأبد؟ هل رأيت يا ابنتي ناراً مشتعلة إلى الأبد! ربما كانت نار جهنم هي التي لا تنطفىء أبداً ولكن نار الحب كما تتصورينه تنخفض درجة حرارتها، لترتفع درجة حرارة نوع آخر من الحب الهادىء الذي يتميز بالعقل وبالفهم وبالاندماج النفسي!

قالت لي الزوجة الصغيرة: ولكن زوجي وعدني أنه سيحبني إلى الأبد!

قلت: اعلمي يا ابنتي أن الأبد قصير جداً!

هذه هي الديموقراطية!

الديموقراطية هي شعب يراقب، وبرلمان يحاسب، وصحافة تنتقد. والديكتاتورية هي شعب يهتف، وبرلمان يصفق، وصحافة ترقص!

الديكتاتورية هي زفة لا تنتهي وطبول لا تسكت، ومزامير لا تتوقف. والديموقراطية هي بحث ودرس وعلم وخبرة وحوار ومناقشات.

الديكتاتورية هي أقواس نصر تقام، وأعلام تخفق، وثريات تتدلى، والديموقراطية هي أسئلة واستجوابات ولجان تحقيق برلمانية ومبارزة أفكار تعلن على الشعب.

في الديموقراطية أيد تعمل وتبني وتنشىء وتكتب وتخطط. وفي الديكتاتورية الأيدي مشغولة بالتصفيق، والحناجر تدوي بالهتاف، والشوارع غاصة بالمظاهرات، والمكاتب مغطاة باللافتات. ولا وقت عند الحكام للتفكير، فإن أي رأي يموت في ضوضاء الطبول والزمور.

الحكم الديموقراطي يحتاج إلى علماء وخبراء ودارسين وباحثين، والحكم الديكتاتوري لا يحتاج إلا إلى قارعي طبول، وإلى منظمي مواكب، وإلى نافخي المزامير.

الحكم الديموقراطي فيه مقاعد لألوف القادة، ولألوف المفكرين، ولكن الحكم الديكتاتوري لا يحتاج إلا إلى رجل واحد. هو القائد

الأوحد والمفكر الأوحد. يبرز اسمه وتختفي كل الأسماء. تظهر صورته وتشحب كل الصور. هو الرقم وكل من حوله أصفار. هو العملاق وكل رجاله أقزام. هو اللسان وغيره أبكم لا يتكلم. هو الذي يرفع رأسه وينكس الباقون رؤوسهم. هو الحر الوحيد وكل شعبه من العبيد الأرقاء. هو الوطن، ومن يخالفه فقد خان الوطن، ومن يسكت على جرائمه فهو الوطني المخلص الصميم!

الحكم الديموقراطي جنة للشعب وجحيم للحكام. والحكم الديكتاتوري جنة للحكام وجحيم للشعب. الحاكم الديموقراطي يفكر قبل أن يقرر. والحاكم الديكتاتوري يقرر ثم يفكر. الحاكم الديموقراطي يستأذن الملايين ليعرف رأيها، والحاكم الديكتاتوري يفرض رأيه على الملايين. لا يهمه رضيت أم سخطت، فهو قادر أن يخرسها بالكرباج، وأن يضعها كلها في سجن كبير.

إن الحاكم الديكتاتوري أشبه بلص دخل بيتاً واغتصبه. يقيم فيه خائفاً واجفاً. يفزع من أي حركة. يتوجس من أي صوت. يتوقع في كل لحظة أن يقتحم الباب أصحاب البيت وينتزعوه من البيت المسروق.

أما الديموقراطي فهو يتعب الحاكم ولكنه يؤمن حياته، والحكم الديكتاتوري يريح اللصوص الذين حول الحاكم، ويجعل أيامه قلقاً وليله كابوساً وحياته على كف عفريت!

والعفريت هو الشعب!

القارىء الغاضب!

كنت خارجاً من مبنى الجريدة وتقدم رجل وصافحني، وصافحته وأنا أقول له «أهلاً وسهلاً» ثم مضيت في طريقي!

وبعد أيام تلقيت منه خطاباً يهاجمني، ويقول إنه فلاح في إحدى القرى النائية وقرأ ما أكتبه عن الديموقراطية وحق الشعب وصدقني للأسف الشديد، وأنه جاء إلى القاهرة ليجلس معي في مكتبي لمدة لا تزيد عن ساعة ونصف أو ساعتين، ليجاذبني أطراف الحديث، وليناقشني في بعض أفكاري.. ولكنه فوجىء بي أصافحه وأقول له «أهلاً وسهلاً» دون أن أدعوه ليدخل الجريدة، وأعود به إلى مكتبي، وأقدم له القهوة، ثم أناقشه فيما يريد! ويسأل القارىء الذي أحسن بي الظن أين هي الديموقراطية إذا كنت أقابله هذه المقابلة الجافة!

وجلست أحاكم نفسي! هل كان مطلوباً مني إذا رأيت رجلاً يصافحني في الطريق، أن أدعوه إلى مكتبي ليتناول الإفطار معي في وقت الإفطار، أو يتناول فنجان قهوة في وقت الظهيرة، أو يتناول طعام الغداء والعشاء في وقت الغداء والعشاء؟

متى يجد الصحفي لنفسه وقتاً ليعمل إذا كان واجباً عليه أن يدردش ساعتين مع كل قارىء!! وهل الديموقراطية أن أستقبل أي إنسان يطلب مقابلتي بغير موعد سابق، وأن أعطل كل أعمالي لكي «أدردش» معه وأتجاذب أطراف الحديث كما يقول؟

ألا يكفي أنني أتجاذب معه الحديث كل يوم؟ في ذلك اليوم الذي قابلني القارىء الغاضب كانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وكنت قد أمضيت في مكتبي خمس ساعات طوالاً، وكنت عائداً إلى بيتي مرهقاً متعباً لأتناول طعام الغداء. . فهل كانت الديموقراطية تقتضيني أن أعدل عن تناول الغداء لكي أجلس مع صاحبي لنتجاذب أطراف الحديث؟

كنت أفهم أن يكون هذا القارىء مظلوماً ورفضت أن أسمع مظلمته، فإن من حق المظلوم أن يقتحم مكتبي وقتما يشاء، ولكني لا أتصور أن واجب الكاتب أن يفتح مكتبه لكل من يريد أن يتجاذب معه أطراف الحديث!

إن المكتب صومعة وليس قهوة . هو مكان عمل لا نادي إجتماعي. وبعض الفارغين يتصورون أن مكتب الصحفي هو المكان المناسب لتجاذب أطراف الحديث! ولكنهم لا يعلمون أن في هذه المكاتب أعصاباً تحترق، وعقولاً تجهد، وجهوداً تبذل وأن الصحافة هي أشق مهنة في العالم، وألذ مهنة في العالم! ولكن يبدو أن بعض الناس يتصور أن الصحافة هي لهو ومزاح ومتعة ومغامرات وهم يريدون أن يشاركوا في هذا النعيم!

ومع ذلك كتبت إلى هذا الرجل أعتذر له عن سوء أدبي!

أريد أن أموت والقلم في يدي!

قلت مرة لأم كلثوم أريد أن أموت والقلم في يدي!

قالت: أما أنا فأتمنى أن أموت وأنا أغني. أتصور نفسي واقفة في نهاية الوصلة الثالثة من حفلتي الساهرة، وقد غنيت أغنيتي الأخيرة كأحلى ما غنيت طول حياتي، ويسدل الستار وسط التصفيق والهتاف، وعندئذ أسقط على الأرض ميتة، ثم ينفتح الستار ليقولوا للناس أنني مت!

قلت لها ساخراً: ولماذا تصرين أن تموتي في نهاية الوصلة الثالثة بدلاً من أن تموتي مثلاً في بداية الوصلة الأولى؟

قالت أم كلثوم ضاحكة: حتى يبكي الناس علي. . ولا يكون على فلوسهم!

ولكن هذه النهاية المسرحية التي تخيلتها أم كلثوم لموتها لم تستمتع بها. لقد كانت تتمنى ألا تموت بعد مرض طويل! وكانت تتمنى ألا تتألم قبل أن تموت. وكثيراً ما كانت تقول لي «إن الوفاة بالسكتة القلبية هي أحلى ميتة»!

وعبد الحليم حافظ كان يخاف من السرير! كان يقول دائماً إنه كلما دخل السرير أحس أنه لن يخرج منه، ولهذا كان يقاوم بشدة النوم في الفراش!

وكان يقول لي قبل رحلاته للعلاج إلى إنجلترا، والولايات المتحدة إن كل ما يتمناه ألا يموت في الغربة!

وحدث مرة أن سألني ماذا فعلت عندما توفي والدي في لندن. ووصفت له الإجراءات التي قمت بها، ولاحظت وأنا أروي له أن الرعب ملأ عينيه، وكأنه تخيل ما قد يحدث له لو أنه مات في لندن كما مات أبي، والحيرة التي سوف يشعر بها أهله وهم حائرون بجثته في بلد غريب!

ومن العجيب أنه مات في لندن. وكانت أمنيته دائماً أن يموت وبجانبه أخته علية وصديقه الحميم مجدي العمروسي، وقد تحققت له هذه الأمنية.

ولقد كان عبد الحليم واثقاً أنه سيموت في الستينات. فعندما مرض في تلك الأيام اعتقد أنه يرى شبح الموت يقترب منه! وكان قبلاً يفكر في الزواج جدياً، ولكنه في تلك الأيام عدل عن الزواج إلى الأبد، وقال لي أنه لا يريد أن يترك وراءه أرملة، ولا يريد أن يترك وراءه طفلاً يتيماً يذوق عذاب اليتم الذي ذاقه، ويتشرد كما تشرد، وكان يقول لي أنه كلما تصور أن ابنه سوف يلقى ما لقي، وأنه لن يعيش ليربيه ويعنى به زاد تصميماً على ألا يتزوج إلا إذا ضمن أنه سيعيش عشرين سنة أخرى على الأقل!

ولكنه بعد ذلك لم يضمن أنه سيعيش عشرين دقيقة!

كان يشعر دائماً أنه على موعد مع الموت!

النائب المطرود!

كان النائب محمد محمود جلال من النواب المعارضين في كل برلمان من أيام سعد زغلول.

وكان دائماً واحداً من أربعة نواب يفوزون في الانتخابات حتى لو اكتسح الوفد الانتخابات وفاز بكل الدوائر!

وكان من نواب الحزب الوطني المتمسكين بمبادئه، ولكنه كان في معارضته عف اللسان، يعارض في أدب وكأنه يثني على مجلس الوزراء وزيراً وزيراً!

وكان نائباً في مجلس الأمة المصري عام ١٩٥٧ ووقف كعادته يعارض الحكومة..

وإذا بأحد كبار المسؤولين يستدعيه إلى مكتبه ويقول له: إن الدولة أصدرت قراراً، إما أن تستقيل من مجلس الأمة فوراً وإما سيجتمع مجلس الأمة ويقرر فصلك!

قال محمد محمود جلال: إنني عارضت سعد زغلول ولم يفصلني، وعارضت مصطفى النحاس ولم يفصلني، وعارضت اسماعيل صدقي، ولم يفصلني، وعارضت محمد محمود ولم يفصلني، وعارضت أحمد ماهر وعلي ماهر والنقراشي، ولم يطلب واحد من هؤلاء فصلي!

قال المسؤول الكبير: إننا لا نريد معارضين. نريد مؤيدين فقط؟

قال محمد محمود جلال: وإذا لم أستقل؟

قال المسؤول الكبير: ستعرض نفسك «للبهدلة»! وأنت رجل محترم كبير في السن والمقام ولا نريد أن تعرض نفسك للمهانة!

وقدم محمد محمود جلال استقالته!

ولكني عارضت هذه الاستقالة. كان يجب أن يرفض ويقاوم. وكان يجب أن يرغم الحكومة على أن تفضح نفسها عندما تضطر إلى طلب إخراجه من المجلس لأنه عارض الحكومة.. ولكنه وفر باستقالته على الحكومة أن تبهدل نفسها، فلم تجرؤ جريدة واحدة أن تنشر سر الاستقالة، لأن الصحف كانت تحت الرقابة، وقيل للصحف أن محمد محمود جلال استقال لأسباب صحية!

وفي البرلمانات الحرة تفصل المعارضة الحكومة!

وفي البرلمانات المقيدة تفصل الحكومة المعارضة!

ذلك أن في الديموقراطية تكون الأمة مصدر السلطات!

وفي الديكتاتوريات تكون الحكومة مصدر السلطات!!

حزب العضو الواحد

بدأ كثيرون في مصر يفكرون في تأليف أحزاب جديدة، حتى قيل أنه من المنتظر أن يرتفع عدد الأحزاب في مصر إلى ثلاثين حزباً!

وأتمنى ألا يحدث هذا، فإن الأحزاب الكثيرة تفتت الديموقراطية، كما أن الحزب الواحد يقضي على الديموقراطية!

وفي وقت من الأوقات كثرت الأحزاب في مصر، وكان من أعجبها.. الحزب الوطني الحر.. الذي تألف في عام ١٩٠٧ برئاسة العالم اللغوي محمد وحيد بك الأيوبي، ثم غير اسمه إلى حزب «الأحرار» عام ١٩٠٨.

وكان الحزب يتألف من وحيد الأيوبي رئيساً، ووحيد الأيوبي نائباً للرئيس، ووحيد الأيوبي سكرتيراً، ووحيد الأيوبي مجلس إدارة، ووحيد الأيوبي جمعية عمومية!

وكان هذا الحزب يصدر قرارات تنشرها الصحف!

وذات يوم رأى عدد من محرري جريدة الأهرام أن يسخروا من وحيد بك فكتبوا خبراً في «الأهرام» بأن الجمعية العمومية للحزب اجتمعت وقررت إقالة وحيد بك الأيوبي من رئاسة الحزب! وثار وحيد الأيوبي وذهب إلى داوود بركات رئيس تحرير الأهرام يكذب الخبر. فقال له داوود بركات أن الأهرام مستعد لتكذيب الخبر إذا عقد جمعية عمومية

من الأعضاء ونشرت الأهرام صورة للأعضاء وهم يبايعون وحيد الأيوبي بالرئاسة!

فصاح وحيد الأيوبي: ومن أين أجيء بالأعضاء.. وأنا العضو الوحيد في الحزب!

وكان وحيد الأيوبي في وقت من الأوقات من أغنى أغنياء مصر، وكانت هوايته تسديد ديون الناس فإذا قرأ في الصحف إعلاناً عن الحجز على مدين، أسرع في يوم بيع أثاث المدين وسدد ديونه!

وكان يقيم في حلوان، وكان آخر قطار يقوم من محطة باب اللوق إلى حلوان عند منتصف الليل. ووصل وحيد الأيوبي إلى المحطة فوجد أن آخر قطار غادر المحطة، فطلب من ناظر المحطة أن يستأجر قطاراً خاصاً يستقله إلى حلوان، ودفع مصاريف القطار الخاص.

وأعدت المحطة القطار الخاص، وجاء ناظر المحطة إلى وحيد الأيوبي يقول له إن السيدة أخت عدلي باشا يكن فاتها هي الأخرى قطار حلوان، فهل يسمح لها أن تركب معه القطار الخاص!

وقال وحيد الأيوبي أنه يضع قطاره الخاص تحت تصرف شقيقة عدلي يكن باشا!

وطلب من ناظر المحطة إعداد قطار خاص ثان ليركبه هو، إذ لا يصح ولا يجوز أن تركب شقيقة عدلي باشا معه قطاراً بعد منتصف الليل!

وفعلًا جاءوا له بقطار خاص آخر استقله إلى حلوان!

ومع كل هذا الكرم لم يزد عدد أعضاء الحزب عن وحيد بك الأيوبي وحده!

أعداء الحرية يخدمونها!

لا أخاف على الحرية من أعدائها، إنما أخاف عليها من أصدقائها!

فكل ضربة توجه إلى الحرية من الخلف تدفعها دفعة قوية إلى الأمام. وكل قبر بناه الطغاة للحرية، دفنتهم فيه الحرية، قبل أن يدفنوها فيه!

فالذين يقيدون الحرية لا يعلمون أن هذه السلاسل هي حبال المشانق التي يشنقون أنفسهم فيها، ولا يعرفون أن الحرية إذا تقهقرت إلى الوراء خطوة، فإنما تتقهقر لتنقض، وإذا جرحت الحرية في معركة كان هذا الجرح هو نزفاً للدم الراكد، وهو حقناً لدم ساخن، يحول الضعف إلى قوة، ويجعل من التردد إقداماً!

وإذا عدنا إلى التاريخ وجدنا أن الحرية تكسب دائماً المعركة الأخيرة، حتى لو فقدت قبل ذلك عشرات المعارك. فالمعارك التي تخوضها الحرية هي التي تمنحها القوة، وتكسبها المناعة، وتساعدها على الإصرار والصمود.

والذين يتصورون أن الحرية تجيء للشعوب على أطباق من ذهب يخطئون.. كل شيء نحصل عليه بسهولة يضيع منا بسهولة. أما الأشياء الصعبة التي تتطلب تضحيات وضحايا فهي وحدها التي تستطيع أن تثبت أمام الزمن!

شعوب كثيرة في العالم حرمت من الحرية في فترات مختلفة. ولكن ما من مرة ذهبت الحرية إلا وعادت. وما من مرة قام طغيان واستبداد إلا كان في داخله السوس الذي ينخره ويأكله ويقضي عليه!

ضع في يد الطغاة قنابل ذرية، وضع في يد الأحرار عصياً خشبية. أيدي الطغاة تهتز وتتهاوى، وأيدي الأحرار تشتد وتقوى. فالإيمان بالحرية يعطي الإنسان الحر قوة غير عادية. تحوله من بشر إلى نبي. تجعله يستقبل الخطر بابتسامة، لأنه يثق تمام الثقة بأن النصر للحرية أخيراً!

وكثيراً ما تبدأ تجمعات الأحرار صغيرة، يستهين بها الظالم، ويسخر منها الطاغية. ولكنها أشبه بقصة أحمد لص بغداد، عندما رمى الرمل المسحور على الأرض، فانشقت الأرض وخرج منها الفرسان جيوشاً عارمة يهاجمون القصر ويخلعون أبوابه!

هذه الرمال هي مبادىء الحرية والديموقراطية. هي التي تشق الأرض بفضل الضغط والإرهاب والاستبداد، فتخرج منها الملايين منادية بحقها في حياة الأحرار، في أن تحكم نفسها بنفسها، في أن تختار حكامها، في أن تستمتع بكل حقوق الإنسان!

لا تخافوا على الحرية من أعدائها!

ادعوا الله أن يكثر الله من أمثالهم، ليقترب موعد انتصارها!

الوزراء يأكلون الفول المدمس!

دهشت عندما قال لي أحد الوزراء أن كل المرتب الشهري الذي يقبضه هو ٢٣٠ جنيهاً، وهو مرتب يتقاضاه بعض السعاة والخدم في بلاد أخرى!

وكانت مرتبات الوزراء في مصر قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها تافهة جدا، حتى إنه لم يكن للوزراء سيارات خاصة كما هو الحال في هذه الأيام، وكان بعض الوزراء يملكون عربات تجرها الخيول تحملهم من بيوتهم إلى وزاراتهم. وكان أغلب الوزراء فقراء لا يملكون سيارات ولا عربات تجرها الخيول. . ولهذا كانوا يركبون الترام!

وكانت شركة الترام توزع على كل وزير اشتراكاً مجانياً في الدرجة الأولى على جميع الخطوط.

وكان بين الوزراء الذين يركبون الترام الفريق ابراهيم فتحي باشا أحد قواد الحملة المصرية في السودان ووزير الأوقاف.

وذات يوم كان الفريق فتحي باشا وزير الأوقاف يركب الترام، وتوقف الترام في محطة العتبة الخضراء. .

وفوجىء الجمهور الذي يملأ الميدان المزدحم برؤية وزير الأوقاف يقفز من الترام، وينقض على شاب واقف في المحطة، ويمسك برباط رقبته، وينهال عليه ضرباً وصفعاً وركلاً وهو يصرخ بأعلى صوته: كيف تبصبص بأموال المسلمين يا كلب!

وشاهد الجمهور الوزير وهو يضع يده في جيب جاكتة الشاب

ويخرج منها محفظة نقوده وينتزع منها ورقة بنكنوت من ذات العشرة الجنيهات، ثم يرمي بالمحفظة في وجه الشاب!

وسأل الجمهور الوزير ماذا حدث فقال لهم أن هذا الشاب جاء إلى مكتبه في وزارة الأوقاف، وادعى أنه فقير معدم، ينفق على أسرة من عشرة أفراد، لا تجد طعاماً، ولا كساء، وكان يبكي بدموع حارة، ورق قلب الوزير فأمر بإعطائه عشرة جنيهات من أموال المسلمين التي توزع على الفقراء والمحتاجين.. ثم فوجىء الوزير بهذا الشاب يقف بعد ساعة واحدة في ميدان العتبة الخضراء يغازل إحدى السيدات ويطارحها الغرام، ويعرض عليها أن تتنزه معه في عربة!

وجن جنون الوزير ولم يتمالك نفسه، وقفز على الشاب واسترد منه العشرة الجنيهات وأعادها إلى خزانة وزارة الأوقاف!

وشاهدت مصر كثيراً من الوزراء الفقراء الذين تولوا الحكم لسنوات طويلة وخرجوا من الوزارة فقراء معدمين..

وعندما قام حزب مصر الفتاة في الثلاثينات كان برنامجه ينص على أن يكون مرتب الوزير ١٥ جنيهاً في الشهر!

ولكن لم يطبق هذا المبدأ برغم أن بعض أعضاء حزب مصر الفتاة أصبحوا وزراء في يوم من الأيام!

وعندما ألف اللواء محمد نجيب وزارته الأولى دخلها أربعة وزراء من العسكريين وكان كل واحد منهم يتقاسم مرتبه مع اثنين من زملائه أعضاء مجلس الثورة الذين لم يدخلوا الوزارة. وقرر الوزراء ألا يأكلوا إلا الفول المدمس ولا يركبوا إلا الترام.

ولم يستمر هذا التقليد سوى بضعة شهور.

وأصبح بعض الوزراء يأكلون الكافيار!

أنا مختلف معك!

قال لي أحد رجال السياسة العرب: أنا مختلف معك في شأن الصحافة!

قلت أعرف ذلك. أنا أريد الصحافة تاجاً على رأس الشعب، وأنت تريدها حذاء في قدم الوزير. أنا أريد الصحافة صاحبة جلالة، وأنت تريدها صاحبة وزير الإعلام. أنا أريد الكاتب لا يخاف إلا الله، وأنت تريد أن يخاف الكاتب من كل مسؤول. أنا أريد الصحفي أن يقتحم الأبواب ليعرف باسم الشعب ما يجري خلف الأبواب المقفلة، وأنت تريد الصحفي واقفاً أمام الباب يستجدي الأخبار والتصريحات. أنا أريد الصحف التي يقرأها الملايين، وأنت تريد الصحف التي يقرأها الحاكم. أنا أريد صحافة تهز الحكومة، وأنت تريد صحافة تهزها الحكومة! أنا أريد أقلاماً جريئة تنطق باسم الشعب. وأنت تريد أقلاماً مرتعشة تنطق باسم مجلس الوزراء! أنا أعتقد أن مهمة الصحفي أن يبحث ويدرس ويقترح وينتقد ويهاجم كل فساد، وأنت تعتقد أن مهمة الصحفي أن يصفق ويهتف، ويحرق البخور، ويبرر الأخطاء ويتستر على الجرائم.

أنا أعتقد أن الصحافة الحرة تحمي الحكومات، وأنت تتوهم أن الصحافة المقيدة تدعم الحكومات! قل لي ماذا أفاد تكميم الصحافة في إيران؟ أكثر من ثلاثين سنة من الرقابة والقيود والأغلال والإظلام التام، هل قضت على السخط. إن السخط يتوالد في الظلام ويموت في النور!

الهمس المخنوق المكتوم يتحول إلى رعد قاصف! لقد مكثت صحف إيران سنوات طويلة تشيد بالشاه وتتغنى بأمجاده وترفع أعلامه، فلم يصدقها الناس، لأن الناس لا تصدق الكلمات المقيدة، وإنما صدقت الهمسات التي حكت عن التصرفات التي لم تجرؤ جريدة واحدة على الإشارة إليها!

ولو أن الصحف كانت حرة لنشرت هذه الاتهامات، وقد يكون الكثير منها غير صحيح، وكان الشاه يستطيع أن يدافع عن نفسه ويقول الحقيقة، ويعرف الناس أن الإشاعات ظلمته.. ولكنه اكتفى بأن يضرب وأن يقمع، وأن يضع يده على فم الشعب حتى لا يتكلم، وأن يضع يده على عين الشعب حتى لا يرى، وأن يضع يده على أذن الشعب حتى لا يسمع!

ولكن الشعب سمع ورأى وتكلم.. وثار!

لبنان.. هو الحرية

سأل أحد رجال الأعمال اللبنانيين مجموعة من الأصدقاء: كم سنة يحتاجها لبنان ليعود كما كان!

قال أحدنا: عشر سنوات!

قال آخر: خمس سنوات!

قلت: ٢٤ ساعة!

وذهل المستمعون لرأيي الغريب، وتصايحوا: ٢٤ ساعة كيف؟

قلت نعم ٢٤ ساعة! يكفي أن تعود الحرية اليوم للبنان ليعود كما كان في اليوم التالي! لا تتصوروا أن لبنان كان الفنادق الضخمة والمصايف الفخمة والبنوك الكبيرة والكازينو الجميل والطرق الرائعة والنساء الجميلات والسهرات الحلوة والتجار الشطار.. ولكن لبنان كان الحرية!

الحرية التي جاءت بكل الحضارة. ما قيمة جبل شاهق وفوقه معسكر اعتقال! ما قيمة كازينو رائع وبجواره مكتب رقيب. ما قيمة صوت فيروز يدوي ويغطيه صوت صليل السلاسل والقيود!

أعيدوا الحرية إلى لبنان يعد لبنان! يجيء الناس إليه من كل أنحاء الدنيا بلا خوف ولا قلق ولا تردد. يشعر كل إنسان فيه بأمان، فلا يجرؤ

أحد أن يعتدي على بريء، أو يغتصب بيتاً، أو يهاجم رجلاً مجرداً من السلاح!

المقيدون بالسلاسل لا يبنون العمارات، وإنما يبنون القبور!

غير صحيح ما يقوله تلاميذ مدرسة الطغيان بأن الحرية هي التي أضاعت لبنان!..

الذي أضاع لبنان هو حرية القتل وحرية الهدم وحرية كتم الأفواه أما الحرية الحقيقية فهي لم تهدم لبنان، وإنما هي التي بنته، وهي التي صنعته، وهي التي جعلت من هذا البلد الذي ليس فيه صناعة ولا بترول أكثر البلاد العربية رفاهية..

ألف عمارة جديدة وألف بنك جديد وألف مليونير جديد لن تعيد بناء لبنان..

إنما ستعيده الحرية الكاملة!

سيعود بعد ٢٤ ساعة!

لم أعلمه أن يركع!

دخلت زوجة المسجون السياسي غرفة سكرتير المسؤول الكبير تتعثر في خطواتها. وجدت في الغرفة أحد تلاميذ زوجها. تنفست الصعداء. اطمأنت بعد قلق. هذا هو المنقذ الذي تبحث عنه. فهو مدين بكل ما وصل إليه إلى زوجها. هو الذي علمه، وهو الذي قدمه، وهو الذي حمله على كتفيه إلى المناصب الكبرى..

إنها تحمل خطاباً تطلب فيه من المسؤول الكبير أن يوافق على نقل زوجها الذي اشتد به المرض في السجن إلى مستشفى السجن، كل الأبواب مغلقة في وجهها. كل من تحاول أن تجعله يحمل هذا الطلب العادل يفزع كأنه يلمس ثعباناً! كل الناس خائفين من اسم زوجها، فهو عدو الحاكم. وهو رجل مغضوب عليه. منبوذ، مطارد، محكوم عليه بالأشغال الشاقة، هو أشبه بالأجرب لا أحد يريد أن يقترب منه أو يلمسه!

ها هي وجدت تلميذه وصديقه وابنه.. وتقدمت الزوجة نحو التلميذ، وإذا به يشيح بوجهه حتى لا يراها، وتصورت أنه لم يرها، فاستدارت لتحدثه، ووجدته يجري، ويهرب فزعاً من الغرفة تاركاً يدها معلقة في الهواء!

ومضت الأيام، وتغيرت الدنيا، وفتحت أبواب السجون، وخرج المسجون السياسي، وفتحت الأبواب المغلقة، وابتسمت الوجوه

العابسة، واختفت الخناجر والسكاكين لتصبح وروداً ورياحين، وانقلب الحراس والجلادون إلى فرسان شرف يتقدمون المواكب!

ورأت الزوجة أمامها تلميذ زوجها الذي أنكرها، رأته يقبل عليها ويقول لها ألف مبروك يا سيدتنا جميعاً!

وتراجعت الزوجة إلى الخلف وقالت: لا أصافح جباناً!

وأقسم التلميذ الجبان أنه كان يصلي لأستاذه خمس مرات كل يوم، ويدعو له بالحرية!

وقالت له الزوجة أن صلاة المنافقين لا تصل إلى السماء!

وركع التلميذ المنافق على حذاء السيدة محاولاً أن يقبله...

وصرخت زوجة المسجون السياسي السابق وقالت له:

- إن الذين يقبلون أحذيتنا اليوم، هم الذين كانوا يضربوننا بالأحذية بالأمس!

وأقبل المسجون السياسي على صوت صراخ زوجته وقال له تلميذه:

- إن السيدة لا تعرف أنك أستاذي، وأنني تلميذك، وأنك الذي علمتني!

قال له الأستاذ: إنني علمتك أن تقف على قدميك. ولم أعلمك أن تركع!

ما أكثر عدد الذين ركعوا وهم يظنون أنهم وقفوا على أقدامهم!

المحامي الأول!

الرجل العادي إذا دخل مهنة كرس كل وقته وجهده ليرفع شأنه فيها. أما الرجل غير العادي فهو الذي إذا دخل مهنة رفع شأن كل من يعمل بها!

وقد لا يعرف كثيرون أن مهنة المحاماة في مصر كانت إلى أوائل الاحتلال البريطاني مهنة محتقرة، لا يعمل بها الرجل المحترم، وترفض الأسرة المحترمة أن تزوج ابنتها إلى أي رجل يعمل بالمحاماة، وكان النائب العام قد أصدر منشوراً يحذر فيه القضاة من الجلوس بجانب المحامين أو الاختلاط بهم لأن هذا لا يتفق مع كرامتهم!

وروى الزعيم سعد زغلول أنه كان يتولى وظيفة في الحكومة في أثناء ثورة عرابي، ثم قبض عليه بعد فشل الثورة بتهمة أنه ألف جمعية للانتقام من الذين خانوا الثورة. ولم تجد المحكمة من يقبل الشهادة ضده فبرأته. وأراد أن يعود إلى وظيفته فعلم أن الحكومة فصلته لأنه سجن، وطلب من أحد أصدقائه أن يتوسط له للعودة إلى العمل «فأعرض عني، ونأى بجانبيه، فكبر الأمر عندي وقررت أن أشتغل بالمحاماة وقلت لنفسي: علام تحتمل يا سعد منة جهول»..؟!

ووجد سعد زغلول أن المحامين كلهم بين نصاب ومحتال، يخونون الزبائن ويتفقون مع أعداء موكليهم، وقرر أن يدخل هذه المهنة الملوثة ليطهرها باستقامته، وينظفها بأمانته، ويجعل لها المكانة المحترمة التي

كانت للمحامين في دول أوروبا.

وقال سعد: «واشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلي وأصحابي، وكلما سألني سائل: هل صرت محامياً؟ قلت معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين»!

واستطاع سعد في سنوات قليلة أن يجعل المحاماة في مصر مهنة محترمة.. وكان أول محام في تاريخ مصر عين مستشاراً في محكمة الاستئناف..

وكان إيراده الشهري من المحاماة عشرة أضعاف مرتبه كمستشار، ولكنه قبل منصب المستشار، ليثبت أن المحامي المصري أصبح جديراً في أن يجلس في منصب أكبر القضاة!

وكان سعد زغلول أول محام في مصر أصبح رئيساً للوزارة، وقد لعب المحامون في مصر دوراً بارزاً في ثورة ١٩١٩، وحدث في أثناء الثورة أن جرت انتخابات نقيب المحامين فانتخب المحامون مرقص حنا عضو الوفد المحكوم عليه بالإعدام نقيباً للمحامين، وانتخبوا محمد أبو شادي الذي نفاه الإنجليز إلى واحة المحاريق في الصحراء وكيلاً لنقابة المحامين..

وعندما بدأ سعد ثورته طلب من الشعب أن يوقع له توكيلاً بتوليه المطالبة بالإستقلال كالتوكيل الذي يوقعه صاحب القضية للمحامي! ووقع الشعب المصري كله على هذا التوكيل!

المتشائم.. المتفائل!

أمضيت عدة أيام في هذا الشهر أقرأ عن البرلمان الأوروبي الذي جمع نواباً من كل دول أوربا الغربية، وهم نواب انتخبهم الشعب انتخاباً مباشراً ليمثل كل نائب نصف مليون..

ووجدت نفسي أعدو بالذاكرة إلى أحد أيام عام ١٩٥٨ أي منذ ٢١ عاماً.. فقد اجتمع في بيتي عدد من الأصدقاء، وكان معنا فائق السمرائي سفير العراق في القاهرة وأميل البستاني الوزير والنائب اللبناني ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان السابق وبعض الأصدقاء..

وقال فائق السمرائي: إن تيار الوحدة العربية يكتسح الدول العربية من الخليج إلى المحيط.. ولا أتصور أنه ستمضي فترة طويلة قبل أن تصبح دولة واحدة.. ترى متى يكون لنا برلمان واحد؟!

وقال أميل البستاني: إنه يعتقد أن هذا سوف يحتاج إلى عشرين سنة.

وقال محجوب: إنه إذا اتفقنا أن تكون دولة الولايات العربية المتحدة على غرار الولايات الأمريكية المتحدة فمن الممكن أن يكون ذلك في خلال ١٥ سنة.

وقال فائق السمرائي: أنتم متشائمون! أنا أعتقد أن من الممكن أن يحدث هذا في خلال عشر سنوات فقط!

وقلت: إنني متفق مع فائق في تفاؤله، وأنني في سنة ١٩٥٣ زرت العراق ولبنان والكويت والبحرين وقطر وأبو ظبي وعدت إلى القاهرة وكتبت مقالاً في مجلة الجيل قلت فيه إنني أتوقع قيام دولة الولايات العربية المتحدة.

ويومها اتصل بي الرئيس جمال عبد الناصر وناقشني في هذا المقال، وسألني هل حقيقة أن ما كتبته في المقال يعبر عن شعور شعوب هذه البلاد؟ فقلت له إنني في كل بلد من هذه البلاد أحسست أنني لازلت في القاهرة. إنهم يعرفون عنا كل شيء كأنهم يعيشون بيننا. لم أحس مرة واحدة وأنا أتحدث إلى أي فرد منهم أنني أتحدث إلى أجنبي!

وعدنا نتناقش في كيف يتألف البرلمان العربي.. واتفقنا أن يتألف من مجلسين، مجلس يتساوى فيه عدد ممثلي كل دولة عربية، ومجلس يتكون من أعضاء بنسبة عدد سكان كل دولة! واتفقنا أن يعقد البرلمان العربي في القاهرة.. ومضت أكثر من ٢١ سنة!

ولم يقم البرلمان العربي!

ولم تتحقق الوحدة العربية!

ونقلت الجامعة العربية من القاهرة!

واكتشفت أن أميل البستاني كان متفائلاً أكثر من اللازم!

السفير المطرود!

زرت مدرسة ثانوية في القاهرة، وفي أحد الفصول سألت التلاميذ ما هي أمنية كل واحد منهم في مستقبله. وكان متوسط عمر الطالب حوالي ١٧ سنة، وكان عددهم أربعين تلميذاً.

وقال عشرة تلاميذ أنهم يريدون أن يكونوا سفراء في الخارج و ٧ تلاميذ أنهم يريدون أن يكونوا مهندسين وستة تلاميذ اختاروا أن يكونوا طيارين و ٥ تلاميذ اختاروا أن يكونوا علماء، و ٤ تلاميذ أرادوا أن يكونوا أعضاء في البرلمان، وثلاثة تلاميذ فضلوا أن يكونوا ضباطاً في الجيش وتلميذان طلبا أن يكونا من رجال الأعمال وتلميذان اختارا أن يكونا قضاة وتلميذ واحد قال أنه يريد أن يكون صحفياً، ولعله لم يشأ أن يكسر قلبي فقرر أن يجاملني!

وعجبت من كثرة عدد التلاميذ الذين يحلمون بمنصب السفير فسألت واحداً منهم عن سبب اختياره فقال إنه يريد أن يعيش في الخارج، ويعتقد أن حياة السفير هي مآدب وحفلات ساهرة وأوسمة ونياشين! ويبدو أنه قرأ بعض القصص القديمة التي كانت تحكي عن حياة السفراء كأنها قصة أمير في ألف ليلة وليلة!

وتذكرت قصة سفير من أحسن سفرائنا. إنه حسين منصور سفير مصر في يوغوسلافيا. حدث أن جاءت بعثة مصرية عسكرية إلى بلغراد. ورتب لها السفير موعداً في الساعة السادسة مساء لمقابلة الرئيس تيتو،

والساعة السابعة مساء لمقابلة وزير الخارجية والساعة الثامنة لمقابلة وزير الحربية. وطلب السفير المصري من أعضاء البعثة أن يجتمعوا في مكتبه في الساعة الخامسة بعد الظهر ليذهبوا معاً إلى هذه المواعيد الهامة. ومرت الساعة الخامسة ولم يأت أعضاء البعثة. ومرت الخامسة والنصف والسادسة والسابعة والنصف، وفي الساعة الثامنة مساء وصل أعضاء البعثة العسكرية. وقال لهم السفير المصري منزعجاً: لماذا تأخرتم؟

قالوا: كنا في السوق نشتري مشتريات.

قال لهم السفير: هذا شيء لا يليق. وهذه مواعيد هامة لا يجوز مخالفتها.

وعادت البعثة العسكرية إلى القاهرة، وبعد ثلاثة أيام وصلت إلى السفير المصري برقية هذا نصها: «قدم استقالتك من منصبك لأسباب صحية. الإمضاء وزير الخارجية»!

وقدم حسين منصور استقالته، وعاد إلى مصر، وسأل عن السبب في إقالته، وقيل له أنه لام ثلاثة من أصحاب الحظوة لدى ولاة الأمور، لتأخرهم عن موعد الرئيس تيتو، وما كان يليق أو يجوز للسفير أن يوجه ملاحظات إلى ثلاثة من كبار الآلهة!

وكان المفروض طبعاً أن يلوم السفير الرئيس تيتو لأنه لم يجلس ساعتين في انتظار الآلهة الثلاثة!

تذكرت هذه القصة والتفت إلى التلاميذ وقلت لهم:

- إبحثوا يا أولادي عن وظيفة أخرى غير وظيفة السفير!

محاربة الطغاة بالمواويل!

في عهد الديكتاتوريات الأولى في مصر كانت تظهر في مجلة روز اليوسف مواويل سياسية، يحفظها الشعب، ويرددها، ويغنيها، تسمعها من الوزراء في مكاتبهم، ومن الطلبة في مدارسهم، ومن العمال في مصانعهم!

كانت أشبه بالأغاني، ولكنها لم تكن أغاني حب، وإنما كانت أغاني نقد سياسي وهجوم على الطغاة المستبدين!

وكان الناس حيارى من هو مؤلف هذه المواويل البلدية، فقيل أنه بيرم التونسي الشاعر الذي نفاه الملك فؤاد إلى فرنسا لأنه شتم الملك في موال، وقيل أنه بديع خيري.. وقال آخرون أنه شوقي الشاعر يؤلف باللغة العامية!

ولكن كان هذا الشاعر المجهول الذي تردد الملايين أغانيه وكأنها تلقي الطوب والأحجار على الديكتاتور، كان هذا الشاعر هو سعيد عبده التلميذ بكلية الطب!

ولم يكن سعيد عبده شاعراً فقط، بل كان كاتباً قصصياً موهوباً، وكان قصاصاً بارعاً، وكان هو الجندي المجهول في مسرحيات شوقي، كمسرحية مجنون ليلى وكليوباترا. فكان شوقي يؤلف القصائد، وسعيد عبده هو الذي يقسمها إلى حوار وإلى مواقف مسرحية، ويغير ويبدل ويحذف ويضيف حتى تجيء بهذه الروعة التي يراها الناس!

ولم يكن سعيد عبده تلميذاً نابغاً في كلية الطب، فإن عمله الأدبي والصحفي كان يستغرق أغلب وقته، فكان يرسب في الامتحانات.. وكثيراً ما نصحناه أن يترك الطب ويتفرغ للأدب، ولكنه أصر على الاستمرار في دراسة الطب، وبعد سنوات من الرسوب المتوالي نجح وتفوق في الطب وأصبح أستاذاً في كلية الطب في مصر والعراق.

وهو حتى الآن يرفض أن يجمع مواويله السياسية في ديوان، يروي كيف استطاع الموال السياسي أن يهز الديكتاتوريات ويزلزل الطغاة ويدك قلاع الاستبداد.

ومن مواويل سعيد المشهورة موال بلسان وفد من الضفادع يقول الرئيس للديكتاتور: وفد الضفادع عاوز ديكتاتور زيك! طولك وعرضك وفي ضعفك وفي عيك! ضعيف وعامل قوي، أبكم ويترافع! ما تحرموش دولتك نورك ولا ضيك!

من يصدق أن تلميذاً في كلية الطب كان هو الشاعر الأول للثورة ضد ديكتاتورية محمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا؟!

حسنين.. في فيلم سينمائي!

قال لي أحد المخرجين السينمائيين المصريين أنه يفكر في أن يخرج إلى السينما قصة أحمد حسنين: وقصة هذا الرجل العجيب ليست قصة بل أسطورة، شاب مصري إبن أحد علماء الأزهر، سافر إلى أكسفورد وفتن نساء إنجلترا، واستطاع بجاذبيته، وذكائه أن يفتح لنفسه أبواب القصور الملكية ويصبح صديقاً لكثير من الأمراء والدوقات. وحرص أن يحتفظ بنبل الشاب العربي فيذهل الشباب الإنجليزي بصدقه واستقامته وفروسيته. ويعود إلى مصر فتعشقه زوجة قائد قوات الاحتلال البريطاني في مصر، وترغم زوجها أن يجعله سكرتيراً خاصاً له. ويكون صلة الوصل مع ثوار ثورة ١٩١٩ فيسهل لهم الفرار من السجون ويهرب لهم الأسلحة ويتوسط لتخفيف الحكم على المحكوم عليهم بالإعدام!

ويسافر إلى الصحراء ومعه الصحفية الإنجليزية روزيتا فريس. ويكتشف حسنين واحة الفرافرة، وتحاول الصحفية الإنجليزية أن تسرق منه الاكتشاف وتدعي أنها هي المكتشفة وأن حسنين كان خادمها! فلا يفتح فمه، ولا يقول للعالم أنها كانت عشيقته. ويعود مرة أخرى إلى الصحراء صامتاً ليكتشف واحة أكبر تكون حديث العالم كله!

ويسافر إلى أميركا سكرتيراً أول للسفارة المصرية في واشنطن وتجن به الفتيات الأمريكيات وتقول الصحف أنه يشبه الممثل الساحر رودلف فالنتينو في فيلم ابن الشيخ، وإن وجهه العربي يسحر المرأة ويجعلها تتسمر في مكانها!

ويـترك الجميلات الفـاتنـات الأمـريكيـات ويحب ابنـة سيف الله يسري باشا السفير المصري في واشنطن وهي فتاة غير جميلة ولكنها مهذبة ومثقفة. . وهي ابنة أفقر أميرة مصرية في تلك الأيام.

ويعجب الناس للشاب الذي فضل الزواج من الفتاة الفقـيرة على الزواج من صاحبات الملايين من الأمريكيـات اللاتي يـطاردن ابن الشيخ الجـديد. . ويعـود إلى مصر ويعجب به سعـد زغلول ويختـاره في مكتبـه خبيراً بشؤون الصحراء، ثم يختاره الملك فؤاد أميناً ثالثاً، ثم يصبح أميناً ثانياً. وأميناً أول! وفجأة يترك حياة القصر وترفه وبذخه ليتعلم الطيران، ويحاول أن يكون أول مصري يقود طائـرة من لندن إلى القـاهرة ويفشـل وتسقط الـطائرة وينجـو من الموت! ويعـود ليحاول من جـديـد ويفشـل وتسقط الطائرة وينجـو من الموت! ويفقـد كل مـا ورثه عن أبيـه في شراء طائرات ثم يعود إلى مصر غارقـاً في الدين. . وفجـأة يموت الأمـير سيف الدين خال زوجته وتصبح الأميرة شويكـار أغنى أميرة في مصر. وتصبـح ابنتها زوجة حسنين أغنى سيدة في الشرق! ولا يـطيق حسنين أن يعيش مع مليونـيرة وهو الـذي تعود أن يعيش مـع زوجة فقـيرة فيطلقهـا عقب شهـور من حصولهـا على ثـروة تقدر بعـدة ملايـين! وتقع في هـواه الملكة نازلي وتطارده، ثم يتزوجها. .

ويصبح حسنين أقوى رجل في مصر. . إلى أن تجيء سيـارة جيش بريطانية وتصدم سيارته وتقتله فوق كوبري قصر النيل!!

ألا يصلح هذا ليكون فيلماً سينمائياً رائعاً!؟

القصص المسجونة

سألتني السيدة ل. ع. من الكويت متى أؤلف قصة جديدة؟

وأنـا ألفت آخر قصصي وأنـا في السجن، وبعـد خـروجي من السجن لم أؤلف قصصـاً جديـدة! ويظهـر أنه لا بـد من جـو الـزنـزانـة الشاعري وصوت الحارس الملائكي، وصلصلة السلاسل الموسيقيـة حتى أستطيع أن أجد الوحي والإلهام!

ولم أؤلف قصة كاملة. كنت أكتب الورقة وجهـاً وظهراً، وأهـربها من الزنزانة، ثم أهربها من العنبر ثم أهـربها من السجن، ثم أهـربها من البلد كله!

ولم يحـدث مـرة أن راجعت قصـة كـاملة، فلم أكن أستـطيـع أن أحتفظ بورقة في زنـزانتي فقد كـانوا يفتشـونني مرتـين كل يـوم. ولم أكن أستطيع أن أحتفظ بورقة فيها أسماء أبطال القصة، لهذا فإن بعض أبطال قصصي في الفصول الأولى ضاعوا في الفصول الأخيرة!

ولم تكن الكتـابة في الـزنزانـة عملية سهلة. كانت الكلمات تخرج خـائفة قلقـة، تتلفت يميناً ويسـاراً وكـأنها تخشى أن تنقض يـد الحـارس وتقبض عليها. وكانت المعاني تمشي على أطراف أقدامهـا وكأنها تتلصص أو كـأنها تسرق. تسرق الحريـة! وسرقـة الحـريـة في السجـون من أشـد الجرائم هولاً.

وكنت أكتب قصصاً على أنها منشـورات أكتبها لتخـرج إلى خارج

الأسوار تلعن الظلم والظالمين، وتتحدث عن مذابح العدالة والقانون داخل السجون، وتطالب بالحرية والعدل لمن حرموا من حقهم في العدل والحرية!

وكنت أقصد بكل قصة أن أسرد فترة من تاريخ بلادي فقد لاحظت أن الجديد يجهل كل شيء عن حقيقة تاريخ بلاده، وما فيها من بطولات، وما قام به شعب مصر من كفاح طويل من أجل الاستقلال وحق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه!

وكنت ألاحظ أن أجهزة إعلام السلطة ضللته، وشوهت تاريخه وألغت تاريخ الشعب لتعظيم تاريخ العالم، فأردت أن أعيد الشعب إلى أصوله وجذوره. فالشعب الذي لا تاريخ له لا مستقبل له.

وكنت أعلم أنني إذا طبعت هذه التواريخ في كتب، فلن يوزع من الكتاب أكثر من ثلاثة آلاف نسخة، ولهذا حرصت أن أضع التاريخ في قصة حب، كما يضع الطبيب الدواء في السكر أو السكر في الدواء حتى يستطاب مذاقه..

ولهذا أصبح عدد قراء كتاب التاريخ يصلون إلى أكثر من مليون قارىء لأول مرة في تاريخ البلاد العربية!

ولقد كتبت ست قصص وأنا في السجن.. وسوف أكتب باقي القصص عندما أدخل السجن من جديد!

الوزير يكذب ببلاغ رسمي!

أعرف أناساً إذا وعدوا صدقوا. وإذا قالوا كلمة أبوا أن ينكروها حتى ولو فقدوا رؤوسهم ثمناً لها!

وأعرف رجلاً كلامه كالجنيه الذهب، تزيد قيمته مع الأيام، ولا يتأثر بتقلبات الأحوال وتغير الظروف. يقف بجوار كلمته حتى لو أغضب الأقوياء، ولو فقد منصبه، ولو دخل إلى السجن!

ولكن عرفت رجلاً أشبه بورقة البنكنوت المزيف، يشبه ورقة النقد الحقيقية في لمعانها، وفي رسومها، وفي كلماتها.. ولكن إذا وضعت في الضوء اكتشف زيفها!

وكان هذا الرجل وزيراً...

وأدلى لي الوزير بتصريح لنشره في جريدة «الأخبار» وعرضت عليه نص التصريح فوافق عليه.

ونشرت تصريح الوزير في «الأخبار»..

وصدرت الجريدة، واطلع الرئيس جمال عبد الناصر على الحديث فغضب وثار، واتصل بالوزير يوبخه كيف أدلى بهذا التصريح السخيف!

وإذا بالوزير يقول أنه لم يعطني هذا التصريح، ولم يقابلني، بل إنه لم يتشرف بمعرفتي!

وأصدر الوزير بلاغاً رسمياً ينفي فيه الحديث، ويقول أنه حديث

مختلق لا أساس له من الصحة، وأنه لم يصدر من الوزير على الإطلاق، ثم يوبخ رجال الصحافة لأنهم لا يتحرون الصدق والحقيقة فيما يكتبون.

ونشرت كل الصحف البلاغ الرسمي.

أمَّا أنا فنشرت التكذيب في الصحفة الأولى بعناوين ضخمة، وجعلته «مانشيت» الجريدة!

ودهش الرئيس جمال عبد الناصر واتصل بي تليفونياً يسألني عن سر احتفالي بنشر تكذيب الوزير في الصفحة الأولى. فقلت له أني سأرسل إلى سيادتك السبب في مظروف الآن!

وأرسلت المظروف إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وفتحه الرئيس، فإذا به شريط مسجل، وأدار الرئيس الشريط فإذا به تصريح الوزير الكذاب مسجلاً على الشريط حرفاً بحرف!

واستدعى رئيس الجمهورية الوزير الكذاب، وأسمعه الشريط، ثم طلب منه أن يكتب استقالته من الوزارة وهو يقول له:

ـ يجب أن تحمد الله لأنني لم أضعك في السجن..

ولم أقل يومها للرئيس أننا إذا وضعنا كل الوزراء الكذابين في السجن فسوف نفاجأ بأزمة في عدد الوزراء!

الشاطر حسن!

كانت جدتي تحدثني في طفولتي عن الشاطر حسن الذي خطف ست الحسن والجمال، وهرب بها على حصان أبيض!

وعشت في طفولتي أحلم بأن أكون الشاطر حسن!

ولم تكن العقبة التي أمامي أنني لم أجد ست الحسن والجمال، وإنما العقبة أنني لم أجد الحصان الأبيض الذي أخطفها عليه!

وذات يوم أهداني شيخ العرب صالح لملوم باشا حصاناً أبيض، وأهدى أخي حصاناً أبيض. وكان شيخ العرب صديقاً لأبي!

وحرنا ماذا نفعل بالحصانين. ووضعناهما في جراج بيتنا مع السيارة وفوجئنا بالحصانين يحطمان السيارة!

وحاولت أن أركب الحصان، وتعلقت به، وجرى في الشارع بين السيارات ثم ألقى بي على الرصيف وولى هارباً!

وأخذت أتوسل إلى الحصان أن يعود، ولكنه رفض أن يعود، ولعله اكتشف أنني لست الفارس الموعود!

وبعنا الحصانين بمبلغ زهيد، ومنذ ذلك اليوم لم أركب حصاناً ولا حماراً، ولم أفكر في أن أكون فارساً!

وعندما كنت أرى ست الحسن والجمال، كنت أدعوها أن تركب معي الترام أو سيارة الأتوبيس!

وكانت تكاليف الحب في أيامنا رخيصة، فلم يكن في استطاعة أي فتاة أن تقبل دعوة لتناول الشاي في كازينو، أو لتجلس معك في مطعم. كان أقصى ما تستطيع الفتاة أن تفعله أن تمشي أمامك على بعد عشر خطوات في الشارع، وتسير أنت خلفها إلى أن تصل إلى بيت خالتها أو عمتها! وكانت هذه في أيامنا من أخطر المغامرات التي تجرؤ عليها الفتاة!

وفي الثلاثينات رأينا فتاة أجنبية تقود سيارة في شارع سليمان باشا، وهو شارع طلعت حرب الآن، وتوقف المرور، ووقف الناس مشدوهين على الرصيف، وقالت سيدة كانت واقفة بجانبي أن هذا منتهى ما تصل إليه فتاة من الوقاحة وقلة الأدب، وقال رجل خلفي أن هذه إحدى علامات قيام القيامة!

ومضت أكثر من أربعين سنة.. وسمعت أن سيارة وقفت في شارع في عاصمة عربية، ونزلت منها ثلاث فتيات وخطفن شاباً كان يمشي على الرصيف وهربن به!

وأسفت أنني لم أمش على ذلك الرصيف!

لا بد من امرأة تتوكأ عليها!

عرفت في حياتي عظماء كثيرين رأيتهم وهم يبدأون من الصفر ورأيتهم وهم يصلون إلى القمة صفاتهم مختلفة ومواهبهم متعددة ولكن كان بينهم قاسم مشترك واحد يجمعهم في صفة واحدة وهي أنهم إذا بدأوا لا يتوقفون. فهذا الاستمرار المتواصل هو الذي يصنع الإنسان العظيم. الذين ينطلقون إلى الأمام ثم يعودون أدراجهم إلى الخلف لا يصلون أبداً وقد يكون التقهقر تكتيكاً للانقضاض ولكن المهم أن يكون التراجع جزءاً من المعركة لا نهاية لها.

بعض هؤلاء الذين عرفتهم كان أستاذاً في فهم الناس كان دائماً يضع يده على نبضهم. كان يعرف متى ترتفع حرارة الجماهير ومتى تنخفض. إذا سكت فأعلم أن الوقت غير ملائم للكلام وإذا تحرك فهذه لحظة الانقضاض! لم أره أبداً سائراً وحده. كانت الجماهير دائماً معه، تتبع خطواته، وتلبي أوامره تمشي خلفه! وكنت أرى الواحد منهم عجوزاً مهدماً مريضاً متعباً فإذا سمع صوت الجماهير كأنه شرب أكسير الشباب، هتاف الملايين ملأه بالنشوة والصحة والحيوية. الجموع الغفيرة سحرته فجعلت عينيه تبرقان وتلمعان لمعاناً عجيباً تحوله إلى ساحر وإلى قائد وإلى شبه نبي!

وبعض هؤلاء الذين عرفتهم كان لا يهمهم الناس يقول الواحد كلمته ويمشي. ولا ينظر خلفه ليرى هل تبعته الملايين أو سار وحده! وكم من مرة رجمتهم الجماهير بالطوب فلم تتوقف مسيرتهم، ولم تهتز

أعصابهم، وإنما زادتهم اللعنات الجاهلة إيماناً، وكأنهم كانوا يسمعون تصفيقاً وهتافاً. وكانت العقبات تشجعهم على المضي في الطريق الذي اختاروه، وكانت الصعاب تسعدهم ولا تخيفهم! ثم رأيتهم بعد سنوات والناس ترفعهم على الأعناق بعد أن كانت تطاردهم بالطوب، فلم تفرحهم القبلات كما لم تحزنهم الصفعات!

والرجل السعيد في بيته تكون له فرصة النجاح أكثر من الرجل الشقي في أسرته! ما أتعس الرجل الذي يسمع تصفيق الملايين خارج بيته ويسمع تأنيب زوجته في غرفة نومه. ما أشقى السياسي الذي يحتل حزب المعارضة غرفة نومه، فكأنه نائم مع المعارضة في فراش واحد كل كلمة يقولها لا تعجبها، وكل رأي يبديه تنتقده، وكل عمل عظيم يحققه تسخر منه أو تسحقه وتهزأ به!.

لقد قال الرئيس كارتر مرة أنه مدين لما وصل إليه إلى أسرته السعيدة «عندما تظاهرك زوجتك وتؤيدك أسرتك وتحس بثقتهم بك تشعر أنك واقف على قاعدة صلبة قاعدة لا تهتز، فتتحمل الصعود والهبوط، وتصمد للتأييد والخذلان وتبتسم وأنت تسمع الهتاف بحياتك والهتاف بسقوطك، ويعزيك أن تعود إلى بيتك فتجد زوجتك تشاركك كل شيء مشاركة تامة»!

وقال تشرشل مرة «عندما تقف زوجتي بجانبي أشعر أن الدنيا كلها معي. حتى ولو تخلى العالم كله عني».

يخطىء الذي يتصور أنه يستطيع أن يصعد إلى قمة المجد وحده.

لا بد من امرأة يتوكأ عليها!

زوجة أو أم.. أو أخت أو ابنة!

حذار من سنة ٢٠٠٠

لم يعد في استطاعة الدول الكبرى أن تفرض إرادتها على الدنيا. انتهى الزمن الذي كانت لندن تضغط على زر جرس فتسقط الوزارة في القاهرة، وتطلب موسكو زعيم الحزب الشيوعي في بوخارست فينقل رئيس جمهورية رومانيا من القصر إلى زنزانة في السجن، ويعطس رئيس الولايات المتحدة فيطير ثلاثة رؤساء دول في شرق آسيا!

سلاح البترول جعل في يد عدد من الدول المتوسطة والدول الصغيرة سلاحاً لا يقل فتكاً عن القنبلة الذرية..

والأرصدة التي لدول البترول في بنوك الغرب مثلاً نقلت ميزان القوى من يد الصهيونية العالمية إلى عدد من الدول غير الكبيرة!

ويقول العلماء أن هناك احتمالاً مخيفاً أن انتشار المفاعلات الذرية سوف يؤدي إلى انتشار صنع القنابل الذرية في دول صغيرة.

ففي سنة ١٩٩٠ - أي بعد أقل من ١١ سنة- ستكون الأمم النامية قادرة على إنتاج مقدار من البلوتونيوم في مفاعلاتها يكفي لإنتاج قنابل تصل إلى ما يعادل ثلاثة آلاف قنبلة بحجم قنبلة هيروشيما سنوياً!

وهي القنبلة التي ألقتها أمريكا على اليابان فقتلت عشرات الألوف ودمرت مدينة بأسرها، وأرغمت اليابان أن تركع على قدميها طالبة من الجنرال ماك أرثر الصفح والغفران!

وتصور مثلاً لو جن رئيس دولة صغيرة، وألقى عشراً من هذه القنابل على واشنطن وموسكو ولندن وباريس وبذلك يقضي على عواصم أغلب الدول الكبرى في بضع دقائق!

وتصور ماذا سيحدث للعالم كله إذا علمت أنه سيكون إنتاج البلوتونيوم العالمي في سنة ٢٠٠٠ - أي بعد ٢١ سنة فقط - أكثر من مليون رطل في السنة، وهو ما يعادل مائة ألف قنبلة سنوياً!

وسوف يكون نصيب أصغر دولة في العالم أكثر من مائة قنبلة ذرية سنوياً! وهو ما يكفي لهدم العالم كله مرة كل سنة!

وسوف تضطر دول العالم الكبرى أن تحل كل مشاكل الدول الصغرى قبل سنة ٢٠٠٠ حتى لا يقف مندوب الدول الصغيرة على منبر الأمم المتحدة، وبدلاً من أن يلقي خطاباً حماسياً يلقي قنبلة ذرية!

لطفي السيد العجوز يغلب الشباب!

من علامات الشيخوخة أن تكبر المسائل الصغيرة وتبالغ في أهمية المسائل التافهة، أن تفضل الغرف المغلقة على الهواء الطلق. أن تهتم بقراءة صفحة الوفيات ولا تهتم بأخبار حفلات الزفاف والخطبة والمواليد. أن تتحدث عن الماضي ولا تتكلم عن المستقبل. أن تفقد الاهتمام بشروق الشمس وترقب موعد الغروب!

إنني لو سألتك كيف حالك وأنت في العشرين ستقول «بمب»! وفي الثلاثين ستقول «عال»! وفي الأربعين ستقول «الحمد لله»! وفي الخمسين ستحدثني وكأنني طبيب جاء يسألك عن كل ما تشكو منه من علل وأمراض!

وقد التقيت في حياتي بعجائز، قلوبهم شابة، وعقولهم شابة، وأرواحهم شابة. كان أحمد لطفي السيد باشا أستاذ الجيل ووزير المعارف السابق ووزير الخارجية السابق وأول مدير للجامعة المصرية من العجائز الشباب الذين عرفتهم، عندما كان في التسعين من عمره كان يفكر كأنه في الثلاثين، أذكرُ مرة كنا في فندق سيسيل بالاسكندرية وكان معنا بعض الوزراء السابقين وكبار الموظفين، وجاء أحد الوزراء السابقين بابنته البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً وجلست معنا، وحرنا ماذا نقول لها. وأحسسنا أن الموضوعات السياسية الخطيرة التي نتحدث فيها تقابلها ببرود ولا مبالاة وعدم اهتمام، ثم رأينا لطفي السيد يميل عليها ويتحدث معها همساً، وإذا بالفتاة الصغيرة تصغي للفيلسوف

الكبير باهتمام. لا ترفع عينيها عنه، تتبع كل كلمة، تهز رأسها بين وقت وآخر وكأنها تسمع لحناً راقصاً!

ومكث الفيلسوف الكبير يتحدث ساعتين مع الحسناء الصغيرة، ثم تركنا وانصرف وأقبلنا على الفتاة نسألها ماذا كان يقول لها الفيلسوف الكبير!

وإذا بها تقول إن لطفي السيد باشا كان يحدثها عن الموضة.. نعم عن آخر أنباء موضة فساتين السيدات في باريس!

وعجبنا أن هذا الرجل وجد وقتاً ليقرأ عن فساتين السيدات، بين عشرات الكتب التي يقرأها عن الأدب والسياسة والفلسفة!

ولكن كان هذا هو سر لطفي السيد. جسم فان وعقل يتجدد، التجاعيد تملأ وجهه وقلبه كله شباب. يتفاهم مع الشباب أسرع مما يتفاهم مع الشيوخ، ومع النساء أسرع مما يتفاهم مع الرجال.. ويجلس مع البنات الصغار فتحسبه ولداً صغيراً بينهم، ويجلس مع الساسة القدامى فتحسبه أستاذهم.

وكان يتكلم وكأنه يحلم..

وكانت أحلامه جميلة دائماً!

علمتني أمي أن أقبل الهزيمة!

علمتني أمي أن أقبل الهزيمة. أعترف بها ولا أنكرها. أظهرها ولا أخفيها. أستفيد منها ولا أخجل منها!

كانت تقول لي إن المهزوم هو الذي يبحث عن شماعة يعلق عليها أخطاءه، هو الذي يغالط ويسمي الهزيمة نصراً، هو الذي يمضي وقته يبرر الهزيمة ويختلق أسباباً غير صحيحة لها! ولو أنه أمضى هذا الوقت في الوقوف على قدميه، وتصحيح أخطائه، والكفاح والعمل المتواصل، يحول الهزيمة إلى النصر!

ولقد هزمت في حياتي عدة مرات. وكانت أول هزيمة لي عندما صودرت المجلة التي كنت أصدرها مع أخي وأنا تلميذ في المدرسة الابتدائية، وكانت ثاني هزيمة لي عندما صادرت الحكومة مجلة التلميذ التي كنا نصدرها وكانت ثالث هزيمة يوم صادر مجلس الوزراء مجلة الأقلام التي أصدرناها بعد تعطيل التلميذ!

ثم توالت الهزائم. ما أكاد أخرج من هزيمة حتى أدخل في هزيمة جديدة. ولا أذكر عدد هزائمي فهي كثيرة، وأنا أذكر عدد المرات التي نجحت فيها فهي قليلة جداً! ما أكاد أبدأ حتى أنتهي. ما أكاد أقف فوق القمة حتى أجد يداً تدفع بي إلى السفح. ما أكاد أقوم حتى أقع!

ولا أذكر أنني يئست أبداً. إذا وجدت الباب مقفلاً في وجهي دخلت من النافذة. وإذا رأيت الصخور تسد طريقي حاولت أن أحفر

طريقاً لي بأظافري في الصخور!

وأكذب إذا قلت إنني نجحت وحدي! إنني وجدت دائماً يداً تمتد إليّ تساعدني على الوقوف. وجدت أناساً طيبين يحمون ظهري عندما توجه إلى ظهري السهام... وجدت خيرين يرفعون لي روحي المعنوية بكلمة أو دعاء! إننا ونحن نكافح نحتاج أحياناً إلى كلمة حلوة.. إنها في بعض الأحيان تساوي مليون جنيه... إنها أشبه بدعاء يفتح أبواب السماء!

هذه الكلمة الحلوة التي سمعتها وأنا أمشي في طريقي كانت دائماً أعلى من اللعنات!

وهكذا ضاعت اللعنات في ضوضاء حب الناس!

إنني مدين إلى حب الناس!

وحب الناس من حب الله!

لوحة الموزايكو!

لا أريد أن يكون كل إنسان عربي يشابه الإنسان الآخر. أتمنى لو احتفظ كل واحد منا بشخصيته وفرديته وتفرده. لا أتصور أن يذوب شعب في رجل. ولا أتمنى أن يفقد كل واحد منا فكره ورأيه واتجاهه وأحلامه ليصبح صورة من الآخرين.

قوة الأمة العربية في رأيي، أن تتألف من عناصر صغيرة يختلف بعضها عن بعض وتجمعها لغة واحدة. ولا تزيد قوتها إذا أرغمنا كل العرب أن يرتدوا البنطلونات، أو يضعوا على رؤوسهم العقال، أو أصدرنا قانوناً يوحد الزي من الخليج إلى المحيط!

القوالب الجامدة لا تصنع الأمة العظيمة. والمعنى المتكرر يفقد الكلمة بلاغتها، فنحن لا نضعف إذا بقي البدو بدواً والحضر حضراً، وإنما نضعف عندما يتخلى الواحد منا عن شخصيته، فيفقد لونه ويفقد طعمه...

فالدعوة إلى انصهارنا في فكر واحد مثلاً هي دعوة إلى تحويلنا جميعاً إلى اصفار على يسار رقم! إننا أشبه بالسمفونية اختلاف النغمات فيها هو الذي يصنع اللحن الرائع، أما إذا كانت النغمات متشابهة فإنها تتحول إلى نغمات مملة... ولهذا فإنني أتمنى أن تبقى كل دولة من دولنا محتفظة بطابعها، متمسكة بتقاليدها، ولا نحاول أن نبدو كنسخ متعددة لصورة واحدة! والصور المتشابهة لا تصنع فناً، وإنما يصنع الفن عدة

صور مرسومة لكل صورة طابعها ولونها وذوقها وروحها وتاريخها وتوقيع الرسام الموهوب عليها. وهذا هو الفرق بين صورة مرسومة وصورة منسوخة. . الصورة المرسومة لفنان تباع ببضعة ملايين، والصورة المنسوخة تباع ببضعة قروش!

كم أتمنى أن تتخصص كل دولة من دولنا بصناعة أو بحرفة، وأن تتخصص كل جامعة من جامعاتنا بفرع من فروع العلم. وأن تنفق كل دولة دخلها كله على الإبداع في هذه الصناعة والعلم. وليس هناك مصلحة أن تكون جامعة القاهرة، صورة من جامعة بغداد، وجامعة سوريا صورة من جامعة الجزائر. . أتمنى أن يجيء يوم يقال إذا أردت أن تدرس الذرة فاذهب إلى الرياض وإذا أردت دراسة صناعة الطيران إذهب إلى الجزائر، وإذا أردت دراسة التخصص في هندسة الطرق إذهب إلى تونس!

هذا «الموزايكو» هو الذي سيصنع لوحة جميلة تبهر العالم!

أصدقاء الكرسي!

كان كبار رجال الأعمال يتوافدون على الموظف الكبير في مكتبه، يبدون إعجابهم بكفايته، وانبهارهم بعبقريته، وتقديرهم لنشاطه، وذهولهم من قدراته!

وكان كل واحد منهم يهمس في أذنه أنه يتمنى أن يجيء اليوم الذي يفكر فيه الموظف الكبير في اعتزال العمل الحكومي، للاستعانة به في شركته أو مؤسسته. هذا يعرض عليه منصب المدير العام. وهذا يلوح له بمنصب رئيس مجلس الإدارة، وهذا يطلب منه أن يكون شريكاً في الشركة بنسبة كبيرة مع منصب العضو المنتدب!

وذات يوم وجد الموظف الكبير نفسه في الشارع. . بلا منصب ولا نفوذ ولا سلطان. .

وخطر بباله أصدقاؤه الذين عرضوا عليه المناصب، وألحوا عليه في قبول المرتبات الضخمة.

وذهب إلى أولهم فأنكر نفسه! وذهب إلى ثانيهم فقيل له أنه مشغول في اجتماع مجلس الإدارة. وذهب إلى ثالثهم فحدد له موعداً بعد شهر، وذهب إلى رابعهم فقابله بأدب جم وقال إن الوظائف الخالية لديه لا تليق بمقام الموظف الكبير السابق! وأرسل له الخامس مع سكرتيرته يقول له أن البيك يأسف لأنه علم أنه مغضوب عليه من الجهات العليا، وعمله لا يسمح له بأن يتصل بأحد من المغضوب عليهم!

وتذكر الموظف الكبير السابق أسماء الذين خدمهم، والذين لجأوا إليه وأنصفهم، أو الذين تعرضوا لمحن فقدم يده ينتشلهم أو يساعدهم على الوقوف!

وشعر كأن الأرض انشقت وابتلعتهم جميعاً، وتلفت حوله فلم يجد أحداً، وأحس بغربة مريرة. وفجأة دق الباب ودخل رجل أعمال، وتذكره على الفور، إنه صاحب شركة تقدم بطلب فرفضه وتشاجر معه وطرده من مكتبه، وحدث الوزير بشأنه فرفض وساطة الوزير، وقال إن الطلب غير قانوني! لا بد أن هذا الرجل جاء يشمت به، بعد أن فقد منصبه وسلطانه!

ولكن رجل الأعمال لم يشمت به، بل عرض عليه منصباً ضخماً في شركاته. وسأله الموظف الكبير السابق في عجب: كيف تفعل ذلك وأنا وقفت ضدك! قال رجل الأعمال: لأنني عرفت من وقوفك ضدي أنك رجل شريف، وعرفت من رفضك لوساطة الوزير أنك رجل لا يخاف وأنا محتاج لرجل شريف لا يخاف لإدارة أعمالي!

وعرف الموظف الكبير السابق أن الدنيا ليست كلها من الأشرار!

إضحك ... يضحك لك العالم!

لي صديق إنجليزي كان يشعر بتعاسة لا حد لها إذا رأى زوجته تقطب وجهها.

كان وجهها المكفهر يُنكد عليه الحياة، إذا خرج من البيت أحس بانقباض طول يومه، وإذا عاد إلى البيت ووجدها عابسة بقي في فراشه يتقلب ولا يستطيع النوم!

ولم يكن يحبها إلى درجة أنه لا يطيق رؤيتها عابسة، وإنما كان يتشاءم من الوجه العبوس، ويتفاءل من الوجه الباسم، وكان يعمل مديراً في أحد بنوك لندن، وكان يصر أن لا يعين في البنك إلا الوجه الضاحك، ويفضله على صاحب أكبر الشهادات وأكثر الخبرات؟ وكان يبحث دائماً عن أية رحلة يكلفه بها البنك خارج لندن لينجو لبضعة أيام من تكشير زوجته العابسة!

وعندما تقدم به العمر أصبح لا يستطيع مغادرة لندن بسهولة، واستطاع أن يتفق مع أحد مدربي الكلاب على أن يدرب له كلباً إذا رأى زوجته عابسة هجم عليها وأخذ ينبح، ولا يتوقف الكلب عن النباح إلا إذا توقفت الزوجة عن العبوس!

ونجحت هذه الطريقة الغريبة، وعبثاً حاولت الزوجة أن تطرد من البيت هذا الكلب الذي يتدخل فيما لا يعنيه!

وذات يوم دعاني الصديق إلى العشاء معه في بيته الأنيق في حي

مايفير، وقصت علي الزوجة قصة هذا الكلب، وقالت أنه جعل حياتها لا تطاق! لقد أفقدها الكلب حريتها في أن تعبس وأن تكشر كما تشاء!

ودُهشت من تمسك الزوجة في حقها في العبوس، وذهلت أنها تقول أنها تستريح وهي عابسة الوجه، وأنها تشعر بألم في فكها عندما تبتسم أو تضحك!

وظننت أن السيدة تمزح، ولكنها أكدت لي أنها لا تتصنع العبوس، وأنه أصبح طبيعة فيها، وأنها وهي تلميذة في السابعة من عمرها ضحكت في الفصل، فعاقبتها المعلمة عقاباً صارماً بقي راسباً في روحها طول حياتها، وأصبحت إذا حاولت أن تضحك أحست بآلام حادة في وجهها وفكها وأسنانها وذرفت عيناها الدموع!

وقال الزوج أنه صحب زوجته إلى طبيب نفساني في لندن، وقال له الطبيب أنه لا يمكن شفاء الزوجة من عبوسها الدائم!

ولكن الغريب أن الكلب نجح فيما فشل فيه أكبر طبيب نفساني في لندن!

المنافقون... يحفرون قبور الطغاة!

أعجب لصاحبي!

يجلس معي فينتقد ويهاجم ويسب ويلعن، فإذا كتب مدح وأثنى ودافع وقال ليس في الإمكان أحسن مما كان!

الشيء الذي يلعنه في الغرفة المغلقة يشيد به على رؤوس الأشهاد!

قلت له: عجيب أمرك. المفروض أننا عندما نرتكب معصية أن نرتكبها في الخفاء، ولكنك أنت رجل تصلي همساً وتكفر علناً، تعبد الله في البيت وترتكب الذنوب في الطريق العام!

قال: بصراحة إنني أخاف!

قلت: تخاف الحاكم ولا تخاف الله؟

قال: إن دخول النار أهون من دخول الزنزانة!

قلت له: لا تخف الزنزانة يا صاحبي! أنا مكثت في الزنزانة حوالي تسع سنوات، كنت أشعر فيها أنني أقوى من الذين سجنوني! كنت بعيداً عن السلطان وقريباً من الله! كانت معدتي خاوية وكان قلبي مليئاً بالإيمان!

قال: إن كلمتي لن تغير الحال!

قلت: كلمة صدق قد تهدم قلعة!

قال: همساتي سوف تضيع في ضوضاء الطبول!

قلت: هذا ليس عذراً لتسير في مواكب الطبالين والزمارين! إذا لم تستطع أن تقول كلمة الصدق فاسكت!

قال: الساكت عن الحق شيطان أخرس!

قلت: هذا خير من أن تكون شيطاناً متكلماً!

إن هذا النوع من الطبالين والزمارين موجود في كل بلد محروم من نعمة الحرية. هم أشبه بفرق الموسيقى التي تتقدم مواكب الأفراح. لا يعرفون اسم العريس ولا اسم العروس، ولكنهم يعرفون كم يقبضون في نهاية الزفاف! وبعض الناس يطبل ويزمر ليأكل أو ليطعم أطفاله الجياع وهؤلاء قد نسمي الواحد منهم «منافق الضرورة»! ولكن الشيء الغريب أن تجد ما يمكن أن تسميه «المنافق لله»! أي الذي ينافق وهو في غير حاجة إلى النفاق، فهو مليونير ليس في حاجة إلى طعام، وهو صاحب عمل تجاري كبير لا علاقة له بالدولة، وهو لم يرزق أولاداً يريد أن يوظفهم في مناصب كبيرة!

ومع ذلك كله إذا رأى أحد الحكام انحنى وانثنى، وحاول أن يقبل يده، وحرق البخور بين يديه، فإذا أدار هذا الحاكم ظهره سبه ولعنه وشتمه وتمنى على الله أن يخلص البلاد منه!

ومن العجيب أن بعض الحكام يفضلون المنافقين الذين يتزلفون لهم على المخلصين الذين يواجهونهم بكلمة الحق!

قلت لصاحبي: أمض في نفاقك أمض!.. إن المنافقين هم الذين يحفرون قبور الطغاة!

قال ضاحكاً: ولهذا أنافق!

أصدقاء فقدتهم:

كان لي في كل بلد صديق أطمئن إلى رأيه، أثق في حكمه. ألجأ إليه في مشاكلي وأهتدي بنصحه عندما أتوه في زحام الحياة!

وكنت صغيراً، ولهذا اخترت أصدقائي مثلي، شباباً مثلي، كانوا جميعاً عندما عرفتهم عند سفح الجبل، يخطون خطواتهم الأولى، ويحفرون طريقهم بأظافرهم في صخور الأيام!

وأنا رجل قليل الأقارب، أكاد أن أكون مقطوعاً من شجرة، ليس لي أعمام ولا أخوال، ولكنني كنت أشعر دائماً أن أصدقائي هم أقاربي. أولاد عمي وأولاد خالي. وكنت أحس بفخر أن شجرة عائلتي هذه تمتد إلى ما وراء البحار، وأن هذه الأسرة الكبيرة جداً مليئة بالأصول والفروع!

كان قلبي أشبه بجريدة كبيرة، لها مراسلون ومندوبون في كل بلد من بلاد العالم. صحيح أن لي في كل دولة أصدقاء وإخواناً كثيرين، ولكن كان دائماً بينهم صديق العمر، أقربهم إلى قلبي وأحبهم إلى نفسي. إذا أردت أن أسافر إلى بلده أخطرته. وإذا أراد أن يجيء إلى بلدي أخطرني. وكان بيننا أجراساً خفية ندقها فيسمعها الواحد منا. ويلبي النداء أينما كان في أي بلد من بلاد العالم.

وكان صديقي رقم واحد من السودان هو محمد أحمد محجوب الشاب المحامي المهندس الشاعر الذي أصبح في يوم من الأيام واحداً

من أهم رؤساء الوزارات في السودان، وكان صديقي رقم واحد في العراق هو المحامي النائب المعارض الثائر فائق السامرائي الذي كان واحداً من زعماء الديموقراطية والحرية والاستقلال في العراق. وكان صديقي رقم واحد في الأردن هو النائب الثائر كمال ناصر الذي أصبح فيما بعد أحد زعماء المقاومة وقتلته مخابرات إسرائيل في بيروت. وكان صديقي رقم واحد في لبنان هو أميل البستاني الذي كان واحداً من الذين أشعلوا ثورة لبنان على فرنسا وأصبح فيما بعد واحداً من أكبر الأثرياء ورجال الأعمال في العالم العربي.

ولقد رأيتهم جميعاً وهم يفيضون شباباً وحيوية، ثم رأيتهم وهم يموتون. وكلما مات واحد منهم أحس أن قطعة مني قد ماتت، ولا يمكن أن تعوض. فالصداقات التي تولد في المحن والخطوب والكفاح هي أطول الصداقات عمراً وأكثرها صموداً أمام الزمن. إنك تعرف الإنسان على حقيقته والضربات تنهال عليه، والأزمات تحاصره، والطغيان يحاول أن يسحقه ويقضي عليه. ترى في كل واحد من هؤلاء أعظم مواهبه وأروع صفاته. في مواجهة الطغاة الجبابرة تجد الشجاعة، وفي وقت الشدة تجد الذكاء الوقاد، وفي لحظات الفشل تجد التحدي والإصرار على النجاح وفي الظلام الدامس تجد الرأي الثاقب الذي يضيء كالنور!

إن صداقة الثوار متعة، وهي متعة كبرى عندما يكون الثوار عباقرة فوق أنهم ثوار!

الـ ٢٠٠ فكرة

أؤمن أن العمل عبادة، ولا يهمني أين أصلي. الذي يهمني أن أجد شبراً من الأرض أصلي فيه لربي ووطني.

إن الذي يهمني أن أجد مكاناً أقوم فيه بعبادتي.. فأنا عندما أكتب أحس برهبة وكأنني أؤدي صلاتي.

كلما أتطلع إلى جريدة عربية جديدة تبدأ خطواتها الأولى أشعر أنني أتطلع إلى شبابي.. كل بناء كهذا سكبت فيه دمي وعَرقي، وأحرقت أعصابي وفكري، وأعطيت جهدي وحياتي. في مثل هذا الحلم الجميل أمضيت أجمل سنوات عمري. هنا مشيت أحبو خطواتي الأولى في طريق طويل. هنا نبتت أحلامي وآمالي. هنا ولدت هزائمي وانتصاراتي. هنا رسمت أول صورة لحلم الصحافة العظيمة التي أتمناها لبلادي.

عندما أمشي في دهاليز أي جريدة عربية جديدة أبحث عن شبابي. أحس أن فيها بعض نفسي وبعض أنفاسي. أتطلع إلى الأحجار الجديدة والوجوه الجديدة فأرى نفسي في كل حجر وفي كل وجه.

عندما يتطلع الإنسان إلى نفسه في مرايا الزجاج لا يلحظ تغييراً أو تبديلاً، ولكنه عندما يتطلع إلى نفسه في وجوه الناس يعرف أنه تغير. تذهله التجاعيد وتدهشه الشعرات البيضاء.. والسعداء هم الذين تنبت الشعرات البيضاء في رؤوسهم، وتظهر التجاعيد على وجوههم لا على قلوبهم.

لا أشعر اليوم أن قلمي أحيل إلى المعاش، بل أشعر أنه وُلِدَ من جديد.. وهذه هي شهادة الميلاد!

مُصطفى أمين


العصر الحديث
للنشر والتوزيع